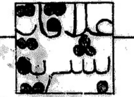
راجي عنايت

المناورات الخفية

في حياتنا العائلية والجنسية والعملية





دار الشروق


المناورات الخفية
في حياتنا العائلية والجنسية والعملية

الطبعـة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

راجي عنايت

المناورات الخفيّة

في حياتنا العائلية والجنسية والعملية

دار الشروق

هـذا الكتاب

هذا الكتاب ، إذا ما تناولته بجدية ، يساعدك فى الوصول إلى اجابة مقنعة ، أقرب إلى الاكتشاف المبهر ، على كل التساؤلات التى تدور فى ذهنك ، حول ما لا تجد له تفسيرا من العلاقات البشرية التى تدور حولك ، أو تجرى معك . إنه يساعدك على فهم كل ما يبدو غريبا ، وبلا تعليل ، من تصرفات من تحتك بهم ، فى علاقاتك العاطفية والزوجية والعملية .

عندما تتطلع حولك فى محيط الأسرة ، أو العمل ، أو غير ذلك من مجالات الاحتكاك الاجتماعى ستجد العديد من التصرفات غير المبررة أو المنطقية ، تصدر عن أشخاص يفترض فيهم النضوج والقدرة على الالتزام بالسلوك السليم . وإذاكنت على قدر أكبر من الأمانة مع النفس ، ستكتشف ان بعض تصرفاتك أنت ، فى مواقف معينة ومع أشخاص معينين ، تبدو لك غريبة ، وكأنها صادرة من شخص آخر .

أسئلة كثيرة ستجد اجابة كاملة عنها فى هذا الكتاب ..

ـ هذا الشاب الناجح الذكى المحبوب ، لماذا اختار بالذات هذه الفتاة سيئة الطبع ، التى تفتقد أى قدر من الجمال ، كزوجة له ؟ .. لماذا اختارها من بين عشرات الجميلات الدمثات المتعلمات اللاتى عرضن عليه ؟.

ـ هذا الشخص المتعلم المتفوق الذكى ، لماذا يفشل فى كل مشروع

يتصدى له . بينما ينجح فى هذه المشاريع من هم أقل منه ذكاء وخبرة ؟ . .
لماذا يبدو وكأنه يسعى باجتهاد إلى الفشل ، كلما سارت الأمور على مايرام ،
قام بحركة قاتلة ، تهدم كل ما بناه ؟ .

ـ هذه الفتاة ، لماذا تفعل كل ما يقنع ذلك الشاب بأنها تحبه وتريده ،
وعندما لا يستجيب ، تصعد التلميحات حتى تصل بها إلى حد التصريحات
المكشوفة ، لكن ما أن يتقدم خطوة نحوها حتى تعلن رفضها له ، محاولة تصوير
الأمر وكأنه هو الذى فرض نفسه عليها ؟.

ـ وهذا الموظف لماذا يتسم جهده دائما بالنقص والقصور ، رغم ما
يتصف به من ذكاء وكفاءة ؟ ، وما هو سر التماع العينين بالفرحة ، وشبح
الابتسامة الذى يرتسم على شفتيه ، كلما تلقى كلمات التوبيخ والتأنيب من
رؤسائه ؟ .

ـ وما سر هذه الضجة التى يثيرها الزوج ، مع الحرفى الذى جاء لاصلاح
صنبور المياه ، رغم أن العملية بأكملها لم تكن تستحق منه مثل هذا
الضجيج ؟ .

ـ وربة البيت المثقلة بالأعباء ، فى عملها وفى منزلها ، لماذا تسعد بقبول
المزيد من التكليفات والمهام الثقيلة ، كلما شعرت أنها أصبحت عاجزة عن أداء
مهامها الأصلية ؟ .

ـ وهذه الزوجة ، لماذا ترفض أى علاقة جنسية مع زوجها ؟، وعندما يصل
الزوج إلى حالة اليأس ، ويكف عن محاولاته ، لماذا تصعد أساليب اغرائها له ,
وتسعى إلى اثارته بكل وسيلة ؟.. ثم ما هى صرختها فى وجهه ، عندما يعود إلى
المحاولة ؟.

* * *

ـ وهذا اللص المحترف ، لماذا يبدو فى تصرفاته وكأنه يترك بطاقته فى مكان الجريمة ، مما يساعد رجال الشرطة إلى الوصول إليه ؟.

كل هذه الأسئلة ، والعديد من الأسئلة الأخرى ، التى تمس أكثر أمور حياتنا حساسية ، يمكن أن تجد اجابات شافية لها ، لو أننا فهمنا أساس المناورات الخفية التى نمارسها فى حياتنا اليومية .

سنكتشف أن كل تعامل بين البشر ، يكون له معناه الخفى المستور ، الذى يتناقض مع معناه الظاهر للجميع . وأن البشر يقيمون القدر الأعظم من علاقاتهم ، على أساس مجموعة من السيناريوهات السرية ، أو التعاقدات الضمنية غير المعلنة . وسنعرف مدى الخطورة التى تقود إليها هذه المناورات ، وطاقة التخريب الهائلة التى تنطوى عليها .

وأخيرا ، سنأخذ فكرة عن الوسائل الكفيلة بإيقاف هذه المناورات ، والطرق التى تقود إلى تبنى علاقات بشرية أمينة صريحة ، ذات وجه واحد ، من خلال التآلف الصادق .

* * *

يتضمن هذا الكتاب حصيلة الجهد الكبير الذى بذله عدد من أساتذة علم النفس الاجتماعى ، على مدى سنوات طويلة ، وعلى رأسهم دكتور اريك بيرن ، الذى يعود إليه أكبر الفضل فى اكتشاف الحقائق التى تكمن وراء التعاملات الدائرة بين البشر .

وقد حرصت على أن أضمن هذا الكتاب أكبر عدد من الألعاب الخفية التى درسها بيرن ، والتى استطاع تحليلها ، وتوصل إلى أسلوب علاجها . ولكنى حرصت فى نفس الوقت على أن يتضمن الكتاب جهد زملائه وتلامذته ، ممن أضافوا إلى رؤيته ، وساعدوا على تطويرها ، من أمثال دكتور

توماس هاريس ، ودكتور تشابمان ، وسافيل ساكس ، وساندرا هولاندر وكلود شتاينر.

وأعتقد أن فهم حقائق هذا الكتاب ، مفيدة أيضا بالنسبة لمؤلفى الروايات والقصص والمسرحيات والمسلسلات التليفزيونية ، فهى تمدهم بزاد من المعلومات والمعارف ، التى تساعدهم على رسم شخصياتهم بشكل أكثر ثراء وخصوبة . وقد قمت بمحاولة على هذا الأساس ، خلال السبعينيات ، فكتبت ١٥ حلقة من الدراما التليفزيونية ، تحت اسم « لعبة كل الناس » ، قدمت فيها نموذجا لكيفية الاستفادة من حقائق هذا الكتاب فى رسم الشخصيات الدرامية .

* * *

هذا كتاب للقارئ العادى، لا يقتضى معرفة مسبقة بألغاز المدارس والممارسات النفسية . ولا يعتمد على اصطلاحات أو حقائق يصعب على القارئ العادى أن يتفهمها ، ويدرك مغزاها .. إنه وسيلة فعالة وواضحة لمساعدة الذات .

راجى عنايت

مايو سنة ١٩٨٩

مقـدِّمَـة

كلما تأملت أحوال المخلصين من الأطباء والمحللين النفسيين ، أشفقت عليهم ، وتذكرت قول أحد المفكرين ، الذى وصف جهد الواحد منهم ، بأنه فى عمله يشبه شخصا معصوب العينين . يبحث فى حجرة كاملة الاظلام ، عن قطة سوداء ، غير موجودة بالحجرة ! ..

وحالة عدم الرضا التى تتصاعد على مر السنين ، لا تقتصر على الأطباء النفسيين ، ولكنها تمتد وتشمل الأطباء عامة .

الثابت ، أننا بدأنا نتمرد على كل الممارسات التى تمس السلامة الصحية للإنسان . نتمرد على عجز العلوم الطبية ، حتى الآن ، فى الوصول إلى طريقة أمثل لوقاية الإنسان ككل من كل ما يتهدد سلامته . نتمرد على شيوع الخيلاء بين الأطباء ، بمختلف تخصصاتهم ، رغم عجزهم عن التصدى لحوالى ٨٥ فى المائة من الأمراض ، والتى يقولون عنها إنها أمراض (سيكوسوماتية) ، أو عقلية جسدية .. أو بمعنى أكثر صراحة وأمانة ، أمراض لم يوفق الطب الأكاديمى حتى الآن فى الوصول إلى طريقة لفهمها ومواجهتها .

نتمرد بالتحديد على الأطباء والمحللين النفسيين ، نتيجة لطول أمد العلاج ، وارتفاع تكلفته ، وضعف النتائج التى يحققها . وفى هذا المجال ، لا يقتصر التمرد ونفاذ الصبر المتزايد على المرضى وذويهم ، وعلى الرأى العام ،

لكنه يمتد ليشمل الأطباء النفسيين أنفسهم ، وبشكل أدق ، المخلصين منهم ، وليس المنتفعين باستثمار المرض النفسى فى تحقيق المزيد من المنافع المادية .

* * *

هذا التمرد الذى أحكى عنه ، لاينفى ماقد حققته العلوم الطبية والنفسية للبشر ، على مدى القرون الثلاثة الماضية ، وهى عمر العصر الصناعى ، من فوائد ومنافع ، ومافعلته من أجل تجنيب البشر الكثير من الآلام والمتاعب . لكن حالة عدم الرضا الحالية ، لاتقتصر على التفاصيل ، ولكنها تمتد إلى الأساس الذى قامت عليه الرعاية الصحية ، طوال هذه القرون الثلاثة . وتكشف عن ضرورة اعادة النظر فى المنطق المستمد من فكر وعقلية العصر الصناعى ، والذى قامت عليه الممارسات الصحية .

* * *

يعتبر التخصص من أهم أركان الحياة الصناعية ، وقد أفاد فائدة كبرى فى تطوير الصناعة والتكنولوجيا ، وفى الوصول إلى تفسير لكثير من حقائق العالم المادى .

ورغم النجاح الذى قاد إليه مبدأ التخصص ، فى كثير من مجالات الحياة الصناعية ، إلا أنه أثبت فشلا ، عندما جرى تطبيقه على الكيان الإنسانى ، وعندما أوكل أمر كل عنصر من عناصر الوجود البشرى إلى أخصائى ، دون إدراك أن سلامة الإنسان تتحقق من خلال النظرة الكلية إلى كيانه ، باعتباره مجموعة من العناصر متبادلة التأثير ، تتحقق سلامتها فى تكاملها .

يقول الكاتب آلفين توفلر فى كتابة « الموجة الثالثة » .

« فى حقل الصحة العقلية ، يحث المعالجون النفسيون عن طرق لعلاج (الإنسان ككل) ، بتبنى العلاج الجشتالتى .. وكان الهدف من هذا النشاط ، وفقا لقول المعالج النفسى فردريك بيريس . هو زيادة قدرات الإنسان المحتملة

من خلال عملية تحقيق التكامل بين الادراك الحسى للفرد ، وادراكه العقلى ، وعلاقاته بالعالم الخارجى » .

وكما جرت إعادة نظر فى قوانين نيوتن ورؤيته للكون على يد اينشتين ، وكما قامت نظريات جديدة تنسخ ما قاله دارون عن الانتخاب الطبيعى ، كذلك قامت مدارس جديدة لعلم النفس ، تطرح مفهوما جديدا للنفس البشرية ، يتجاوز ذلك الذى قدمه سيجموند فرويد .

* * *

من أعلام النظرة الجديدة للنفس البشرية ، هارى ستاك سوليفان (١٨٩٢ ــ ١٩٤٩) ، الذى يعتبر صاحب الفضل الأول فى الاهتمام بتحليل مايجرى بين البشر من تعاملات ، كوسيلة لتحقيق الصحة النفسية. وإذا كان سوليفان قد بدأ بحثه معتمدا على نظريات فرويد ، إلا أنه توصل بعد ذلك إلى تناول جديد فى العلاج النفسى وفى الوجود البشرى ، يرتكز أساسا على دراسة مايجرى بين الأشخاص . لقد اهتم فرويد بالذى يجرى (داخل) الفرد ، بينما انصب اهتمام سوليفان على مايجرى (بين) الناس .

وقد لايكون سوليفان معروفا للقارئ العادى ، لأن أغلب كتاباته كانت موجهة إلى العاملين فى مجال العلوم الطبية والاجتماعية . ورغم أنه نشر بعضا من وجهات نظره خلال حياته ، إلا أن القدر الأكبر من الأفكار المنشورة حاليًا ، تم جمعها من واقع محاضراته ، والندوات التى شارك فيها .

وبعكس سوليفان ، استطاع أريك بيرن (١٩١٠ ــ ١٩٧٠) ، الذى تسلم منه الخيط ، أن يرسى أساس رؤية جديدة للسلامة النفسية ، من خلال ما أطلق عليه « تحليل التعاملات » ، وأن يصل من خلال كتابه واسع الانتشار « ألعاب يمارسها الناس » ، إلى ملايين القراء . لقد استطاع أريك بيرن أن يصيغ رؤيته بلغة سهلة يفهمها القارئ العادى ، ويستجيب لها ،

ويجد لها صدى فى خبراته اليومية ، وفى اتصاله بغيره من البشر .

وفى هذا يقول دكتور توماس هاريس أستاذ الطب النفسى :

« إننا ندين بالفضل لدكتور أريك بيرن . فهو من خلال تطويره لمضمون (تحليل التعامل) ، قد خلق نظاما مترابطا للعلاج النفسى الفردى والجماعى ، مفهوم على المستوى النظرى ، وفعّال على المستوى التطبيق » .

* * *

والآن ، دعنا نمضى معا إلى العالم الذى فتح إريك بيرن أبوابه ، والذى يوفر لنا اجابات شافية على الكثير من التساؤلات التى تواجهنا فى الحياة اليومية ، حول علاقتنا بالآخرين ، وعلاقة من حولنا ببعضهم البعض .

الفصل الأول

الحالات الشعورية للإنسان

التعامل
ضرورة لا غنى عنها للفرد

قلت إن هذا الكتاب يتوجه إلى القارئ العادى ، وإنه لا يحتاج إلى معلومات متخصصة فى علم النفس ، أو التحليل النفسى ، أو العلاج النفسى ، ولو كانت المناورات الخفية حالة خاصة فى سلوك البشر ، لما كانت هناك حاجة إلى التوجه بالحديث عنها إلى القارئ العادى غير المتخصص . لكن، إذا عرفنا أن شقا كبيرا من حياة الغالبية العظمى من البشر، يقوم على ممارسة هذه المناورات أو الألعاب ، فى أكثر الدول تحضرا كما فى غابات أواسط أفريقيا ، ظهرت لنا الحاجة إلى طرح خفايا هذا الموضوع طرحا عاما ، بهدف جعل حياتنا أكثر صدقا وأمانة ونفعا . لهذا وجدت من الضرورى أن أطرح ـ بأقل غوص فى التفاصيل والمصطلحات ـ الأساس العلمى الذى قامت عليه عملية تحليل التعاملات بين البشر ، والتى تسعى إلى تقليل خطر هذه المناورات على حياتنا .

البحث عن الأساس :

من أسباب النقد الذى يوجه لعلم العلاج النفسى ـ كما أرسى أصوله سيجموند فرويد ـ هو أنه غير علمى !..

وينبع هذا الموقف ، أساسا ، من أن العلاج النفسى لم يتوصل إلى وحدة

أساسية ، يرتكز عليها فى ملاحظاته . إنها نفس الصعوبة التى واجهت علماء الطبيعة ، قبل التوصل إلى النظرية الجزيئية ، وعلماء الطب قبل التوصل إلى البكتيريا .

لقد كان إريك بيرن هو أول من استطاع تحديد هذه الوحدة العلمية الأساسية ، وقدم تعريفا لها وهو الذى أطلق عليها اسم « التعامل » . ونتيجة لهذا الكشف ، توصل بيرن إلى تحليل التعاملات بين البشر ، وإلى تطوير منهج متكامل لاختبار أى « تعامل » ، وتحديد مصدر هذا التعامل ، داخل طرفيه أو أطرافه . وهكذا استطاع أن يقدم لنا إجابة عن سؤال مازال يحيرنا : « لماذا يفعل الناس مايفعلونه ؟ » .

التنبيه احتياج حيوى :

من العناصر الأساسية التى تحكم فعل الفرد ، حاجته الشديدة إلى التنبيه ، إلى أن يبدى الناس من حوله مايفيد أنهم يشعرون بوجوده .

هذه حقيقة أولى يعتمد عليها بيرن فى بناء نظريته . لقد انتبه بيرن إلى أن الأطفال الذين يحرمون من الرعاية والاهتمام لفترات طويلة ، يتعرضون لحالة من التدهور ، تقود فى نهاية الأمر إلى إصابتهم بسلسلة من الأمراض المتداخلة . فالحرمان العاطفى يمكن أن يؤدى إلى نتائج خطيرة . لقد اكتشف بيرن أن الإنسان يشعر بحاجة ملحة إلى التنبيه ، أو تلقى الأشارات من الغير ، كما يشعر بحاجته إلى الطعام .

ولعل خير مثال لهذا . هو حالة الأفراد الذين يحكم عليهم بالحبس الانفرادى لفترات طويلة . ويدرك العاملون فى حقل الجريمة أن السجناء الذين يتحملون أقسى العقوبات البدنية ، يخافون أشد الخوف عقاب الحبس الانفرادى .

وتبدأ محنة الفرد عندما ينفصل عن أمه ...

فبعد أن تنتهى فترة الألفة الشديدة مع الأم ، بكل ماتتضمنه هذه الفترة من تنبيه دائم حميم ، يواجه الطفل – لباقى حياته – محنة اختيار الطريق الذى ستمضى فيه هذه الحياة : إما أن يستجيب للقوى التى تقف فى وجه استمرار تلك الألفة الجسدية التى عرفها فى طفولته الأولى ، أو أن يظل يعانى باستمرار للحفاظ على هذه الألفة ، وللتمسك بها .

فى أغلب الأحيان ، يلجأ الفرد إلى التوفيق بين هذين البديلين ، ويتعلم كيف يصوغ أشكال تعامله ، بطريقة رمزية أكثر عمقا وتخفيا ، بحيث تصبح إيماءة التحية بالرأس ، كافية بشكل ما لسد حاجته ، مع أن سعيه الأصلى الأعمق للاتصال الجسدى مازال على نفس قوته .

أى أن حاجة الفرد إلى التنبيه الجسدى الحميم ، الذى عرفه فى طفولته الأولى ، تتحول جزئيا إلى رغبة شديدة فى أن يتعرف عليه الآخرون ، ويبدون مايفيد أنهم يشعرون بوجوده . ومع تزايد التعقيدات الداخلة فى عملية التوفيق هذه ، يصبح الناس أكثر تنوعا وتمايزا فى سعيهم إلى أن يعترف الآخرون بوجودهم .

النجم السينمائى ، على سبيل المثال ، يحتاج إلى مئات الاشارات كل أسبوع من جمهور المعجبين الواسع ، حتى يهدأ باله ، بالرغم من أنه لايعرف أفراد هذا الجمهور معرفة شخصية . بينما يكتفى العالم الباحث بإشارة واحدة من أستاذ له قيمته ، مرة واحدة فى السنة ، لكى يرضى عن حياته .

الربت :

يطلق أريك بيرن على إشارات التعبير عن وجود الفرد اسم « ربتات » ، بحيث تكون وحدة الاتصال بين الفرد والآخرين هى « الربتة » . وقد تبدو الكلمة

غريبة ، لعدم شيوعها فى حديثنا ، لكنها الترجمة الأقرب إلى كلمة STROKE الإنجليزية ، فى مجالنا هذا . والربت هو ما نطلق عليه فى لغتنا الدارجة (الطبطبة) ، وهو ما تفعله الأم عندما تضرب بيدها ـ بخفة ورقة ـ على وليدها ، حتى ينام . وتأخذ الربتات أشكالا مختلفة ، فى مناسبات مختلفة . بعض الناس يربتون على الطفل بالمعنى الحرفى للكلمة ، والبعض الآخر يحتضن الطفل ، أو يقرصه ممازحا ، أو يمسد شعر الطفل ويسويه ، أو يدغدغه بطرف إصبعه . والربت فى جميع هذه الأحوال إعلان منا عن وجود الطفل .

يستخدم إريك بيرن اصطلاح « الربت » ليشير إلى أى فعل يستهدف الاعتراف بوجود شخص آخر ، طفلا أم بالغا . وبهذا يعتبر « الربتة » وحدة أساسية للفعل الاجتماعى . أما تبادل « الربتات » بين شخصين ، فيطلق عليه اسم « التعامل » ، على اعتبار أن التعامل هو الوحدة الأساسية للعملية الاجتماعية .

حرصت على إيراد هذه الاصطلاحات لأنها تتضمن مع غيرها الأساس الذى نعتمد عليه فى فهمنا لسر ما يجرى بين الناس فى حياتهم اليومية .

* * *

بعد أن تتحقق للفرد رغبته الملحة فى أن يبدى الآخرون مايفيد الاعتراف بوجوده ، بعد أن تنتهى التحيات والسلامات ، ما الذى يفعله الفرد فى اعقاب ذلك ؟.. ماهى الطرق التى يشغل بها وقته فى تعامله مع الآخرين ؟..

كيف نشغل أوقاتنا ؟

ماذا بعد ؟

ماذا يفعل الناس بعد الانتهاء من تبادل التحيات التقليدية ؟.

عرفنا أن سعى الإنسان إلى التنبيه ، وإلى أن يبدى الآخرون مايفيد إحساسهم بوجوده ، يقود إلى سعيه إلى التعامل مع الآخرين ، فبدون هذا التعامل لايتحقق له التنبيه المطلوب . وعندما يصبح التعامل احتياجا ، تظهر أمام الشخص مشكلة جديدة : كيف يشغل دقائق أو أيام أو أعوام تعامله مع الآخرين ؟.

لو تأملنا حياة أى فرد منا ، لوجدنا أن الفرد تكون لديه ثلاثة مجالات رئيسية ، يشغل بها ساعات يومه ، منذ أن يستيقظ وإلى أن ينام :

- مجال النشاط العملى أو المادى ، أى العمل الذى يقوم به أو الوظيفة التى يتولاها .
- مجال الطقوس ، أو التعاملات التى يرسم المجتمع اطارها (توديع ، استقبال ، أفراح ، مآتم) .
- مجال فردى ، وهو يتضمن التعامل الفردى مع الآخرين ، فى غير العمل الفعلى أو الطقوس .

هذا التقسيم هام جدا ، فى تعرفنا على التربة التى تنمو فيها الألعاب أو

المناورات الخفية ، لهذا سنقوم بتوضيح هذا التقسيم تفصيليا فيما يلى :

البرنامج المادى أو النشاط العملى :

وهو الطريقة التى ننظم بها أوقات العمل الذى نحترفه . وهذا النشاط العملى لايهمنا كثيرا فى فهمنا للألعاب أو المناورات الخفية ، إلا فى حدود أنه يوفر للفرد فرص تبادل الربتات والتعرف على الآخرين ، كناتج جانبى .

العمل الفعلى المحترف لاتدخل فيه المناورات أو الألعاب ، لأنه يقوم على التعامل مع المعلومات والمعطيات . فعملية اصلاح السيارة مثلا ، تقوم على سلسلة من القياسات والمعلومات وتقدير الاحتمالات . ومن ثم ، فأى تبادل اجتماعى يتحقق خلال هذا النشاط العملى ، يجب أن يتفق مع هذه السلسلة ، حتى يمكن الانتهاء من إصلاح السيارة ، بأفضل شكل ممكن .

البرنامج الاجتماعى أو الطقوس :

الآباء والأمهات ، فى جميع انحاء العالم ، يعلمون أولادهم أصول السلوك ، بما يضمن معرفة الأبناء بالطقوس والتقاليد المناسبة : تبادل التحيات ، تناول الطعام ، المجاملات ، التعازى . يعلمونهم آداب الحديث ، ماهو مسموح به من ألفاظ ، وماهو مرفوض . وهذه المسموحات والمحاظير ، التى تشكل أصول اللياقة ، بعضها محلى والبعض الآخر عالمى .

هذه الطقوس والتقاليد ، غالبا ماتقود إلى نوع من الحوار ، أشبه بالطقوس . هذا النوع من الحوار شبه الطقسى ، هو مايمكن أن نطلق عليه اسم « التسلية » ، أو تمضية الوقت .

البرنامج الفردى أو الألعاب :

عندما يصبح الناس أكثر تعارفا ، من خلال العمل ، أو ممارسة الطقوس ، أو « دردشات » التسلية ، يبدأ البرنامج الفردى للإنسان زحفه

شيئا فشيئا . وينمو التعامل العملى أو التقليدى السطحى إلى وقائع وأحداث ، تبدو فى الظاهر وكأنها عفوية ، على الأقل فى نظر أطرافها . لكن الملاحظة الدقيقة ، تكشف خضوعها لسيناريوهات محددة ثابتة ، قابلة للتجميع والتصنيف ، وأن الواقعة التى جرت كان قد تم رسم مسارها والتخطيط لها وفق قوانين وقواعد ضمنية ، غير مكتوبة أو معلنة .

هذه القواعد تبقى كامنة وخافية ، إذا ما سارت التعاملات وفقا للخطة المرسومة أو السيناريو المكتوب ، سواء كانت هذه المعاملات تعكس مودة ومحبة أو خصومة وعداء . لكنها تقفز إلى السطح ، إذا ما خرج أحد اللاعبين عن النص ، واتخذ خطوة غير مطابقة للقواعد المتفق عليها ضمنيا . هذا الموقف يبيح للآخرين ممن يدخلون فى هذه اللعبة أن يصيحوا « إمسك .. غشاش ! » . وهذه الصيحة قد تكون رمزية أو حرفية ، وتصل فى بعض الأحيان إلى أقسام الشرطة والمحاكم .

هذا النوع من التتابع ، هو الذى يطلق عليه ايريك بيرن اسم « لعبة » ، لتمييزه عن نشاط « التسلية » الذى هو جانب من البرنامج الاجتماعى .

لقد اكتشف بيرن أن الحياة العائلية والزوجية والجنسية والاجتماعية ، والحياة فى التنظيمات والمؤسسات والجمعيات من مختلف الأنماط ، تمضى جميعا ـ عاما بعد عام ـ على أساس تنويعات متباينة للعبة من هذه الألعاب ، التى ستكون موضوع حديث تفصيلى فيما يلى .

وبداية ، يجب أن نلفت النظر إلى أن تعبير « ألعاب » أو GAMES ، لايعنى أنها تكون طريفة أو مسلية أو مضحكة بالضرورة . ولايعنى أن الذين يمارسونها لايدخلون مراحلها بكل جد وعزم وتصميم . وسنرى عند استعراض الألعاب المختلفة ، مثل لعبة « مدمن الخمر » ، أو « الاغتصاب » أو « انظر ماذا جعلتنى أفعل » تبدو مأساوية أكثر منها طريفة ،

تصل بالإنسان إلى ساحات القضاء أو إلى الانتحار .

* * *

عند استعراض المجالات الرئيسية التى يشغل بها الإنسان ساعات يومية ، أرجأت ـ متعمدا ـ الاشارة إلى الشكل الأرقى للعلاقة البشرية ، أعنى بذلك علاقة الألفة أو التآلف بين الأفراد .

فنحن نغرق فى (التسلية) و (الألعاب) ، لأنهما بديلين للمعايشة الحقيقية الصادقة التى تتحقق فى علاقة (التآلف) . ومن هنا يمكننا أن ننظر إلى التسلية والألعاب باعتبارهما ارتباطات أولية ، تختلف جذريا عن الاتحاد الوثيق الأمين الذى يحققه (التآلف) .

فى رحاب (التآلف) تنسحب البرامج الاجتماعية ، والمجاملات الطقسية التقليدية ، وتنسحب البرامج الفردية القائمة على المناورات الخفية . ذلك لأن (التآلف) هو الإجابة الكاملة الوحيدة لاحتياجات التنبيه والتعرف وشغل الوقت ، التى تحرك الإنسان . ويتجسد نمطه الأمثل فى حالة الحب القوى الحقيق الذى لاينهزم .

ولكن .. لأن فترات التآلف الطويلة نادرة ، ولأنها إذا تحققت تحتاج إلى رعاية دائمة من أطراف العلاقة ، وجهد مستمر للابقاء عليها ، فغالبا مايفشل البشر فى تحقيقها وبلوغ مداها ، ومن ثم يستعيضون عنها بممارسة (الألعاب) .

وسنعود فى نهاية هذا الكتاب للحديث بالتفصيل عن (التآلف) . أما الآن ، وقبل أن نبدأ تحليل التعاملات الداخلة فى النشاطات العملية والطقوس والتسلية ، لكى نصل إلى تحليل الألعاب ، قبل هذا ، لابد من توضيح الكيانات المختلفة داخل كل إنسان والتى تنطلق منها تعاملاته مع الآخرين . فنى هذا التعدد داخل الفرد يكمن مفتاح فهم (الألعاب) على أساس علمى .

الذاكرة وجراحة المخ

أظهرت الملاحظة الدقيقة للنشاط الاجتماعي التلقائي، أن الناس يظهرون من وقت لآخر، تغيرًا ملموسًا فى حركاتهم، ووجهات نظرهم، وأصواتهم، ومفرداتهم، وغير هذا من مظاهر سلوكهم. هذه التغيرات فى سلوك الشخص غالبًا ما تكون مقترنة بتغيرات فى المشاعر...

ولكى نفهم هذا، نأخذ على سبيل المثال حالة مدير فى إحدى الشركات.

هذا المدير، عندما يلتقى مع زملائه من المديرين، فى اجتماع بالشركة، لبحث وسائل زيادة الانتاج، يتبادل مع زملائه الخبرات والآراء والأفكار بشكل موضوعى. ومن خلال هذا يسعى الجميع إلى أن يصلوا إلى إجراءات تؤدى إلى زيادة الإنتاج. لو تأملنا هذا المدير، خلال الاجتماع، سنلاحظ أنه يستعمل مفردات معينة، ولغة خاصة، وطبقة صوت محددة. كما نلاحظ أنه فى جلسته، وفى حركات رأسه ويديه، يلتزم بطريقة خاصة. سنجد أن حديثه خلال هذا الاجتماع، تتواتر فيه تعبيرات مثل «بناء على احصائيات العام الماضى، فإننى أرجح..»، و«مع اقتناعى برأى الزميل إلا أننى أشعر أنه أغفل جانب التوزيع فى ...»، إلى آخر هذه التعبيرات التى

تصدر عن كل من يتصدى لعمل يريد إنجازه وفق كل ما لديه من كفاءة وخبرات .

نفس هذا المدير ، قد نراه بعد ساعة من ذلك الاجتماع ، وقد استقبل أحد صغار العاملين فى إدارته ، الذى جاء يشكو من مشكلة يصادفها فى عمله ، أو من صغر العلاوة التى خصصت له ، وصعوبة تلبيته لحاجات بيته فى حدود المرتب الذى يتقاضاه . إذا لاحظنا المدير بدقة ، وهو يتحدث إلى الموظف الصغير ، سنجد اختلافًا كبيرًا فى نوع المفردات التى يستخدمها ، وفى اللغة التى يتكلم بها . سنجد اختلافًا فى جلسته وحركات يديه وايماءات رأسه . وستشيع فى حديثه تعبيرات مثل «يا ابنى المثل بيقول على قد لحافك مد رجليك ، وأنت واضح أنك ..» ، أو «إحنا يا ابنى تعبنا كتير واحنا صغيرين .. اشتغلنا وعرقنا لغاية ما وصلنا للى احنا فيه دلوقتى ..» ، إلى آخر هذه التعبيرات .

ومرة ثالثة ، نفس هذا المدير ، قد نراه عصرًا ، فى النادى مع جمع من أصدقائه ، يلعب (الدومينو) . إذا لاحظناه فى هذه الحالة سنجد اختلافًا هائلاً عن كل من الحالتين السابقتين ، وكأننا أمام رجل آخر ، غير الذى عرفناه . ومرة أخرى ، سنرى لغة جديدة ، وحركات جديدة ، واشارات جديدة . سنراه يتراقص فى مكانه عندما يقوم بلعبة ماهرة ، تحرج خصمه ، وسنجده يصيح بأعلى صوته وهو يصفق «إلعب يا غشيم .. انزل بقى بالدش اللى فى ايدك ..» ، أو نجده يتمايل وهو يردد «راحت عليك يا حلو .. راحت عليك يا حلو ..» .

ثلاثة أشخاص فى شخص واحد ! .

ويطلق أريك بيرن على هذا التنوع اسم (حالات الأنا) أو (الحالات الشعورية) . ويقيم على هذه الحالات الثلاث تحليله للتعاملات والألعاب .

تجارب جراحة المخ العجيبة :

لم يكن باستطاعة أريك بيرن أن يقيم أفكاره على أساس متين ، لولا الاكتشافات العجيبة التى توصل إليها دكتور وايلدر بينفيلد جراح الأعصاب بجامعة ماكجيل فى مونتريال ، عام ١٩٥١ ، حول الذاكرة والحالات الشعورية ، والتى وفرت لبيرن أساسًا معمليًا قويًا لاستخلاصاته .

فخلال العمليات الجراحية التى أجراها دكتور بينفيلد على المخ ، قام بعدة تجارب ، عمد فيها إلى لمس جانب من مخ المريض ، بقطب يحمل تيارًا كهربائيًا ضعيفًا . وقد واصل جمع ملاحظاته عن هذه التجارب لعدة سنوات .

كان المريض فى كل حالة ، واقعًا تحت تأثير تخدير موضعى ، ومن ثم واعيًا ، وقادرًا على التحدث إلى دكتور بينفيلد. وجد الجراح العظيم أنه كلما أثار أو نبه بقطبه الكهربائى نقطة معينة على سطح المخ ، قفزت إلى وعى المريض ذاكرة معينة . وعند تنبيه نقطة أخرى ، قفزت إلى وعيه ذاكرة أخرى . وقد لاحظ دكتور بينفيلد أن تنبيه نقطة معينة بالتحديد ، يثير نفس الذكريات . كما لاحظ أن إثارة الذاكرة فى نقطة معينة . لا تقف عند حد استرجاع صورة أو صوت قديم ، بل تتعدى هذا إلى استرجاع الحالة الشعورية الكاملة التى صاحبت هذه الذكرى ، وقت وقوعها .

على سبيل المثال ، إذا أثيرت ذكرى حادث تصادم بين دراجة المريض وسيارة فى الطريق ، عندما كان فى السابعة من عمره . فإنه يعيش هذه التجربة من جديد بكاملها . نفس الألم العضوى وتلاحق الأنفاس ، والأنفعال ، وتفاصيل المشهد ، وصوت الاصطدام ، وصيحات الناس فى الطريق ، إلى آخر ذلك ..

نقطة أخرى مهمة توصل إليها دكتور بنيفيلد ، هى أن تفجر هذه

الأحداث القديمة يتم بطريقة لا إرادية ، أى أن هذه الحالات الشعورية القديمة ، تقفز إلى السطح بمجرد لمس نقطة من المخ ، دون أن تتدخل إرادة المريض . إنه لا يستدعى ذاكرة الحدث ، لكن الحدث يفرض نفسه على اللحظة . وأن الإنسان فى هذه الحالة يكون الممثل والمتفرج فى آن واحد .

يقول دكتور توماس هاريس ، زميل دكتور اريك بيرن «إن الذكريات تثار بمنبهات الخبرات اليومية لكل إنسان ، بنفس الطريقة التى أثيرت بها اصطناعيًا بواسطة القطب الذى يمسك به دكتور بينفيلد» .

* * *

على أساس هذه التجارب ، وبالملاحظات المعملية الدائبة ، استطاع دكتور اريك بيرن أن يحدد ثلاث حالات شعورية أساسية تصدر عنها تصرفات الشخص فى حياته .

الوالد . البالغ . الطفل

يبدو أن كل شخص يكون لديه ، تحت الطلب ، مخزون جاهز لحالات الأنا المتباينة ، أو الحالات الشعورية المختلفة . وهذا المخزون يمكن تصنيفه على الوجه التالى :

١ ـ حالات (أنا) تشبه حالات (الأنا) عند الوالد .

٢ ـ حالات (أنا) تتوجه بطريقة موضوعية مستقلة نحو التعرف الموضوعى على الواقع والتعامل معه .

٣ ـ حالات (أنا) تمثل المخلفات القديمة المهجورة ، وإن كانت ماتزال نشطة ، والتى تنبع من التثبيت على مراحل الطفولة الأولى .

ويعرض بيرن هذه الحالات الثلاث تحت اسم حالات (الوالد) و (البالغ) و (الطفل) .

كلما دخل الشخص فى تشكيل اجتماعى ، نجده فى كل لحظة يكشف عن حالة من هذه الحالات الثلاث ، (الوالد) أو (البالغ) أو (الطفل) . ونجد أن الشخص ينتقل من حالة إلى أخرى وفق استعداده الشخصى ، والموقف الذى يدخل فيه (حالة المدير مع زملائه ، ومع الموظف الصغير ، ثم وهو يلعب فى النادى) .

إذا قلنا لشخص ما «هذا هو (الوالد) فيك» ، فهذا يعنى ،» أنت الآن

فى نفس الحالة العقلية التى اعتاد والداك أن يظهرا بها ، وأنك تستجيب بمثل استجابتهما ، وتأتى نفس حركاتهما ، وتستخدم نفس تعبيراتهما ، وتشعر نفس شعورهما .. الخ » . وبالطبع ، عندما نتكلم عن الوالدين ، فنحن نعنيهما ، أو نعنى بدائلهما فى حياة الشخص .

وإذا قلنا لشخص « هذا هو (البالغ) فيك » ، فهذا يعنى ، « أنك قد أجريت تقييمًا للموقف يتسم باستقلال الرأى والموضوعية ، وانك عالجت الموقف الذى تواجهه ، أو الفكرة التى تطرحها ، أو المشكلة التى تحلها ، بطريقة تخلو من التعصب والانحياز » .

وإذا قلت له « هذا هو (الطفل) فيك » ، فهذا يعنى » ، أن استجابتك للأقوال والأحداث شبيهة باستجابتك التى كنت تبديها وأنت طفل صغير » .

وهذا يفيد الآتى :

١ ــ كل فرد كان له والدين (أو بدائل للوالدين) ، يحمل فى داخله مجموعة من الحالات الشعورية ، التى تستمد وجودها من الحالات الشعورية لهذين الوالدين ، كما أدركها هو فى طفولته . هذه الحالات الشعورية يمكن تنشيطها فى ظل ظروف معينة .

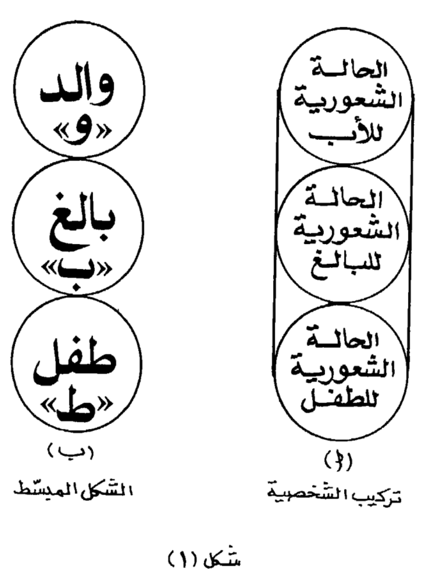
٢ ــ كل فرد ــ بما فى ذلك الأطفال والمتخلفين عقليًا المصابين بانفصام الشخصية ــ قادر على اتخاذ موقف موضوعى فى مواجهة حدث ما ، إذا ما تم استثارة الحالة الشعورية المناسبة لديه .

٣ ــ كل فرد ، كان يومًا ما أصغر مما هو الآن ، وهو يحمل داخله مخلفات ثابتة من سنواته الأولى . هذه المخلفات يمكن تنشيطها فى ظل حالات شعورية خاصة .

التحليـــل الـتركيـــبى :

من المناسب ، عند هذه النقطة ، أن نرسم شكلاً تركيبيًا ، يوضح تركيب الحالات الشعورية داخل الشخص ، أو الشخصية الكاملة لأى فرد ، شكل (١ ـ أ) . وهو يتضمن الحالات الشعورية للفرد باعتباره (والد) و (بالغ) و (طفل) . وقد تم الفصل بين هذه الحالات عمدًا ، لأنها تختلف عن بعضها اختلافًا كبيرًا ، ولأنها غالبًا ما تكون متناقضة . قد يكون التفريق بينها غير واضح للملاحظ الذى لا يتمتع بخبرة كافية ، لكنها ما تلبث أن تبدى بشكل مؤثر ومثير للاهتمام ، بالنسبة لكل من يجهد نفسه فى فهم التحليل التركيبى .

وعندما نورد فيما بعد اصطلاحات (الوالد) و (البالغ) و (الطفل) بين قوسين هكذا ، فإننا نعنى بذلك الإشارة إلى الحالات الشعورية المختلفة التى يمر بها الشخص الواحد . ويمثل شكل (١ ـ ب) تبسيطاً لشكل (١ ـ أ) ، سنلجأ إليه فى التعبير عن الشكل التركيبى لأى إنسان .


الحالة
الشعورية
للأب
الحالة
الشعورية
للبالغ
الحالة
الشعورية
للطفل
(أ)
تركيب الشخصية
والد
«و»
بالغ
«ب»
طفل
«ط»
(ب)
الشكل المبسّط

شكل (١)

معـنى الكلمـات :

وقبل أن نترك موضوع التحليل التركيبي للإنسان ، يجدر بنا أن نلقى مزيدًا من الضوء على بعض الأمور ، حسمًا لأى خلط :

١ ـ كلمة «طفولى» لا نستعملها بتاتًا فى علم تحليل التعاملات ، نظرًا لما شاع من كراهية ورفض إزاء هذا التعبير ، واعتباره من الأمور التى يجب على الإنسان أن يتجنبها . وعندما نذكر (الطفل) فى كلامنا ، فنحن نعى موقف الطفل داخل الإنسان . والواقع ، أن (الطفل) يكون فى كثير من الأحيان أثمن جوانب الشخصية . يمد حياة الشخص بنفس ما يمده الطفل الحقيقى فى حياة الأسرة .. السحر والسرور والابتكار . إذا كان (الطفل) فى شخص ما مرتبكًا ، وفى حالة غير صحية ، قاد ذلك إلى نتائج سيئة . ولابد لنا فى هذه الحالة أن نبذل جهدًا لتقويم ذلك الارتباك .

٢ ـ نفس الشيء ينسحب إلى تعبير «غير بالغ» ، أو «غير راشد» . فمن وجهة نظر أريك بيرن ، يوجد فقط أشخاص يتضخم لديهم (الطفل) بشكل غير طبيعى ويؤثر على سلوكهم ، لكن هؤلاء الأشخاص يكون لديهم (البالغ) كامل التكوين ، والذى لا يحتاج سوى إلى كشف الغطاء عنه وتنشيطه . ومن ناحية أخرى، يصبح الذين نطلق عليهم صفة «الأشخاص الناضجين» ، هم الأشخاص القادرين على الالتزام بموقف (البالغ) فى معظم تصرفاتهم . لكن (الطفل) فيهم لابد أن يشق طريقه فى لحظة ما ، وغالبًا ما يتم هذا فى ملابسات ضارة بالشخص .

٣ ـ يجب ملاحظة أن (الوالد) له مظهران ، مباشر وغير مباشر . فى المظهر الأول ، يستجيب الشخص فى موقف ما ، بنفس استجابة والده أو والدته فى الموقف الشبيه . وفى المظهر الثانى ، يستجيب الشخص

بالطريقة التى أراد له الوالدان أن يستجيب بها .

٤ ـ كذلك نلاحظ أن (الطفل) له مظهران : (الطفل) بالتبنى ، و (الطفل) الطبيعى . فى حالة (الطفل) المتبنّى ، يشكل الشخص سلوكه وفقا للتأثيرات الأبوية . فهو يتصرف كما يطلب منه الأب ، أو الأم ، أن يتصرف . أما (الطفل) الطبيعى ، فهو التعبير التلقائى .

خواص الحالات الشعورية الثلاث :

الحالات الشعورية الثلاث هى ظواهر فسيولوجية طبيعية . فالعقل البشرى هو عضو تنظيم الحياة النفسية ، ونتائج جهده يتم تنظيمها وتخزينها فى شكل حالات شعورية . وكل نمط من الحالات الشعورية له قيمته الحيوية فى الكيان الإنسانى .

ففى (الطفل) يكمن الحدس ، والخلاقية والابتكار ، والاندفاع التلقائى والاستمتاع بالحياة . وفيه التسجيل الدائم للأحداث الداخلية كاستجابة للأحداث الخارجية ، فى السنوات الخمس الأولى من الحياة . وتكون معظم الأحداث الداخلية المحتملة على شكل مشاعر . وهذه المشاعر غالبًا ما يتم اجترارها فى الحاضر عندما نوضع فى موقف شبيه لذلك الذى كان فيه الطفل الصغير ، عندما كان محاصرًا ، معتمدًا على غيره ، متهمًا بدون وجه حق ، غليظًا ، يفتقد المعرفة . واليوم عندما يواجهنا من يتهمنا متخذًا سمت الوالدين ، فقد يدفعنا ذلك إلى الوراء هناك ، حيث كنا ذات يوم .

وفى (الطفل) تكمن أيضًا الحاجات البيولوجية ، والتسجيلات الوراثية ، والكيان الجسدى للإنسان . يكمن فيه الفضول مع الحدس ، وعالم من الفرحة والحزن ، كما تكمن فى (الطفل) كل الرغبات .

و (الطفل) هو أكثر جوانب الإنسان بعثًا للسرور ، أو يمكن أن يكون

كذلك ، إذا أردنا الدقة ، وإذا ما تحررت طاقات الابتكار والابداع والعفوية فيه .

وفى نفس الوقت يمكن أن يصبح (الطفل) مصدرًا للمشاكل فى الشخصية ، إذا كان خائفًا ، أو مهددًا ، أو أنانيًا .

وعندما يبلغ الوليد عشرة أشهر من عمره ، وربما قبل ذلك ، يكون قد طور قدرات التحكم فى حركاته ، والقوة اللازمة التى تتيح له أن يبدأ فى استكشاف الأشياء ، واستكشاف نفسه . وما يلبث أن يحبو ، ويتسلق ، ويسير ، ويجرى . لقد دخل الآن العصر الذهبى للحركة الواسعة . وهو يفكر أيضًا ، مضيفًا إلى مضمون الحياة الذى تلقاه من والديه ، ومضمون الحياة الذى تبناه الطفل ، مضمونًا جديدًا للحياة من واقع خبراته الخاصة الجديدة . إنه يبدأ فى تشكيل فهمه الخاص ، ويبدأ فى الانفصال عن أمه ، ويتعلم أن يقول : لا . وعندما تنمو مفرداته اللغوية ، يبدأ فى التساؤل : لماذا ؟ . كل هذه العناصر من النشاطات الفردية ، تكون مستمرة من ذلك الكيان النامى من شخصيته والذى نطلق عليه (البالغ) .

(البالغ) يعلل ويفكر ويتوقع ، ويحدد للشخص كيف ينجز الأشياء . ومع الوقت يبدأ (البالغ) فى حساب العواقب . وبينما يتبنى (الطفل) موقف «أريد أن أفعل ..» ، يتبنى (البالغ) موقف «كيف أفعل ..» ، معتمدًا بشدة على ما تعلمه من والديه .

و (البالغ) ضرورى لمواصلة الحياة ، فهو ينظم المعلومات والمعطيات ، ويحسب الاحتمالات ، وهو أمور ضرورية للتعامل مع العالم الخارجى ، بشكل فعال . فعبور شارع مزدحم ، على سبيل المثال ، يقتضى إجراء سلسلة مركبة من حسابات السرعة ، التى تقود إلى الجانب الآخر من الشارع بأمان ، وهذه من بين وظائف (البالغ) .

ولا يجب أن نعتبر (البالغ) مجرد جانب وظيفى من الشخصية ، فهو فى نفس الوقت حالة يمكن أن يلاحظها الآخرون . فالشخص الذى فى حالة (البالغ) يبدو مفكرًا عقلانيًا ، يعيش (هنا) و (الآن) كما أن (البالغ) من واجبه تنظيم نشاطات (الطفل) و (الوالد) ، والعمل على التوفيق بينهما بشكل موضوعى .

أما (الوالد) فله وظيفتان أساسيتان . فهو الذى يتيح للفرد أن يقوم بدور الأب فى مواجهة أولاده ، بكفاءة عالية ، الأمر الذى يساعد على تواصل الأجيال . وتنعكس هذه الوظيفة على تربية الأبناء . فالآباء الذين حرموا من الوالدين منذ صغرهم ، يكون هذا الواجب قاسيًا عليهم ، حافلاً بالمصاعب والعقبات ، إذا قارنا بينهم وبين الآباء الذين تمتعوا فى طفولتهم بحياة كاملة فى أسرهم .

والوظيفة الثانية (للوالد) هى جعل ردود الفعل آلية ، مما يوفر قدرًا كبير من الوقت والجهد . فالكثير من الأمور تتم بطريقة معينة ، لأنه «هكذا يجب أن تتم» . وهذا يعنى الإنسان من التفكير فى إتخاذ قرارات خاصة بالنسبة لأمور تافهة قليلة الأهمية ، حتى يمكن أن يتفرغ لما هو أهم ، تاركًا (الوالد) يتخذ القرارات الروتينية . فى حالة (الوالد) نحن ندير تسجيلات ، ولا نفكر .

الفصل الثاني

تحليل التعاملات

تحليـــل التعـــامـلات

التعامل هو وحدة العملية الاجتماعية . إذا تقابل شخصان أو أكثر فى تشكيل اجتماعى ، فسيتكلم أحد الأشخاص ، إن آجلاً أو عاجلاً ، أو يصدر عنه ما يفيد معرفته بوجود الآخرين . هذه الحركة الأولى يطلق عليها اسم (منبه التعامل) . ولابد للشخص الآخر أن يقول أو يفعل شيئًا ، يرتبط بشكل ما بهذا المنبه ، ونطلق على هذا (استجابة التعامل) .

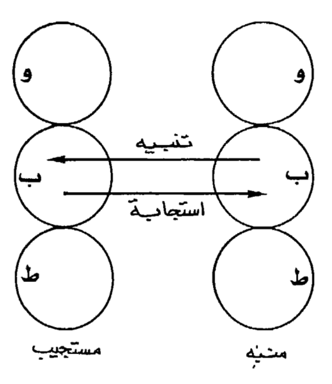
وتحليل التعاملات البسيط ، يختص بتحديد نوع الحالة الشعورية التى صدر عنها منبه التعامل وكذلك التى صدرت عنها استجابة التعامل .

وأبسط أنواع التعامل ، هو الذى يصدر فيه المنبه والاستجابة من موقف (البالغ) للأشخاص الداخلين فى هذا التعامل . فى العملية الجراحية ، يقدر الجراح (منبه التعامل) من الظروف التى أمامه ، إنه يحتاج إلى المشرط ، فيرفع كفه . المستجيب فى هذا التعامل ، يدرك مغزى هذه الحركة بشكل سليم ، ويجرى تقديرًا للجهد المطلوب ، والمسافات الداخلة فى العمل المطلوب منه ، ثم يضع مقبض المشرط ، بالضبط حيث يتوقعه الجراح .

والتعامل الأقل بساطة من السابق ، هو الذى يتم على مستوى (طفل ـ والد) . الابن المحموم يطلب كوبًا من الماء ، فتستجيب أمه العطوف ، وتحضرها له .

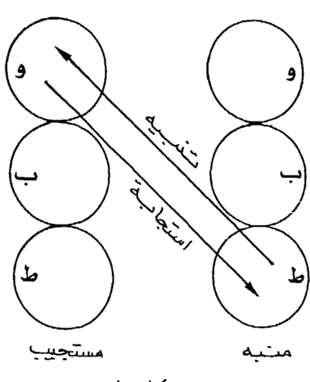
كل تعامل من التعاملين السابقين يعتبر متكاملاً ، بمعنى أن الاستجابة تكون متوقعة ومتوافقة مع النظام الطبيعى للعلاقات البشرية السليمة . والشكل (٢ـأ) يصور التعامل الأول ، وهو ما نطلق عليه «النمط الأول للتعامل المتكامل» . أما الشكل (٢ ـ ب) فنرى فيه تصويرًا للتعامل الثانى «النمط الثانى للتعامل المتكامل» .

ومن الثابت أن التعاملات تتم فى سلسلة ، بحيث تصبح كل استجابة منبهًا جديدًا . وأول قواعد الاتصال ، هى أن الاتصال يتواصل بيسر طالما أن التعاملات الداخلة فيه متكاملة . وهذه القاعدة لا تتوقف على طبيعة أو محتوى التعاملات ، وإنما على اتجاهات الأسهم الداخلة فى التعامل .



تعامل متكامل

شكل (٢ - أ)



تعامل متكامل
شكل (٢ ـ ب)

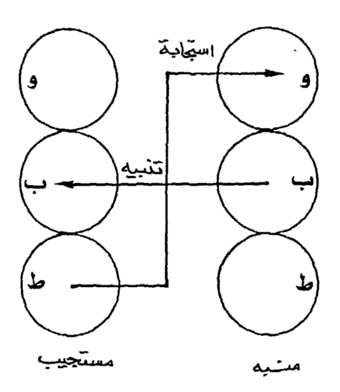
التعامل المقطوع :

مقلوب القاعدة السابقة هو أن الاتصال ينقطع عندما يظهر التعامل المقطوع .

وأكثر أشكال التعامل المقطوع شيوعًا يصوره شكل (٣ ـ أ) ، وهو مصدر معظم المشاكل الاجتماعية بين البشر فى جميع المجتمعات ، سواء فى الزواج أو الحب أو الصداقة أو العمل . وهذا النوع من التعامل المقطوع ، هو موضوع الاهتمام الأساسى للأطباء النفسيين .

الحوارات التالية ، تعطى مزيدًا من الوضوح حول التعامل المقطوع واختلافه عن التعامل المتكامل .

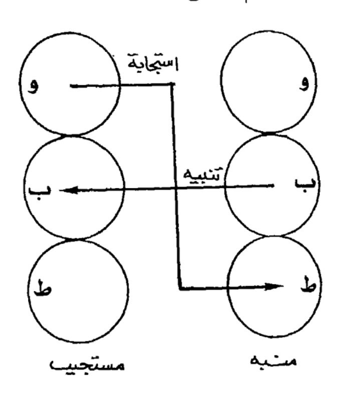
عندما يكون المنبه على مستوى (بالغ ـ بالغ) ، كأن تقول الزوجة لزوجها «علينا أن نصل إلى الأسباب التى قادت إلى احتسائك الخمر فى الأيام الأخيرة» ، يكون المفروض أن يستجيب الزوج أيضًا على مستوى (بالغ ـ بالغ) ، فيقول «فعلاً ، لابد من تحديد أساس هذه الظاهرة ، وأنا أحب أن أعرف الأسباب التى قادتنى إلى هذا ..» . وبهذا يكون التعامل متكاملاً . أما إذا كانت استجابة الزوج على مستوى (طفل ـ والد) ، فسيقول لزوجته ، بعد أن أثارت ملاحظتها غضبه» ، أنت دائمًا تنقدين تصرفاتى ، بمثل ما كان يفعل أبى !..» . لقد أصبح التعامل مقطوعًا



تعامل مقطوع
شكل (٣-أ)

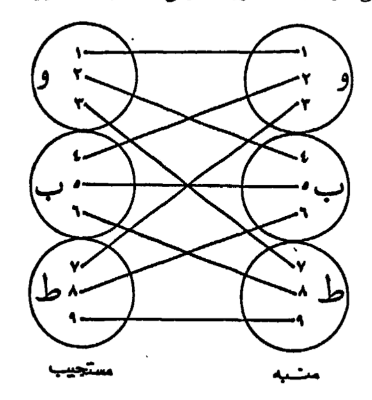
ومثال آخر يبدأ الزوج من مستوى (بالغ - بالغ) فيسأل الزوجة «أين أجد جوربي الأخضر؟» ، فإذا استجابت الزوجة على مستوى (بالغ - بالغ) أيضًا ، ستجيء اجابتها على صورة «إنه فى الدرج السفلى» . أما إذا أثار السؤال غضب الزوجة ، واستجابت على مستوى (والد - طفل) ، قاطعة التعامل ، فستقول «انت هكذا دائمًا ، كالطفل الصغير ، لا تستطيع أن تستدل على الأشياء التى تخصك» . شكل (٣ - ب) .

وكما يظهر فى الرسم ، تتقاطع اتجاهات الأسهم ، فى التعامل المقطوع . وفى هذه الحالة تظل المشكلة معلقة (سواء كانت احتساء الخمر ، أو العثور على الجورب) ، حتى يتم تصحيح مسار خطوط التعامل .



تعامل مقطوع
شكل (٣-ب)

ويوضح شكل (٤) الاحتمالات التسعة الممكنة لاتجاهات الفعل الاجتماعي ، بين منبه ومستجيب . التعاملات المتكاملة هي التي تتم بشكل متكافئ ، إذا صدر منبه التعامل من مستوى (بالغ ـ بالغ) يكون مستوى الاستجابة (بالغ ـ بالغ) ، أو إذا صدر منبه التعامل من مستوى (طفل ـ والد) ، كان مستوى الاستجابة (والد ـ طفل) . ويمثل هذا في الشكل التعاملات (١ ـ ١) ، (٥ ـ ٥) ، (٩ ـ ٩) في الاتجاهين كل مرة ، ثم (٢ ـ ٤) مع (٤ ـ ٢) ، (٣ ـ ٧) مع (٧ ـ ٣) ، (٦ ـ ٨) مع (٨ ـ ٦) . وجميع التعاملات الباقية تعتبر تعاملات مقطوعة ، وهي تكون أشبه بمن يلقي سؤالاً باللغة العربية ، فيتلقى كلامًا باللغة الصينية !.



رسم يبين العلاقات
شكل (٤)

التعـاملات الخفيـة :

التعاملات المتكاملة البسيطة تتحقق غالبًا فى الأعمال السطحية ، والعلاقات الاجتماعية ، ويكون من السهل أن يتسلل إليها الاضطراب عن طريق تعامل مقطوع بسيط . ويمكن تعريف العلاقات السطحية ، بأنها العلاقات المحصورة فى التعاملات المتكاملة . ويتحقق هذا النوع فى أنواع النشاط الاجتماعى ، وممارسة الطقوس ، والتسلية .

أما التعاملات الخفية ، فهى من الأشكال الأكثر تعقيدًا ، وتتضمن استخدام أكثر من حالتين من الحالات الشعورية ، فى نفس الوقت ، وهذا النوع هو أساس الألعاب .

يتخصص الباعة المتجولون فى التعاملات الخفية ، والتى تتضمن ثلاث من الحالات الشعورية ، وفيما يلى مثال لهذا التعامل ، يعبر أحسن تعبير عن هذه الحالة ، رغم بساطته :

البائع المتجول : هذه أفضل .. ولكن ثمنها مرتفع بالنسبة لك .

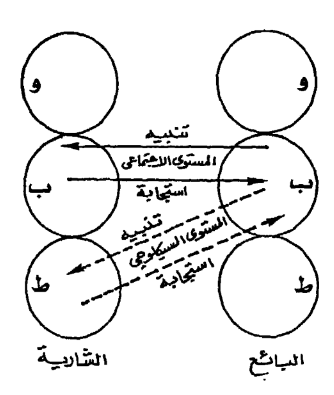
ربة البيت : وهذه بالضبط ما سأشتريه .

الرسم فى شكل (٥ـأ) فيه تحليل لهذا التعامل . البائع المتجول (بائع) يقرر حقيقتين موضوعيتين «هذه أفضل» ، ثم «ثمنها مرتفع بالنسبة لك» . على المستوى الظاهر أو الاجتماعى يبدو أن أقواله موجهة إلى (البالغ) فى ربة البيت ، والتى من المفروض أن تكون استجابة (البالغ) فيها على صورة «أنت محق فى القولين» .

لكن الاتجاه الخفى أو السيكلوجى للتعامل يتم متجهًا من (البالغ) المدرب المحنك عند البائع ، إلى (الطفل) فى ربة البيت . وسلامة تقدير البائع تؤكدها استجابة (الطفل) فى ربة البيت ، والتى تقول فى واقع الأمر «بصرف النظر عن العواقب المالية ، سأشتريها ، لأثبت لهذا البائع أننى

لا أقل عن أى من زبائنه !. » .

فى هذه الحالة ، يكون التعامل متكاملاً على المستويين . (بالغ ـ بالغ) على المستوى الاجتماعى الظاهر ، و (بالغ ـ طفل) على المستوى السيكلوجى السرى .



تعامل زاوى مزدوج
شكل (٥ ـ ﻟ)

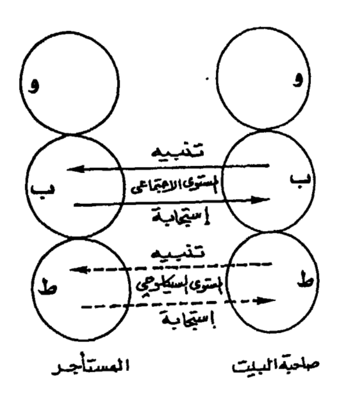
التعامل الخفى المزدوج :

والتعامل الخفى المزدوج ، يتضمن أربع حالات شعورية ، وليس ثلاثا . ويظهر غالبًا فى ألعاب الغزل .

صاحبة البيت : بعد أن استعرضنا الشقة ، يمكن أن نصعد لترى الغرفة التابعة لها على سطح المنزل .

المستأجر اللعوب : أعشق الغرف التى على السطح ، منذ صغرى .

وكما هو واضح فى شكل (٥ ـ ب) ، يكون هذا الحوار ، على المستوى الاجتماعى ، بين (بالغين) ، ويدور حول الغرف التى على أسطح المنازل. لكنه يكون فى حقيقته على المستوى السيكلوجى الخفى ، حوارًا بين (طفلين) عن الجنس ، حيث ترتبط غرف الأسطح بالمغامرات العاطفية الصبيانية . وفى كثير من الأحيان ينتبه المشاركين فى مثل هذا التعامل إلى حقيقة منطلقها ، بشكل مفاجئ.



تعامل مركب
شكل (٥-ب)

الإجـــراءات والطقـــوس

عادة ما تتتابع التعاملات فى سلاسل. ولا تكون هذه السلاسل عشوائية ، بل تخضع لبرامج سابق تحديدها . ومصادر هذه البرمجة أحد ثلاثة : إما (الوالد) ، أو (البالغ) ، أو (الطفل). وبشكل أعم ، تكون : إما المجتمع ، أو الواقع المادى ، أو الغريزة .

وحيث أن الحاجة إلى التكيف ، تقتضى أن تتوفر حماية (الطفل) بواسطة (الوالد) أو (البالغ) ، إلى حين اختبار كل موقف من المواقف الاجتماعية ، فإن برمجة (الطفل) تجد مرتعًا خصبًا فى المواقف التى تتوفر فيها الخصوصية والألفة ، ولأن مثل هذه المواقف تتحقق بعد أن تنتهى الاختبارات الأولية .

وأبسط أشكال النشاط الاجتماعى هى : الاجراءات والطقوس. ورغم أن هناك جانبا محليا فى الاجراءات والطقوس ، وجانبا عالميا عاما ، إلا أنها تدخل جميعاً فى خبرة الفرد بالتعلم .

الاجـــراءات :

الاجراءات هى سلسلة من التعاملات المتكاملة البسيطة ، التى يقوم بها (البالغ) ، والتى تستهدف التعامل مع الواقع .

والواقع ، يكون ثابتا أو متحركا .

الواقع الثابت ، يتضمن كل الترتيبات المحتملة للمادة فى الكون . وعلم

الحساب ، على سبيل المثال ، يتكون من حقائق حول الواقع الثابت .

أما الواقع المتحرك ، فيمكن تعريفه على أنه احتمالات التأثير المتبادل لكل أشكال وأنظمة الطاقة فى الكون . وعلم الكيمياء ، مثلاً ، يتضمن حقائق عن الواقع المتحرك .

والاجراءات ، تقوم على التعامل مع المعطيات ، وتقدير الاحتمالات التى تتصل بمادة الواقع ، وتصل إلى قمتها فى التكنيك الحرفى . فقيادة طائرة ، أو إجراء عملية جراحية لاستئصال الأعور ، تعتبر من الاجراءات . وكذلك يعتبر العلاج النفسى من الاجراءات ، طالما أنه يتم تحت سيطرة (البالغ) فى المعالج النفسى ، ولا يصبح من الاجراءات عندما تكون الغلبة فيه من نصيب (الوالد) أو (الطفل) فى الطبيب المعالج . وبرمجة اجراء من الاجراءات يحدده الواقع المادى ، على أساس التقديرات التى يقوم بها (البالغ) فى الشخص المتصدى لها .

وهناك عنصران متغيران يستخدمان فى تقييم الاجراءات . فيوصف الاجراء بأنه «كفء» عندما يقوم الشخص بأفضل استخدام للمعلومات والخبرات المتاحة له ، بصرف النظر عن أى قصور فى هذه المعلومات أو الخبرات . فإذا تدخل (الوالد) أو (الطفل) فسد التصرف ، وتنتفى عنه صفة «الكفاءة» الكاملة . أما «فعالية» الإجراء ، فتقاس بنتائجه الفعلية . ومن هنا ، يمكن اعتبار الكفاءة معيارًا سيكلوجيًا ، والفعالية معيارًا ماديًا .

الطقـــوس :

والطقوس ، من وجهة النظر الحديثة ، هى سلسلة من التعاملات المتكاملة البسيطة ، ذات النمط الثابت ، تقوم القوى الاجتماعية الخارجية ببرمجتها .

الطقس غير الرسمى ، لعملية توديع المسافر ، قد تكون له تنويعات محلية

ملحوظة من حيث التفاصيل ، وإن بقى الشكل الأساسى له واحدًا .

أما الطقس الرسمى ، مثل إقامة قداس بين طائفة الروم الكاثوليك ، فيترك مجالاً أقل للاختيار .

وشكل أى طقس من الطقوس يتم تحديده اعتمادًا على التقاليد ، من موقف (الوالد) . وهناك بعض التأثيرات الحديثة من موقف (الوالد) ، والتى تشبه الطقوس ، وإن كان أثرها أقل أهمية .

وبعض الطقوس الرسمية ذات القيمة التاريخية ، أو ذات الأهمية من وجهة نظر علم الأجناس البشرية ، يكون لها شكلان : (١) شكل تسير فيه التعاملات تحت المحاظير الجامدة التى تصدر من موقف (الوالد) ، (٢) وشكل تنطلق فيه التعاملات من اباحة أو رخصة يعطيها (الوالد) ، وفيها ينطلق (الطفل) معربدًا ، وقد حظى بحرية مطلقة فى تعاملاته .

إحصاء الربتات :

يقول أريك بيرن إن الطقوس غير الرسمية تكون لها دلالتها كمقدمة لتحليل الألعاب . ويقول إن أكثرها دلالة ، تلك الطقوس التى تتضمن التحية عند الأمريكيين .

الأول (١) : «هاى» (بمعنى أهلاً ، صباح الخير) .

الثانى (١) : «هاى» (بمعنى أهلاً ، صباح النور) .

الأول (٢) : «أرجو أن يكون الطقس مرضيًا لك من حيث دفئه» (بمعنى كيف حالك ؟) .

الثانى (٢) «طبعًا ، وإن كان يبدو انها ستمطر» (بمعنى ، شكرًا ، وكيف حالك أنت ؟) .

الأول (٣) : «اهتم برعاية نفسك جيدًا» (بمعنى : وهو كذلك) .

الثانى (٣) : «نراك قريبًا» .

الأول (٤) : «هاى» .

الثانى (٤) : «هاى» .

من الواضح أن تبادل الحوار هنا لا يستهدف نقل المعلومات . وفى حقيقة الأمر - إذا ما كانت هناك معلومات ما ، فقد جرى سترها وحجبها بحكمة . فالأول يحتاج إلى ١٥ دقيقة على الأقل ، ليشرح «كيف حاله» . والثانى ، الذى تعتبر معرفته بالأول سطحية ، غير مستعد أن ينفق مثل هذا الوقت فى معرفة أحوال الأول .

يقول أريك بيرن : إن هذه السلسلة من التعاملات ، تعتبر نموذجًا دقيقاً لما يمكن أن نطلق عليه (طقس الربتات الثمانية) .

إذا كان الأول والثانى فى عجلة من أمرهما ، اكتفيا بتبادل (ربتتان) فقط ، على شكل تحية سريعة «أهلاً - أهلاً» . وإذا كانا من أبناء المجتمعات الشرقية ، فقد تحتاج التحية . بينهما إلى ما يزيد عن مائتى ربتة .

الأول والثانى بتبادلها هذه الربتات ، قد تبادلا تحسنًا طفيفًا فى حالتها النفسية ، فلذا يكون كل منهما ممتن للآخر .

وهذا الطقس ، قد قام على تقدير حدسى أو تخمينى للاحتمالات ، اجراه طرفا التعامل بعناية وحرص . لقد قدرا أنه فى هذه المرحلة من تعارفهما ، يدين كل منهما للآخر بأربعة ربتات عند كل لقاء ، وليس أكثر من مرة واحدة فى اليوم الواحد . فإذا ما حدث بينهما لقاء آخر فى نفس اليوم ، ولنقل بعد نصف ساعة ، ولم يكن لديهما ما يتبادلاه بخصوص العمل ، فمن الممكن أن يمضيا كل فى طريقه بلا أى اشارة ، أو بمجرد هزة رأس ، أو على الأقصى بتحية (أهلاً - أهلاً) الشكلية جدًا . هذا الحساب للربتات لا ينسحب فقط على اللقاءات المتقاربة ، بل يظل كما هو حتى لو تباعدت اللقاءات لعدة شهور .

وحـــدات الاهتمـــام :

والآن دعنا نلقى نظرة على حالة رجلين يتقابلان مرة فى اليوم على الأقل ، فيتبادلان (أهلاً - أهلاً) التقليدية ويمضى كل منهما إلى سبيله . نتصور أن الأول قد قام بأجازة لمدة شهر. فى اليوم الأول لعودته ، يلتقى بالثانى كعادته . إذا اكتفى الثانى فى هذه المناسبة بقوله (أهلاً) فقط ، تكدر الأول . فحساباته تقول إنه يستحق ٣٠ ربتة على الأقل يتبادلها مع الثانى فى هذه المناسبة . وقد يقبل الأول تخفيضًا فى عدد الربتات ، لوكانت من النوع الثقيل ، الذى ترتفع فيه قيمة الربتة عن وحدة (اهتمام) واحدة .

والمثل التالى لمبادرات الثانى ، تعطى فكرة عن مسألة وحدات (الاهتمام) هذه :

١ - الثانى : «أهلا ..» ، (وحدة اهتمام واحدة) .
٢ - الثانى : «لم نرك منذ زمن طويل» ، (وحدتان) .
٣ - الثانى : «آه .. حقًا .. وإلى أين سافرت ؟» ، (٥ وحدات) .
٤ - الثانى : «غير معقول .. هذا شىء مثير .. وماذا كان السبب فى ذلك ؟ » ، (٧ وحدات) .
٥ - الثانى : « على كل حال ، أنت تبدو فى خير صحة » ، (٤ وحدات) ، أو « هل كانت العائلة معك فى هذه الرحلة ؟ » ، (٤ وحدات) .
٦ - الثانى : «عمومًا .. أنا سعيد بأن أراك ثانية» (٤ وحدات) .
٧ - الثانى : «إلى اللقاء ..» (وحدة واحدة) .

وهذا يعطى الأول ما مجموعه ٢٨ وحدة اهتمام . ويدرك الأول والثانى ، بشكل ضمنى ، أن بإمكانهما أن يستكملا الوحدات الناقصة فى اللقاء التالى .. وبهذا يصبح اللقاء عادلاً . ثم بعد يومين ، يعودان إلى تحيتهما ذات الربتتين (أهلاً - أهلاً) .. ولكنهما الآن ، «يعرفان بعضهما بشكل

أفضل» ، يعرف كل منهما مثلاً أن الآخر يمكن الاعتماد عليه ، إذا ما اضطرا إلى الالتقاء (اجتماعيًا) .

الربتات الناقصة والزائدة :

ولننظر الآن فى الحالة العكسية . عندما يعتاد شخصان على تبادل التحية ذات الربتين (أهلاً ـ أهلاً) . وفى أحد الأيام ، يتوقف الأول ويسأل الثانى «كيف حالك ؟» .

ويتتابع الحوار كما يلى :

الأول (١) : أهلاً ..

الثانى (١) : أهلاً ..

الأول (٢) : «كيف حالك ؟» .

الثانى (٢) (حائرًا) : «لا بأس .. وأنت ؟» .

الأول (٣) : «كل شىء طيب .. الجو عظيم اليوم ، أليس كذلك ؟» .

الثانى (٣) : «نعم» ، (بحرص) ، «بالرغم من احتمال الأمطار» .

الأول (٤) : «أنا سعيد بلقائك» .

الثانى (٤) : «وأنا كذلك .. آسف ، أنا مضطر إلى الانصراف حالاً ، لأن المكتبة ستغلق أبوابها بعد قليل .. إلى اللقاء» .

الأول (٥) : «إلى اللقاء .. » .

أثناء انطلاق الثانى مبتعدًا ، نراه يفكر «ما الذى جرى له فجأة هكذا ، أيكون راغبًا فى أن يقترض منى نقودًا ؟» . وباصطلاحات التعامل يمكن أن نترجم عبارته هذه إلى «كل ما يخصنى منه ربتة واحدة ، لماذا يقدم إلىّ خمس ربتات ؟» .

أو قد يقول الأول «أهلاً ..» ، لكن الثانى يمضى دون أن يقول شيئًا ، فيفكر الأول «ماذا حدث له ؟» وهو يعنى بذلك فى لغة التعامل «لقد قدمت

إليه ربتة ، ولكنه لم يقدم لى ربتة فى مقابلها » .

ورغم صعوبة التفريق بين الاجراءات والطقوس ، إلا أن الفرق الأساسى بينهما أن الأولى تنبع من موقف (البالغ) ، بينما تصدر الثانية من موقف (الوالد) .

والسمة العامة للاجراءات والطقوس ، أنها جميعًا ذات أنماط تقليدية ثابتة ، بمجرد أن تبدأ الحركة الأولى فيها ، تتداعى باقى السلسلة من الحركات ، إلا إذا نشأ ما يوقف هذا التسلسل .

التسليـــة

تتحقق التسلية (أو تمضيته الوقت) من خلال قوالب اجتماعية ومؤقتة متباينة فى درجة تركيبها ، ومن ثم تتنوع درجة تركيب التسلية بمدى تركيب هذه القوالب .

إذا اتخذنا التعامل كوحدة للعملية الاجتماعية ، يمكننا أن نقتطع من بين المواقف المناسبة ، كيانًا خاصًا نطلق عليه اسم «التسلية البسيطة» . وهى سلسلة من التعاملات شبه الطقسية ، البسيطة ، المتكاملة ، تدور حول مجال مادى ، ويكون هدفها الأساسى ، شغل فترة خالية من الوقت ، بين فترتين مشغولتين ، إما بالاجراءات أو بالطقوس . وتتم برمجة التعاملات فى فترة التسلية بحيث يحظى كل طرف داخل فيها بأقصى قدر من المكاسب أو المزايا ، خلال هذه الفترة .

الميدان الأكثر رواجًا للتسلية هو الحفلات (أو التجمعات الاجتماعية) ، وفترة الانتظار قبل بدء اجتماع رسمى عام . قد تأخذ التسلية شكل ما نسميه (الدردشة) ، أو قد تكون على درجة من الجدية ، بأن تتضمن نقاشًا حول فكرة ما .

وهناك أكثر من طريقة لتصنيف التسلية . التصنيف الظاهرى يتضمن التسلية السيكلوجية (ويدور الحديث فيها عن الجنسية أو العمر أو الحالة الزوجية ، أو الثقافة ، أو الأحوال الاقتصادية) .هناك تسلية السيارات التى

يتبادل فيها الموجودون آراءهم فى ماركات السيارة المختلفة، ومزايا كل ماركة وعيوبها ، وتسلية أخرى رياضية ، حول مواقف النوادى فى دورى كرة القدم ، ومن الذى كسب المباراة الأخيرة ، وعدد نقطه . وتسلية تجرى فى الأغلب بين النساء ، حول الجزار والبقال ، وآخر أخبار ارتفاع الأسعار ، أو نقص بعض الحاجيات . وتسليات أخرى عديدة ، تظهر فى الأحاديث القصيرة ، حول العطلات ، والسياحة ، وآخر الأخبار .

ويتم تصنيف آخر على أساس الحالات الشعورية التى تدخل فى التسلية (طفل ـ طفل) أو (بالغ ـ بالغ) أو (والد ـ والد) .

فـوائـد التسليـــة :

والتسلية بالإضافة إلى أنها تفيد فى شغل الوقت الخالى ، توفر قدرًا من الربتات المتبادلة والمقبولة بين أطرافها . وتفيد أيضًا فى عملية الانتخاب الاجتماعى ، فبينما تمضى مراحل التسلية فى مسارها ، يقوم (الطفل) فى كل طرف بمراقبة الآخرين ، لتقييم احتمالات المستقبل. وفى نهاية الحفل أو اللقاء ، يكون كل شخص قد حدد الآخرين الذين يسعده أن يمارس ألعابه معهم ، بينما يستبعد البعض الآخر . وترشيحه للآخرين لا يكون على أساس مهارتهم أو خفة ظلهم أو معلوماتهم ومعارفهم التى ظهرت أثناء التسلية . إنه يختار الأقدر والأصلح للمشاركة فى علاقات أكثر تركيبًا ، نعنى بذلك قدرتهم على المساهمة فى الألعاب الخفية التى يمارسها .. والشطر الأكبر من عملية الانتخاب هذه يتم بالحدس ، وبطريقة لا شعورية .

وفى بعض أنماط التسلية يقوم (البالغ) بالسيطرة منحيا (الطفل) جانبًا . ويصبح انتخاب الأطراف الأخرى من وظيفة (البالغ) يحدث هذا ، على سبيل المثال ، بين مندوبى شركات التأمين على الحياة . فهم يتعلمون بمهارة كيفية القيام بالتسلية الاجتماعية ، وأثناء انهماك المندوب فى التسلية ، ينصت

(البالغ) فيه ، باحثًا بين المشاركين عمن يمكن ترشيحه لمزيد من التعامل ، على أمل اقناعه بشراء بوليصة تأمين . وهنا ، لا تدخل المهارة أو الطرافة أو المعرفة فى الانتخاب ، بل يكون التفضيل على أساس الاستعداد المادى .

خصوصية التسلية :

تتميز التسلية بسمة محددة هى الخصوصية . فالذين يتبادلون الحديث فى شكل معين من أشكال التسلية ، لا يقبلون الشخص الذى يقتحم عليهم تسليتهم ، ليفرض شكلاً آخرًا من التسلية .. إذا كان الرجال يتحدثون عن متاعب المواصلات ، يرفضون الذى يريد أن يتحدث عن غلاء الأسعار والنساء اللاتى يتحدثن عن ظلم الرجال ، لا تعجبهن التى تريد أن تتحدث عن الأزياء .

ومن منطلق الخصوصية ، تساعد التسلية كأساس لاختيار المعارف ، والوصول بالمعرفة إلى مستوى الصداقة . فالنساء اللاتى يجتمعن صباح كل يوم ، حول فنجال القهوة ، ليتبادلن الحديث عن متاعب الحياة الزوجية ، يقابلن ببرود المرأة المستجدة التى تريد أن تبدى حبها لزوجها وسعادتها بأبنائها ، وغالبًا ما يسعين للتخلص منها .

لذا ، يصبح من أصول المساهمة فى التسلية ، أنه إذا انتقل شخص ـ خلال الحفلة ـ من جماعة إلى جماعة ، فعليه أن يلتزم بنفس التسلية التى تمارسها الجماعة الجديدة ، أو أن يبذل جهدًا لتغيير المسار الأساسى لحديثهم بشكل تدريجى .

الدور والموقف :

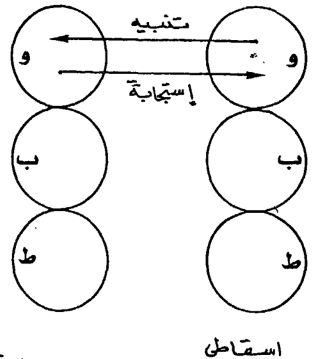
عندما تدخل مجموعة فى تسلية ما ، ينطلق الجميع من حالة شعورية واحدة ، كأن تكون (الوالد) . إلا أن الداخلين فى هذه التسلية ، تختلف

أدوارهم . ففى الوقت الذى يمارس بعضهم دور (الوالد) العنيف يمارس الآخرون دور (الوالد) العطوف ، أو المتساهل ، أو المنقذ . ممارسة هذا الدور ، يمكن إذا ما استمرت ، أن يسود هذا الدور فى تعاملات الشخص .

وتحديد الدور يجعل موقف الشخص مستقرًا ، وهذه ميزة من ميزات ممارسة التسلية . فموقف الشخص يوجه ويقوّم كل تعاملاته ، ويرسم مصيره على المدى البعيد ، بل ربما يرسم مصير سلالته .

ومن المواقف النمطية التى تقوم عليها بعض دروب التسلية :

- كل الأبناء أشرار .
- كل أبناء الآخرين أشرار .
- كل الأبناء يعانون من حزان دائم .



شكل (٦ - م)

ـ كل الأبناء يعانون من الاضطهاد .

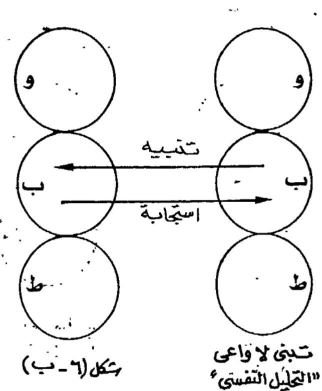
وكل موقف من هذه المواقف ، يكشف عن دور (الوالد) فى كل حالة ، عنيفًا أم بارًا أم متساهلاً أم منقذًا . ولاشك أن موقف الشخص يكشف عن تكوينه العقلى ، وهذا التكوين العقلى هو مصدر تعاملات الشخص التى تحدد دوره .

والتسلية لا يسهل تمييزها عن النشاط العملى ، فغالبًا ما يتداخلان . ففى تسلية أنواع السيارات ، على سبيل المثال يدور الحوار كالتالى :

الأول : أنا أفضل سيارة (كذا) لأن محركها ...

الثانى : ولكن لا تنسى أن جسم سيارة (كذا) أكثر تحملاً للصدمات ، ولذا فإن ..

من الواضح أن الطرفين يمكن أن يصلا إلى معلومات مفيدة عمليًا من خلال هذه التسلية .



شكل (٦ ـ ب)

الفصل الثالث

الألعاب الخفيَّة

الألعاب

نصل أخيرًا إلى الألعاب ، موضوع هذا الكتاب .

والألعاب ، هى سلسلة من التعاملات المتكاملة الخفية ، التى لا تستهدف النفع المادى ، ولكنها تستهدف عائدًا أو مكسبًا سبق التنبؤ به ، وتحديده تحديدًا قاطعًا . وهى مجموعة متواترة من التعاملات ، غالبًا ما تكون متكررة ، مقبولة سطحيًا ، لها هدفها المحدد . باختصار شديد ، هى سلسلة من الحركات تتضمن فخًا أو مكيدة .

ويمكن تمييز الألعاب بوضوح عن الاجراءات والطقوس والتسلية ، نتيجة لخاصتين أساسيتين تتمتع بهما :

(١) طبيعتها الخفية المستورة .

(٢) عائدها أو مكسبها .

الاجراءات قد تكون ناجحة ، والطقوس قد تكون مؤثرة ، والتسلية قد تكون مفيدة ، ولكنها جميعاً رغم اختلافاتها تكون صادقة وصريحة ، قد تثير بعض المنافسة ولكنها لا تثير صراعًا . ونتائجها قد تكون مثيرة ولكنها لا تكون مأساوية .

أما الألعاب ، فتكون أساسًا غير أمينة أو صريحة ، وعائدها أو مكسبها يكون مأساويًا ، ولا يكون مجرد الإثارة .

اللعبـــة والعمليـــة :

يبقى بعد ذلك أن نميز الألعاب عن النمط الوحيد الباقى من أنماط الفعل الاجتماعى ، والذى لم نناقشه بعد ، نعنى بذلك (العملية) :

العملية ، هى تعامل بسيط ، أو سلسلة من التعاملات البسيطة ، تتم من أجل غرض محدد معلن .

إذا سعى شخص إلى أن يحقق لنفسه الطمأنينة ، بشكل صريح ، ثم حصل عليها ، فهذه (عملية) . أما إذا حصل عليها ، ثم انقلب على الشخص الذى ساعده فى تحقيقها ، واتهمه بارتكاب رذيلة أو ظلم فى حقه ، فهذه (لعبة) .

لهذا ، تبدو الألعاب ، عند النظرة السطحية ، وكأنها عمليات . ويظهر الفرق بعد أن يتحقق العائد ، وتكتشف أنها فى حقيقتها مناورات ، وأنها لم تكن مطالب أمينة ، ولكنها كانت حركات فى لعبة .

النتـــائج الوخيمـــة :

ما نهتم به فى هذا الكتاب ، هو الألعاب اللاشعورية ، التى يمارسها أناس أبرياء ، يدخلون فى تعاملات مزدوجة ، دون أن يدركوا ذلك . وهذه الألعاب تشكل الجانب الأكبر أهمية ، من الحياة الاجتماعية ، فى جميع أنحاء العالم .

واستخدام كلمة (لعبة) لا يجب أن يكون مصدر سوء فهم لطبيعتها ، فكما أوضحنا من قبل ، لا تكون هذه الألعاب ـ فى أغلب الأحيان ـ مصدر بهجة ومتعة . كما أن التسمية لا تعنى أنها تكون سارة ، بل تحتمل الوصول بمن يمارسها إلى نتائج وخيمة ، وعواقب مأساوية .

وهذه الحقيقة تنسحب أحياناً على اللعب فى حياتنا ، ويدرك هذا كل من يدخل فى (لعب) البوكر بشكل جاد، أو من (يلعب) فى البورصة لفترات طويلة.

لعبة نموذجية

أكثر الألعاب شيوعًا بين الأزواج ، لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» ، وهى من أوائل الألعاب التى تم اكتشافها . وسنعتمد عليها فى تصوير خصائص الألعاب بشكل عام ..

تشكو الزوجة من أن الزوج يحرم عليها ممارسة أى نشاط اجتماعى ، تحريمًا كاملاً .. ويرفض أن تذهب مع جارتها إلى مدرسة التفصيل ، ولهذا لم تتعلم تفصيل الملابس حتى الآن .

عندما ينجح الطبيب النفسى ، أو أصدقاء الأسرة ، فى التأثير على الزوج بحيث يصبح أقل سيطرة ، وأكثر تسامحًا ، ويسمح للزوجة أن تصاحب جارتها فى الذهاب إلى مدرسة التفصيل . عندما يتم هذا ، وتنضم لفصل تعلم التفصيل فى أول درس ، تصاب بدوار ، وتشكو من ازدحام المكان ، وتتوقف ــ من تلقاء نفسها ــ عن الذهاب إلى دروس التفصيل .

هذه المغامرة الفاشلة ، مع غيرها من المغامرات الشبيهة ، كشفت عن مظهر هام من مظاهر تركيب حياتها الزوجية . فمن بين الكثيرين الذين تقدموا لخطبتها ، اختارت رجلاً مسيطرًا ليكون زوجًا لها ، حتى يكون بإمكانها أن تشكو فى المستقبل ، قائلة إنها قادرة على كل شىء ، «لو لم يكن من أجل خاطر الزوج» .

مثل هذه الزوجة ، تكون حريصة على أن تختار لصداقتها ، الزوجات اللاتى لهن نفس ظروفها ، واللاتى اخترن أزواجًا مسيطرين ، حتى تلتقى بهن كل صباح ، لتناول القهوة ، بعد انصراف الأزواج إلى أعمالهم ، ويتسلين بتبادل «لو لم يكن من أجل خاطره» .

بالرغم من شكواها ، فقد تبين بالدراسة ، أن الزوج يؤدى لها خدمة حقيقية ، فهو يمنعها من القيام بأشياء تخشاها فى أعماقها ، كما يمنعها - فى واقع الأمر - من مجرد اكتشاف هذه المخاوف شعوريًا ، وأن هذا هو السبب الذى من أجله اختار (الطفل) فيها هذا الزوج بالذات .

تعريفات ضرورية :

بعد الزواج ، أصبح بإمكان الزوج والزوجة أن يجريا اتصالاً دائمًا ببعضهما ، وهذا هو ما يسميه أريك بيرن «الاتصال الاجتماعى» . وبمجرد استثمارهما لهذه الفرصة المتاحة فإن إدارتهما لبيتهما تسمى «تشكيلاً اجتماعيًا» .

والتشكيل الاجتماعى لا يتحقق كلما اجتمع مجموعة من الناس . فالجمهور المحتشد فى القطار ، يتوفر فيه الاتصال المكانى ، ولكنه نادرًا ما يتاح له استثمار الفرصة ، ليتحول هذا الاتصال إلى تشكيل اجتماعى .

التأثير الذى يبذله كل من الزوجين على سلوك الآخر ، واستجابة الطرف الثانى لهذا التأثير ، يطلق عليه «فعل اجتماعى» . وتتباين نظم الدراسة والبحث فى الفعل الاجتماعى ، ويكون لكل نظام منها وجهة النظر الخاصة . وحيث أننا هنا ، نختص بالتاريخ الشخصى والديناميات النفسية للأفراد الداخلين فى هذا الفعل ، فإن تناولنا هذا يعتبر مظهرًا من مظاهر «العلاج النفسى الاجتماعى» .

«وتحليل التعامل» هو فرع من فروع طب النفس الاجتماعى .

أما «تحليل الألعاب» فهو أحد جوانب تحليل التعامل .

«تحليل الألعاب العملى» يختص بالحالات الخاصة ، التى تظهر فى مواقف معينة . أما «تحليل الألعاب النظرى» فيميل إلى تجريد وتعميم خصائص الألعاب المختلفة ، بحيث يمكن التعرف عليها ، دون النظر إلى مضمونها الحرفى والوقتى ، أو إطارها الحضارى الخارجى .

عمومية اللعبة :

التحليل النظرى للعبة مثل لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» ، والتى تعتبر من ألعاب الحياة الزوجية ، يحدد خصائص هذا النمط من الألعاب ، بحيث يمكن التعرف على اللعبة ، سواء جرت فى أدغال وسط أفريقيا ، أم فى أكثر الأوساط الأوروبية تحضرًا . وسواء كانت تتصل بالأزواج والزوجات وبمجتمعهم ، أو بالمشكلة المالية التى تنشأ عند شراء سيارة للحفيد . وبصرف النظر عن درجة تخفى أو وضوح حركات اللعبة ، وفقًا لمدى المصارحة بين الزوجين .

ودرجة شيوع اللعبة ، وتفشيها فى مجتمع ما ، يعتبر من الأمور التى تخص علم الاجتماع ، وعلم الأجناس البشرية ، وذلك لأن تحليل الألعاب ، الذى يعتبر فرعًا من فروع طب النفس الاجتماعى ، يختص فقط بوصف اللعبة عندما تحدث ، بصرف النظر عن مدى شيوعها فى المجتمع .

خطة البحث :

خطة البحث التى نفصلها فيما يلى ، وجد أنها ـ حتى الآن ـ أكثر الخطط فعالية فى تحليل الألعاب نظريًا . ولاشك أن تراكم المعلومات والمعارف حول هذا الموضوع ، يمكن أن يساعد فى تطويرها .

الركيزة الأولى فى البحث ، هى اكتشاف أن مجموعة خاصة من

المناورات تحقق شروط لعبة ما . بعد ذلك يجرى جمع أكبر عدد من نماذج هذه اللعبة ، من واقع دراسة الحالات المختلفة . ويأتى بعد ذلك دور عزل الخصائص المميزة لهذه المجموعة من الألعاب . فى هذه العملية تتضح المظاهر الأساسية للعبة .

بعد ذلك يتم اختيار اسم للعبة ، يكون ـ بقدر الإمكان ـ موحيًا بطبيعتها . والتحليل يسير عادة من وجهة نظر محرك اللعبة ، أو لاعبها الأساسى .

وفيما يلى تحليل نموذجى للعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» :

(١) الفــرض :

تحت هذا العنوان يوضع الوصف العام للعبة ، متضمنًا تتابع أحداثها الظاهرة (على المستوى الاجتماعى) ، ومعلومات عن خلفيتها النفسية ، وتطورها ، ودلالاتها المستورة (على المستوى السيكلوجى) .

فى لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» تفيد التفاصيل التى ذكرناها عنها ، فى تحديد معالمها .

(٢) الفــرض المضــاد :

افتراض أن تتابعًا معينًا يصنع لعبة ، يظل أمرًا تجريبيًا ، حتى يتم إثبات وجودها .

هذا الاثبات يتوفر عندما نقوم بإيقاف اللعبة ، أو حرمان اللاعب من عائدها (العملية المضادة للسير الطبيعى للعبة) .

عندما يحدث هذا ، يحاول اللاعب أن يبذل جهدًا مضاعفًا من أجل مواصلة اللعبة . ونتيجة الإصرار على إيقاف اللعبة ، وحرمان اللاعب من عائدها ، ينتقل اللاعب إلى حالة «اليأس» ، والتى تشبه فى بعض مظاهرها

حالة الاكتئاب النفسى ، وإن كانت تختلف عنها جذريًا .

حالة «اليأس» أكثر حدة ، وتدخل فيها عناصر الحيرة والاحباط . قد تظهر على ممارس اللعبة فى شكل نوبة من البكاء العنيف . وفى الحالات العلاجية الناجحة ، يحل محل نوبة البكاء هذه ، حالة من الضحك الفكاهى ، تتضمن إدراك (البالغ) فى ممارس اللعبة للموقف . أى أن حالة «اليأس» يتحكم فيها (البالغ) ، بينما يتحكم (الطفل) فى حالة الاكتئاب . «الاكتئاب» عكسه الأمل والحماس واهتمام الشخص بمحيطه ، أما عكس «اليأس» فهو الضحك .

يكون الغرض المضاد ، أو إيقاف اللعبة ، فى حالة «لو لم يكن من أجل خاطرك» بأن يبيح الطرف المسيطر لممارس اللعبة أن يفعل ما كان يسعى إليه . فاللعبة تستمر طالما كان الزوج مصرًا على حرمان الزوجة من دروس الحياكة(أو بمعنى أوسع الاختلاط الاجتماعى) . فإذا قال لها «هيا .. افعلى ما تريدين» ، ستنكشف المخاوف الخبيثة ، ويصبح من الصعب على الزوجة أن تلوم زوجها .

(٣) الهـــدف :

تتحدد هنا الأغراض العامة للعبة ، وبدائل هذه الأغراض فى بعض الأحيان .

فى لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» يكون الهدف ، إما الرغبة فى الشعور بالأمان (ليس الأمر أننى خائفة من الاختلاط ، لكنه فى منعى من الاختلاط) ، أو الرغبة فى التبرير (ليس الأمر أننى لا أحاول ، ولكن فى أنه يمنعنى) . فى المثال الذى أعطيناه لهذه اللعبة يكون الهدف الأقرب هو الرغبة فى الشعور بالأمان ، وتتفق مع احتياجات هذه الزوجة .

(٤) الأدوار :

الحالات الشعورية للشخص ، مثل (الوالد) و (البالغ) و (الطفل) لا يمكن أن نعتبرها أدواراً ، فهى ظواهر. وعند التشخيص ، يجب أن نميز بين حالات الشعور والأدوار.

والألعاب توصف بأنها ثنائية أو ثلاثية أو جماعية ، وفقًا لعدد الأدوار الداخلة فيها والحالة الشعورية للإنسان الذى يمارس اللعبة ، تقود أحيانًا إلى تحديد دوره فى اللعبة ، وفى حالات أخرى لا يجرى الأمر على هذا المنوال.

ولعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» هى لعبة ثنائية ، تتضمن فى حالتنا هذه زوجة مقيدة وزوج مسيطر. بإمكان الزوجة أن تلعب دورها من موقف (البالغ) الحكيم ، فتقول «من الأفضل أن أطيع كلامه» ، أو من موقف (الطفل) المشاكس. والزوج المسيطر قد يتخذ موقف (البالغ) ، فيقول «أفضل حل هو أن تتصرف وفق ما طرحته» ، أو ينزلق إلى دور (الوالد) ، حيث يقول «الأفضل لك أن تنفذى كلامى».

(٥) الآليـات (الديناميات) :

هناك عدة بدائل فى تحديد القوى النفسية المحركة للعبة فى كل حالة من الحالات. ومن الممكن عادة التقاط شكل خاص لهذه القوى ، نستطيع عن طريقه أن نلخص الحالة بشكل مفيد ، له معناه.

وفى وصف آليات لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» ، أنها تنبع من مصادر الخوف المرضى.

(٦) الأمثلـة :

لما كانت أنماط الطفولة لأى لعبة تفيد كثيرًا فى دراستها ، فمن المهم البحث عن سلالات الألعاب التى ندرسها. ولعبة «لو لم يكن من أجل

خاطرك» يندر أن يجرى لعبها بين الأطفال ، إذا قيست بدرجة انتشارها بين الكبار. والصورة الطفولية للعبة هى نفس صورتها عند الكبار ، مع قيام الأب الحقيقى بدور الزوج المسيطر.

(٧) مستويات التعامل :

يجرى تحليل التعامل ، بالنسبة لحالة نمطية من حالات اللعبة ، بحيث يظهر المستوى الاجتماعى ، والمستوى السيكلوجى للعبة ، وبحيث تظهر التعاملات الخفية فيها. ولعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» ، فى أكثر أشكالها إثارة وحيوية ، تكون فى مستواها الاجتماعى ، من موقف (والد ـ طفل).

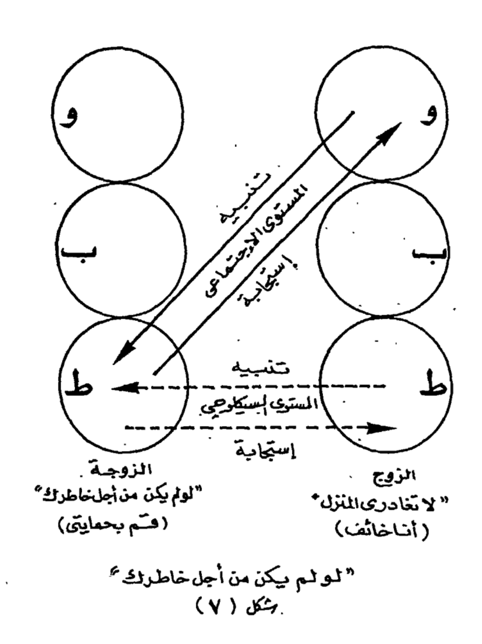
الزوج (والد) : «لابد أن تظلّى فى البيت ، لرعاية شئون المنزل».

الزوجة (طفل) : لو لم يكن من أجل خاطرك ، لكنت الآن فى الخارج مع صديقاتى ، أستمتع بوقتى.

وعلى المستوى السيكلوجى الخفى ، تمضى اللعبة بشكل مختلف ، من موقف (طفل ـ طفل) :

الزوج (طفل) : «يجب أن أجدك دائمًا عندما أعود إلى البيت. فأنا أخاف الهجر..».

الزوجة (طفل) : «سأفعل ، إذا ما ساعدتنى على تجنب حالة الخوف من المجتمعات التى أعانيها..». وستجد فى شكل (٧) ، طريقة تحديد المستويين بالرسم.



"لو لم يكن من أجل خاطرك"
شكل (٧)

(٨) الحـركـات :

تشبه الحركات فى اللعبة ، بشكل عام ، الربتات فى الطقوس . وكما يحدث فى الألعاب الرياضية . يصبح اللاعب أكثر تحكمًا وتوافقا مع كثرة الممارسة والتمرين ، فيستطيع أن يستأصل الحركات الزائدة ، ويصبح غرض كل حركة أكثر تركيزاً .

وهناك بعض الحركات التى تتخلل اللعبة ، أو تضاف على سبيل الحرص أو الدقة ، مما يعطى العلاقة بين اللاعبين درجة عالية من الرشاقة . وعادة ما يدخر الجهد الذى كان يمكن إنفاقه فى المناورات الدفاعية ، لكى ينفق فى عملية تزويق اللعبة ، وتنميقها ، لصالح كل الأطراف المشتركة فيها ، وفى بعض الأحيان لحساب المتفرجين .

يتبين الدارس ، على الفور ، أن هناك حدًا أدنى من الحركات الأساسية فى برنامج كل لعبة ، وهذه الحركات الأساسية يمكن تسجيلها عند رصد كل لعبة .

إطار لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» يتم فى الحدود التالية :

١ ـ توجيه ـ اذعان («أنت تبقين فى البيت» ـ « سمعاً وطاعة ») .

٢ ـ توجيه ـ احتجاج («وتبقين أيضًا هذه المرة فى البيت» ـ «لو لم يكن من أجل خاطرك») .

(٩) المـزايا العـامة :

تستمد المزايا العامة للعبة من وظائفها المستقرة . ويمكن تنشيط الاستقرار البيولوجى عن طريق الربتات ، وتقوية التوازن السيكلوجى بتأكيد الوضع .

وكما سبق أن قلنا ، تتخذ الربتات أشكالاً مختلفة ، ولذا يجب أن يحدد الدارس «المزايا البيولوجية» للعبة بعبارات محسوسة ، تتضمن وصفا حسيًا

ـ دور الزوج فى لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» يذكرنا بدور الصفعة بظاهر الكف (على اعتبار أن الصفعة بباطن الكف تعنى الامتهان المباشر). واستجابة الزوجة تكون أشبه بلكمة مشاكسة فى الذقن. لهذا تكون المزايا البيولوجية للعبة، مستمدة من تبادل القتال والمشاكسة، وهى طريقة خطرة، رغم فعاليتها الواضحة فى تحقيق حالة صحية للأنسجة العصبية.

وتحديد موقف الزوجة ـ كل الرجال طغاة ـ هو ما يسميه أريك بيرن «المزية الوجودية». وهذا الموقف، هو رد الفعل الطبيعى، للرغبة فى الخضوع التى نلاحظها فى أشكال الخوف المرضى، والتى تكمن خلف الألعاب.

يكون النص الموسع للزوجة على صورة «إذا ما ذهبت بمفردى وسط زحام الناس، فقد تهزمنى أغراءات الخضوع، وأعود إليه خاضعة. أما فى البيت، فأنا لا أخضع بإرادتى، هو الذى يرغمنى على البقاء، مما يثبت أن الرجال كلهم طغاة ..».

لهذا تنتشر هذه اللعبة بين الذين يعانون من عدم الواقعية، وتشير إلى هذا الوضع، المصاعب التى تصادفهم لكى يحتفظوا بموقف (البالغ) فى حالة نشاط، فى مواجهة جميع الاغراءات القوية.

(١٠) المزايا السيكلوجية الداخلية :

هى تأثير اللعبة المباشر على الاقتصاديات النفسية (الشبق).

فى لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك»، يكون الرضوخ المقبول اجتماعيًا من الزوجة لسلطة الزوج، أداة فى يدها تحميها من مواجهة مخاوفها العصبية. وفى نفس الوقت، يرضى هذا الرضوخ حاجاتها الماسوشية، إن وجدت. واستخدام (الماسوشية) هنا، لا نقصد به إنكار الذات، وإنما نقصد إلى

معناها الكلاسيكى ، الذى يعنى تحقق الإثارة الجنسية نتيجة للحرمان والامتهان والألم .

وهذا يعنى أن الزوجة تثار جنسيًا ، عندما تجد من يحرمها أو يسيطر عليها

(١١) المزايا السيكلوجية الخارجية :

هى تجنب المواقف المخيفة ، عن طريق القيام باللعبة . وهذا واضح جدًا فى لعبة «لو لم يكن من أجل خاطرك» ، حيث تكون هذه الرغبة هى الدافع القوى : عندما تستجيب الزوجة لمحاظير الزوج ، فإنها تتجنب المواقف العامة التى تخشاها .

(١٢) المزايا الاجتماعية الداخلية :

هذه المزايا يمكن أن نتصورها من واقع اسم اللعبة ، بالطريقة التى تجرى بها فى دوائر اللاعبين . فرضوخ الزوجة يجعلها تكسب حق القول «لو لم يكن من أجل خاطرك» . وهذا يفيدها فى شغل الوقت الذى تمضيه مع زوجها . وفى حالة هذه الزوجة بالذات ، تكون حاجتها لوسائل شغل الوقت قوية ، نظرًا للنقص الكبير فى اهتماماتها ، وخاصة قبل أن ترزق بأولاد ، أو بعد أن يكبروا ويستقلوا بحياتهم ، وبين هذين الحدين تتم ممارسة اللعبة بشكل أقل حدة ، وأكثر تباعدًا . ذلك لأن الأولاد يؤدون دورهم فى شغل وقت الزوجين .

(١٣) المزايا الاجتماعية الخارجية :

يمكن تعريفها بالفوائد التى يجنيها اللاعب ، خلال مواقف الاتصالات الاجتماعية الخارجية فى حالة «لو لم يكن من أجل خاطرك» ، وهو التعبير الذى تنطلق منه اللعبة ، وتردده الزوجة ، يتحول هذا التعبير إلى «لو لم يكن من أجل خاطره» ، ويصبح نوعًا من أنواع التسلية عندما تلتقى بصديقاتها .

وهذا يوضح دور الألعاب فى انتخاب الرفقة الاجتماعية . فالزوجة التى قدمت حديثًا إلى العمارة أو الحى ، تقوم الزوجات الأخريات بدعوتها لتناول قهوة الصباح لتمارس معهن تسلية «لو لم يكن من أجل خاطره» ، فإذا استجابت ، رشحها هذا للانضمام إلى المجموعة.. وإذا رفضت أن تمارسها ، وأصرت على ذكر محاسن زوجها ومزاياه ، لن تجد لها مكانا وسط المجموعة .

كيف تنشأ الألعاب

أصحاب النظريات الحديثة ، يصفون تربية الأطفال ، بأنها عملية تعليمية ، يستوعب فيها الطفل أى نوع من الألعاب يختار ، وكيف يجب عليه أن يلعبها . والطفل ، يتعلم فى نفس الوقت ، الاجراءات والطقوس والتسلية ، التى تناسب موقفه من الوضع الاجتماعى المحلى ، لكن هذه المجموعة من المعارف تقل فى دلالتها عن الألعاب . الاجراءات والطقوس والتسلية ، ترسم الفرص التى ستتاح للطفل ، لكن الألعاب تحدد استخدامه لهذه الفرص .

ألعاب الطفل المفضلة ، بالإضافة إلى العناصر الأخرى ، كالإجراءات والطقوس والتسلية ، تحدد مصيره النهائى ، وحظه فى الزواج والعمل ، والظروف المحيطة به حتى وفاته .

وبينما يهتم الآباء بتربية أطفالهم ، ويبذلون اهتمامًا كبيرًا فى تعليمهم الاجراءات والطقوس والتسلية التى تناسبهم ، وتناسب وضعهم فى الحياة ، نراهم يغفلون تمامًا موضوع الألعاب التى يتعلمها الأطفال من ذويهم ، والتى يمارسونها طوال حياتهم ، مع ما فى ذلك من تبديد لطاقاتهم ، وتعريضهم لمخاطر كان من الممكن تحاشيها .

الألعاب ، هى التى ترسم البناء الأساسى للآليات العاطفية ، للأسرة بأجمعها . يتعلمها الأبناء ، منذ شهور حياتهم الأولى ، عن طريق الخبرات

ذات الدلالة فى الحياة اليومية . ومن الأسباب الرئيسية لفشل جهود الحركة العلمية فى مجال علم النفس فى الوصول إلى حلول مرضية لمشكلة العلاقات الإنسانية ، أن العلاقات فى جوهرها مواقف تعامل ، تستدعى قيام نظرية فى الآليات الاجتماعية التى لا يمكن اهمالها عند النظر فى نوازع الفرد .

وسر هذه الأزمة ، أن هناك عددا قليلا من المختصين المدربين فى مجال علم النفس والطب النفسى ، والذين هم على خبرة بتحليل الألعاب .

وللتدليل على هذا ، يورد أريك بيرن هذه الواقعة التى جرت فى حضور أب من المختصين فى تحليل التعامل ، والتى لم يكن ليتنبه إلى مغزاها أى طبيب نفسى عادى .

على مائدة الطعام ، شكا الطفل ، البالغ من العمر سبع سنوات ، من ألم فى معدته أثناء تناول الأسرة لوجبة العشاء ، وطلب أن يعفى من الطعام ، فعرض عليه أبوه أن يذهب إلى سريره ويستلقى عليه لبعض الوقت . ولم يمض إلا وقت قصير ، حتى قال الأخ الأصغر ، البالغ من العمر ثلاث سنوات ، «بطنى تؤلمنى أنا أيضًا !» ، ساعيًا إلى نفس النتيجة . نظر إليه الأب متمليًا لعدة ثوان ، ثم قال له «أرجو ألا تكون راغبًا فى ممارسة هذه اللعبة .. هل تريد أن تمارسها ؟» . هنا انفجر الطفل الصغير ضاحكًا ، وقال «لا ..» .

إذا ما كانت هذه الواقعة قد جرت فى أسرة أخرى عادية ، فسيسرع الأبوان القلقان بوضع الأخ الصغير فى سريره . وإذا تكرر هذا الموقف عدة مرات بين الطفل وأبويه ، فستصبح هذه اللعبة ـ بالتأكيد ـ جزءًا من شخصية الطفل ، نتيجة لمعاونة الوالدين له فى ممارستها كلما أحس بالغيرة من المزايا التى يتم تقديمها لمنافسه ، وهو الأخ الأكبر فى هذه الواقعة ، ادعى المرض حتى يحصل على بعض المزايا .

على المستوى الاجتماعى المعلن ، يقول «صحتى ليست على ما يرام» ،

وعلى المستوى السيكلوجى الخفى ، يقول ضمنًا «يجب أن تقدموا لى بعض المزايا أنا أيضًا» .

لقد تم قطع هذه اللعبة وإيقافها ، منذ البداية الأولى ، عن طريق سؤال الأب . والإجابة الصحيحة من الابن ، التى تفيد أنه كان يمارس لعبة. يوضح هذا أن الألعاب تتأسس عند الأطفال بشكل تلقائى وبمبادرتهم هم. وبعد أن تصبح هذه الألعاب عند الفرد مخططًا ثابتاً ، للتنبيه والاستجابة ، تختفى أصولها فى ضباب الزمن ، وتصبح طبيعتها الخفية غامضة وسط متاهات المجتمع .

ولا يمكن الكشف عن منشأ اللعبة ، وطبيعتها الخفية ، إلا من خلال اجراءات مناسبة , بواسطة شكل من أشكال العلاج بالتحليل النفسى يمكن الوصول إلى الأصل أو المنشأ ، وقطع مجرى اللعبة وإيقافها يسمح بكشف مظاهرها الخفية .

لقد أثبتت الخبرات الاكلينيكية (المعملية) المتكررة ، أن الألعاب بطبيعتها تنتشر بالمحاكاة وأنها تتكون بشكل غريزى ، عن طريق بعض جوانب (البالغ) فى صغير السن . وعندما ننجح فى إحياء موقف (الطفل) فى ممارس اللعبة كبير السن ، نكتشف مدى تأثير هذه الشريحة وقدراتها فى شخصيته الصغير ، ومدى نفوذها فى تسيير حياة الشخص .

ما بين الثانية والثامنة من العمر ، تتشكل لدى الصغير مجموعة من الألعاب الخفية ، التى يستجيب لها فى مراحل عمره المختلفة ، مستمتعًا ، إذا لم تكن من الألعاب المأساوية .

وبعد أن نورد تصنيفًا للألعاب ، ونستعرض تفاصيلها وأنواعها ، سنعود مرة ثانية إلى الحديث عن تكوين الألعاب فى سن الطفولة ، ونورد نماذجا لهذه المناورات الضارة التى يرسخها الوالدان فى نفوس الصغار .

لماذا نمارس الألعاب ؟

الألفة هى أعلى مستوى فى العلاقات البشرية ، ونظرًا لأن بعض أشكال الألفة الحميمة يستحيل تحققها بالنسبة لمعظم الناس من الناحية السيكلوجية ، فنحن نمضى أغلب وأهم أوقات حياتنا فى ممارسة الألعاب . لهذا تكون الألعاب مطلوبة وضرورية لنا .

والسؤال المطروح هو : هل تعطى هذه الألعاب للفرد الذى يمارسها أفضل ما فيها ؟ يجب ألا ننسى أن السمة الأساسية للألعاب ، هى ذروتها ، أو مكسبها . والوظيفة الرئيسية للحركات الأولية هى الوصول إلى العائد أو المكسب ، إلا أن تصميم هذه الحركات يكون بحيث تحقق كل خطوة منها ، الحد الأقصى من الرضا المسموح به ، كعائد إضافى .

ففى لعبة « المكّار » الذى سنورد تفصيلها فيما بعد ، والتى يقوم فيها الضيف ببعض التصرفات التخريبية المخلة ، ثم يعتذر عنها ، يكون العائد أو هدف اللعبة هو الحصول على الغفران ، الذى يتم الحصول عليه قسرا نتيجة للاعتذار عن التصرفات . وجميع الحركات ، بما فى ذلك كسر الأوانى ، أو إراقة الشاى ، أو خرق الستار ، هى كلها خطوات نحو العائد الأساسى ، ولكن كل خطوة منها تقدم مباهجها الخاصة بالنسبة لممارس اللعبة .

ونفس الشىء ينطبق على لعبة « المدمن » ، فأيًا كانت الأصول السيكلوجية لحاجة احتساء الخمر ، فى منطق تحليل الألعاب ، تكون عملية

احتساء الخمر فى ذاتها مجرد حركة فى اللعبة . وإذا كان المريض يشعر بمتعة من احتساء الخمر ، فهذه ليست المتعة النهائية التى يسعى إليها .

والألعاب لها وظيفة اجتماعية ، هى توفير شغل مرضى للوقت . ولكن ، بالنسبة لبعض الأشخاص ، تكون الألعاب ضرورة حتمية لتوفير حالة صحية لديهم . هؤلاء الأشخاص ، يكون استقرارهم النفسى مخلخلاً للغاية ، وتجرى المواقف فى حياتهم خلال حالة شديدة من التوتر ، بحيث يصبح حرمانهم من ممارسة الألعاب ، مؤدياً إلى حالة من اليأس لا علاج لها ، أو إلى حالة من المرض النفسى . هؤلاء الأشخاص يحاربون بعنف أى محاولة لوقف ألعابهم . يغلب حدوث هذا فى الحياة الزوجية ، عندما ينجح الطبيب النفسى فى علاج الزوجة مثلاً ، ويوفق فى إيقاف الألعاب التخريبية التى تمارسها ، يحدث تأخر سريع فى حالة الزوج ، الذى كانت ألعاب الزوجة ذات أهمية قصوى فى تحقيق توازنه النفسى ، من هنا ، يجب علينا مراعاة الحكمة ، فى مراحل تحليل الألعاب .

ومن حسن الطالع ، أن مزايا حياة التآلف الخالية من الألعاب ، والتى يجب أن تكون الشكل الأمثل للعلاقات البشرية ، هذه المزايا تكون على درجة من الغزارة ، بحيث تتيح لأصحاب الشخصيات المزعزعة ، هجر الألعاب ، بسرور وسلام ، إذا ما عثروا على الشريك المناسب الذى يحقق لهم العلاقة الأفضل .

تصنيـــف الألعـــاب

بالإضافة إلى أشكال تصنيف الألعاب التى أوردناها فيما سبق ، هناك أنواع أخرى من التصنيف :

١ ـ على أساس عدد اللاعبين الداخلين فى اللعبة .

٢ ـ على أساس العملة المستخدمة : الكلمات (لعبة الطب النفسى) ، النقود (لعبة المدين) ، أجزاء من البدن (لعبة الجراحة) .

٣ ـ على أساس النماذج المعملية فى عيادات العلاج النفسى : هستيرى (لعبة الاغتصاب) ، جنون الاضطهاد (لماذا يحدث هذا لى أنا ، دائمًا) .

٤ ـ على أساس مناطق الالتذاذ : فمى (لعبة مدمن الخمر) ، شرجى (لعبة المكّار) .

٥ ـ على أساس الآليات النفسية : مواجهة الخوف المرضى (لعبة لو لم يكن من أجل خاطرك) .

٦ ـ على أساس غريزى : مازوكى (لو لم يكن من أجل خاطرك) ، سادى (لعبة المكّار) .

* * *

كما أن هناك تصنيف آخر على أساس المرونة ، ومدى التمسك باللعبة ، ودرجة الكثافة فى ممارسة اللعبة . ومن ثم مدى العنف فى ممارسة اللعبة .

ويجرى تصنيف الألعاب أيضًا ، وفقًا لمستوياتها :

١ ـ فى ألعاب الدرجة الأولى : تكون اللعبة مقبولة من المجتمع المحيط بممارسها .

٢ ـ فى ألعاب الدرجة الثانية : لا تسبب الألعاب أضرارًا يستحيل علاجها ، إلا أن ممارس اللعبة يكون معزولاً عن مجتمعه .

٣ ـ فى ألعاب الدرجة الثالثة : تنتهى الألعاب بعائد مأساوى ، فى غرفة العمليات الجراحية ، أو المحكمة ، أو المشرحة !

الفصل الرابع

ألعاب الحياة اليوميّة

ألعاب الحياة اليومية

هذه المجموعة من الألعاب يمكن أن نطلق عليها اسم «ألعاب الحياة اليومية» . وهى تتضمن ألعابًا تتصل من ناحية بألعاب الحياة الزوجية ، ومن ناحية أخرى بألعاب عالم الجريمة . والألعاب التى سنستعرضها هى :

- مدمن الخمر .
- انظر.. ماذا جعلتنى أفعل ! .
- المدين .
- أخيرًا .. امسكت بك يا ابن الكلاب !.
- اضربنى ! .

«مـــدمن الخمـــر»

فى تحليل الألعاب لا نهتم بقضية إدمان الخمر ، أو بالعلاج الذى يمكن أن يقدم لمدمن الخمر ، إن ما يدخل فى اعتبارنا فقط دور من أدوار إحدى الألعاب يطلق عليه «مدمن الخمر» إن قضية إدمان الخمر ، سواء لأسباب كيميائية حيوية أو أسباب سيكلوجية ، تدخل فى اهتمام الطب والأطباء . إن ما يهتم به تحليل الألعاب ، شىء مختلف للغاية ، إنه نوع التعاملات الاجتماعية التى تتصل بهذا النوع من الإدمان . ومن هنا كانت تسمية اللعبة باسم «مدمن الخمر» .

يشترك فى هذه اللعبة خمسة أفراد ، وفى حالات خاصة ينخفض عدد اللاعبين إلى لاعبين فقط .

بطل هذه اللعبة ، بالطبع ، ولاعبها الأول هو «مدمن الخمر» . والعنصر الثانى فى اللعبة يقوم بدور «الاتهام» ، أشبه ما يكون بدور النيابة فى المحكمة ، وعادة ما تقوم الزوجة بهذا الدور (أو الزوج عندما تلعب الزوجة الدور الأول) . ويكون العنصر الثالث ، عادة ، من نفس جنس اللاعب الأول ، رجلاً كان أم امرأة ، ويقوم بدور «المنقذ» . وفى كثير من الأحيان يقوم طبيب العائلة بدور المنقذ ، فهو مهتم اهتمامًا كبيرًا بحالة البطل ، ويحاول

استقصاء جذور مشكلته ، وتتبع جذورها . وفى حالات تقليدية من هذه اللعبة ، ينجح الطبيب «المنقذ» فى علاج البطل من إدمان الخمر . وبعد ستة أشهر مثلاً من إقلاع البطل عن تعاطى الخمر ، يتبادل البطل مع طبيبه عبارات الشكر والتهنئة . وإن كان هذا لا يمنع من عثورنا على البطل فى اليوم التالى . وقد احتضن أحد أعمدة الإضاءة ، وهو يردد بلسان ثقيل من فرط تعاطى الخمر . «أنا جدع ...» .

الدور الرابع يقوم به «العطوف» ، الذى يقرض المدمن بعض المال ، أو يقدم إليه الخدمات ، أو يشعل له سيجارته ويعد له قدح القهوة ، دون أن يحاول تأنيبه أو توجيه أى اتهام إليه . وأيضًا دون أن يبذل أى جهد فى سبيل انقاذه . وغالبًا ما تلعب الأم ، أم المدمن ، هذا الدور . وهى تعطيه النقود كلما احتاج ، وتتعاطف معه كلما أحس بالضيق . وتشاركه فى نقد الزوجه التى لا تفهمه . وحتى عندما يتم الاتفاق بين الجميع على عدم إقراض المدمن أى أموال . حتى لا يستغلها فى شراء الخمر ، يقدم «العطوف» المال للمدمن . يجىء المدمن بسبب زائف لطلب المال ، ورغم معرفة «العطوف» بزيف هذا السبب . وأن الهدف الحقيقى هو شرب الخمر ، فهو يقدم المال للمدمن ، مدعيًا عدم اكتشافه للسبب الحقيقى .

وفى بعض الأحيان يتحول «العطوف» إلى دور آخر من أدوار هذه اللعبة . يمكن أن نطلق عليه اسم «المحرّض» . وهو الرجل الطيب من وجهة نظر البطل الذى يحقق له رغباته ، حتى قبل أن يطلبها . ما أن يلتقى بالبطل ، حتى يقول له «ألا تجىء لتأخذ معى كأسًا ؟» ، والمضمون الحقيقى لهذا القول هو «ألا تأتى معى لتناول ما يجعلك تنزلق بسرعة أكبر إلى الهاوية ؟!» .

وفى النهاية نأتى للدور الخامس من أدوار هذه اللعبة ، «الوسيط» ، ورغم أن دوره ثانوى فى اللعبة إلا أنه الشخص الدائم الوجود فى حياة المدمن . وهو الساقى فى حالة مدمن الخمر (البارمان) الذى يقدم إليه إمدادات الخمر التى يحتاجها .

الفرق بين «الوسيط» وأى دور آخر فى هذه اللعبة ، كالفرق بين المحترف والهاوى فى أى لعبة من الألعاب الرياضية مثلاً . المحترف يكون أكثر إدراكاً للحظة المناسبة التى يجب عليه أن يتوقف عندها . وعند هذه اللحظة ، يمتنع الساقى الخبير عن تقديم الخمر للمدمن ، فيتركه بلا إمدادات جديدة ، حتى يعثر على الساقى الآخر الأكثر تساهلاً .

فى المراحل الأولى للعبة «مدمن الخمر» قد تلعب الزوجة ثلاثة أدوار على التوالى ، فهى فى منتصف الليل «العطوف» ، التى تخلع عنه ملابسه ، وتعد له قدح القهوة ، بل وتتركه فى بعض الأحيان يسبها ويضربها . وفى الصباح ، تلعب دور «الاتهام» ، تنهره وتعنفه على الآثام التى ارتكبها . وفى المساء تلعب دور «المنقذ» ، فتتوسل إليه أن يتوقف عن احتساء الخمر ، حتى لا يعود إلى ارتكاب الآثام التى تدفعه إليها . وفى المراحل المتأخرة من اللعبة ، ونتيجة للتدهور الجسمانى الذى يصيب البطل فى بعض الحالات ، يتم الاستغناء عن دورى «الاتهام» و «المنقذ» .

مكاسب اللعبة :

كشفت الدراسات الحديثة ، أن مكاسب لعبة «مدمن الخمر» ، التى يستهدفها المدمن ، تأتى من مصادر ، غالبًا ما يعطيها الباحث أقل قدر من الاهتمام . لقد ثبت ، عند تحليل اللعبة سيكلولوجيًا ، أن احتساء الخمر فى

حد ذاته يعتبر متعة جانبية ، تضاف إلى المتعة الحقيقية والأصلية لهذه اللعبة.
إن الهدف الأساسى الذى يسعى إليه لاعب «مدمن الخمر» هو : تحقير الذات ، والرغبة فى الشعور بالتهديد !..

ومصدر التهديد بالنسبة للمدمن لا يكون الألم الجسمانى ، بل العذاب النفسى. فعندما يزور المدمن طبيبه النفسى ، فى اعقاب ليلة ليلاء ، نراه يوجه إلى نفسه جميع ضروب الشتائم وأنواع السباب ، رغم أن الطبيب لم يطلب منه هذا ، أو يقول ما يقتضيه. وفيما بعد ، عندما يستعيد المدمن ذكريات هذه الزيارة ، يقول بكل فخر واعتزاز إن الطبيب هو الذى وجه إليه هذه الشتائم.

لهذا ، يجب أن يكون الاهتمام الأساسى أثناء علاج المدمن ، موجهًا إلى حالة المعاناة النفسية التى يتسبب فيها شرب الخمر ، أكثر من الاهتمام بعملية شرب الخمر فى حد ذاتها.

وإلى جانب المتعة الشخصية التى يحققها شرب الخمر ، يكون هدف المدمن هو الوصول إلى الموقف الذى يستطيع فيه (الطفل) داخله ، أن يتلقى تعنيفاً قاسيًا ، ليس فقط من (الوالد) بداخله ، ولكن من أى شخص يحقق صفة الوالد فى محيطه .. ومن هنا ، يجب أن يتركز العلاج النفسى لهذه اللعبة ، ليس على الشرب فى حد ذاته ، ولكن على النتائج المترتبة عليه ، فى صباح اليوم التالى .. عند الوصول إلى حالة طلب (الغفران للذات) ، التى تستمد وجودها من حالة (تحقير الذات).

وهذا لا يمنع وجود حالات من إدمان الخمر ، لا يشعر فيها المدمن بأى معاناة نفسية فى أعقاب الشرب ، إلا أن هذه الحالات تخرج عن مجال بحثنا.

وشارب الخمر فى هذه الحالة ، لا يدخل فى عداد ممارسى لعبة «مدمن الخمر» التى نتحدث عنها .

وهناك أيضًا لعبة أخرى يمكن أن نطلق عليها « مدمن بلا خمر » وفيها يصل الشخص إلى عملية التحقير الاجتماعى أو الإفلاس المادى دون الاستعانة بالخمر ، لكنه يقوم بنفس تتابع الحركات ويعتمد على نفس الأدوار المساعدة . وهنا أيضًا ، يكون صباح اليوم التالى ، أو ما يجرى فى أعقاب الفضيحة هو جوهر اللعبة وعقدتها .

العـــلاج :

علاج لعبة «مدمن الخمر» لا يكون بدفع البطل إلى التحول من دور «المدمن» إلى دور آخر من أدوار اللعبة ، بل يكون بإيقاف اللعبة كلية .

وكثيرًا ما ينجح الطبيب النفسى المعالج فى مهمته ، رغم صعوبة الوصول إلى بديل آخر أكثر امتاعًا «لمدمن الخمر» من مواصلته للعبته . ولما كان الدافع السيكلوجى الداخلى للاعب هذه اللعبة هو خشية التآلف مع الآخرين ، ورغبته فى تفادى أى علاقات تتضمن التآلف والتعاطف ، فقد يقتضى الأمر إدخاله فى لعبة بديلة ، وليس تركه بلا ألعاب .

وعلاج لاعب «مدمن الخمر» يجعل قدرته على إقامة العلاقات الاجتماعية ضعيفًا ، وهذا العلاج قد يترك اللاعب معانيا من شعور بنقص الإثارة فى حياته اليومية . وهذا فى حد ذاته ، يضاعف لديه اغراء العودة إلى الأيام الجميلة الماضية !..

والخطة المثلى لعلاج هذه اللعبة ، لا تكون بمنع المدمن من شرب الخمر منعًا باتًا ، ولكن بالسماح له باحتسائها فى المناسبات الاجتماعية ، بشرط ألا يورط

نفسه . وعلاج (المنع الشامل) المعتاد ، لا يرضى العالم النفسى محلل الألعاب .

وعندما تمضى قدمًا فى استعراض باقى الألعاب التى يمارسها البشر ، سنكتشف أن أصحاب الأدوار الأخرى فى هذه اللعبة ، يمارسون ألعابًا أخرى مكملة لهذه اللعبة «المنقذ» يميل إلى أن يلعب لعبة «أنا أحاول مساعدتك فقط» ، «والاتهام» يلعب لعبة «انظر ماذا جعلتنى أفعل» ، وصاحب دور «العطوف» يلعب لعبة «الرجل الطيب» . ومع انتشار الهيئات والمنظمات التى تستهدف إنقاذ مدمنى الخمر ، والتى تشيع فى مطبوعاتها أن الإدمان هو نوع من الأمراض ، يتعرض لها الشخص كما يتعرض لأى مرض آخر ، يتعلم لاعب دور «مدمن الخمر» أن يلعب لعبة إضافية أخرى هى لعبة «صاحب الساق الخشبية» .

إيقــاف اللعبــة :

من المعروف أن لعبة «مدمن الخمر» يلعبها الداخلون فيها بإصرار ، ولذا يصعب إيقافها والتخلص من آثارها .

فى إحدى مجموعات العلاج النفسى الجماعى ، بدأت الزوجة التى تلعب «مدمن الخمر» مشاركتها فى جلسة العلاج الجماعى بحذر شديد . وعندما أحست أن تعرفها على باقى أفراد المجموعة قد أصبح كافيًا ، بدأت تلعب لعبتها . سألت أفراد المجموعة عن رأيهم فيها . ولما كانت تصرفاتها خلال جلسات العلاج الجماعى طيبة ، فقد عمد البعض إلى امتداحها . فعلقت على الفور «ليس هذا هو ما أبغيه ، أريد أن أعرف رأيكم الحقيقى فى شخصى» .

لقد أفصحت هنا عن رغبتها فى تلقى التعليق المهين الجارح وليس المديح .

وعندما رفضت المجموعة أن تلعب دور «الاتهام» فى اللعبة ، عادت إلى بيتها فى حالة ابتئاس ، وطلبت من زوجها أن يتوقف عن إيفادها إلى جلسات العلاج الجماعى . أما إذا عادت إلى شرب الخمر ، فيمكنه أن يطلقها ، أو يودعها مصحة من المصحات العلاجية . فوعد الزوج بتحقيق رغبتها وفى نفس اليوم ، عاد الزوج إلى بيته مساء ، ليجدها فى حالة تسمم كحولى ، مما دفعه إلى الإسراع بإيداعها إحدى المصحات .

لقد رفضت مجموعة العلاج النفسى الجماعى أن تلعب دور «الاتهام» فى لعبة «مدمن الخمر» التى تمارسها الزوجة . كانت تتوقع أن تؤدى لها المجموعة هذه الخدمة البسيطة . وعندما حدث العكس ، أحست أنها تعرضت لظلم شديد ، فاتجهت إلى زوجها ، ودفعته دفعًا إلى أن يلعب هذا الدور .

الوضع الأسلم للطبيب عند تصديه لمارس «مدمن الخمر» ، هو أن يتصرف من موقف (البالغ) الذى بداخله ، ويرفض الدخول فى أى دور من أدوار اللعبة . وأن يكون هدفه الأساسى هو إيقاف اللعبة ، وليس مجرد توقف المريض عن احتساء الخمر

ومما يزيد من مشقة إيقاف هذه اللعبة ، أن مدمن الخمر ينظر إليه فى كثير من المجتمعات المتحضرة ، باعتباره حالة تستحق العطف والتسامح والاهتمام . وينظر المجتمع باستياء لكل من يرفض اتخاذ هذا الموقف .

فى إحدى الحالات ، لجأت لجنة من لجان الرعاية الاجتماعية للمدمنين فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إلى جهود مجموعة من الأطباء النفسيين . وقد حاولت هذه المجموعة الطبية أن تقوم بالعلاج على أساس إنهاء اللعبة وإيقافها ، وليس على مجرد توقف الأشخاص عن شرب الخمر ، وعندما استشعرت اللجنة

هذا الاتجاه من الأطباء النفسيين ، أوقفت تعاملها معهم ، ولم تحاول الاتصال بأى منهم فى الحالات التالية .

عائلة لعبة «مدمن الخمر» :

بعض الألعاب تكون مع بعضها عائلة متكاملة . ولعبة «مدمن الخمر» لها عدة أقارب ، من بينها لعبة «خذ لك كأسًا» ، التى يوضحها المثال التالى :

* المدمن وزوجته (التى لا تحتسى الخمر وتلعب دور «الاتهام») ، يذهبان فى رحلة خلوية ، مع صديق وزوجته (كلاهما يلعب دور «العطوف» فى اللعبة) .

يقول مدمن الخمر للشخص الآخر الذى يلعب دور «العطوف» : «خذ لك كأسًا» إذا أخذ كأسا مما يعنى بالتحديد إذا أخذا معا كأسا ، فإن هذا يتيح للمدمن أن يأخذ أربعة كؤوس أو خمسة فى مقابل الكأس الواحد الذى يقبله الصديق . لكن اللعبة تنكشف إذا ما رفض الصديق الشرب أصلاً . وبحكم قواعد الشراب ، يكون المدمن قد أهين ، ويصبح من حقه البحث عن رفاق جدد فى رحلته الخلوية القادمة ، أكثر توافقًا وانسجامًا مع رغباته ومذاقه .

فما يبدو على المستوى الاجتماعى العلنى ، كرمًا من موقف (البالغ) ، يكون على المستوى السيكلوجى الخفى تصرفًا ماكرًا ، يحصل به (الطفل) داخل المدمن على غفران أبوى من الشخص الآخر ، عن طريق رشوة مكشوفة ، تحت أنف الزوجة وعينها ، بينما لا تكون لديها فرصة للاعتراض .

المهم أن الزوجة ، بهذا النسق ، تشارك زوجها المدمن فى ترتيبات اللعبة ، بحيث تصبح غير قادرة على الاحتجاج الجاد أو الاعتراض الحاسم ، ذلك

لكونها ـ كزوجة ـ حريصة على استمرار اللعبة ، حتى لا تفقد الدور الذى تلعبه ، دور «الاتهام» . ويكون هجومها عليه ، صباح اليوم التالى للرحلة ، هو مكسبها الذى تسعى إليه منذ البداية .

ودور «العطوف» فى هذه اللعبة لا تكون دوافعه سيئة دائماً . فهو يكون من بين الذين يعانون من الوحدة ، ويفيدهم هذا التعاطف مع «المدمن» . ومن بين الذين يلعبون دور «العطوف» ، يوجد من يلعبون لعبة أخرى هى لعبة «الرجل الطيب» ، وهو يكسب بلعبته الكثير من المعارف ، ويحظى بسمعة طيبة فى الدوائر الاجتماعية .

«انظر.. ماذا جعلتنى أفعل !»

تعتبر هذه اللعبة ، فى شكلها التقليدى ، من ألعاب الحياة الزوجية ، ولما كان من الممكن أن تجرى بين الآباء والأبناء ، فقد أوردناها ضمن ألعاب الحياة اليومية .

وهذه اللعبة ، تتم على أكثر من مستوى ، متدرجة فى حدّتها وخطورتها .

الدرجة الأولى من اللعبة :

يلعبها الرجل المنطوى بطبيعته ، نتيجة لشعوره بعدم كفاءته فى إقامة العلاقات الاجتماعية . لهذا ، تراه يعمد إلى الاستغراق فى بعض النشاطات التى تشجع انعزاله عن الناس ، ويصبح هدفه فى الحياة أن يتركه الناس لحاله .

ينهمك هذا الشخص فى عمل ما ، رسم لوحة أو إصلاح ساعة أو جهاز تسجيل ، ويقتحم المتدخل (الزوجة أو أحد الأولاد) عزلته لحاجة ما ، أو لمجرد أن يسأله سؤالاً مثل «أتعرف أين أجد الشاكوش ؟» . هذه المقاطعة «تتسبب» فى سقوط القلم أو الفرشاة أو المفك الذى يمسك به . فيستدير للدخيل فى غضب صائحًا «انظر... ماذا جعلتنى أفعل !» . وتكرر هذا المشهد بأشكال مختلفة ، تميل الأسرة يومًا بعد يوم إلى تركه وحيدًا ، مستغرقًا فى عمله الخاص .

واضح هنا ، أن سقوط القلم أو الفرشاة أو المفك من يده ، لا يرجع إلى

تدخل الزوجة أو الأولاد بالسؤال ، ولكن يسبب انفعاله هو . وهو عادة ما يكون فى غاية السعادة بهذا التدخل ، حتى يجد مبررًا لغضبه ، ولطرد الدخيل

ونظرًا لسهولة حركات هذه اللعبة ، يسهل على الأولاد تعلمها ، كلما أتيح لهم أن يتابعوا أطوارها بين الكبار . لهذا ، من السهل أن تنتقل هذه اللعبة من جيل إلى جيل . ومصادر الاستمتاع الضمنية لهذه اللعبة ، تظهر بشكل أكثر وضوحًا ، عندما تتم ممارستها بطريقة أكثر خداعًا .

الدرجة الثانية من اللعبة :

هنا تصبح اللعبة خطة دائمة للحياة وأسلوبًا لها ، أكثر من مجرد أداة آلية لحماية النفس وضمان العزلة ، يلجأ إليها الممارس من حين لآخر .

فى الدرجة الثانية ، يتزوج الشخص الذى يلعب هذه اللعبة ، من إمرأة تلعب لعبة أخرى يلطق عليها اسم «أنا لا أسعى إلا لمساعدتك» ، حتى تسهل ممارسة اللعبة بشكل مستمر .

مثال ذلك .. يترك الزوج لزوجته أن تقرر أين يذهبان لتناول العشاء ، أو أى فيلم يذهبان لمشاهدته ، وهو يفعل هذا لاظهار شهامته وللتدليل على إنصافه وعلى ديمقراطيته .

إذا ما أثبتت التجربة أن اختيار الزوجة كان ناجحًا ، استمتع بالعشاء أو بالفيلم . أما إذا حدث العكس ، فكان الطعام رديئًا أو الخدمة فى المطعم سيئة ، أو كان الفيلم سخيفًا ، فهو يستغل الموقف إلى أقصى حد ، صائحًا «انظرى ماذا جعلتنى أفعل» .

أو قد يلقى على عاتقها القرارات الخاصة بأسلوب تنشئة الأولاد وتربيتهم ، بينما يقوم هو بدور المنفذ لقراراتها . وكلما ظهر قصور فى تربية الأولاد أو فى تصرفاتهم ، يصبح من حقه أن يمارس اللعبة . وهذا وضع مثالى للذى يمارس هذه اللعبة ، فهو يستطيع ممارستها بشكل متكرر على مدى الأعوام ، لائمًا الزوجة على كل تصرف خاطئ لأحد الأبناء ، وعلى كل درجة منخفضة يحصل عليها أحدهم فى الامتحان .

فى هذه الحالة تكون لعبة «انظر ماذا جعلتنى أفعل » ، غاية فى حد ذاتها ، لكنها تفتح المجال للعبة أخرى تسمى «ألم أقل لك من قبل ؟! » .

اللاعب المحترف ، الذى يحل مشاكله النفسية بهذه اللعبة ، يستخدمها أيضًا فى عمله . رئيس العمل – على سبيل الديمقراطية وحسن الإدارة – يترك لمساعديه أن يفكروا فى حلول المشاكل التى تعرض لهم ، وأن يبتوا فيها . وهو بهذا ، يتحصن فى مركز منيع ، غير قابل للهجوم ، يشن منه حملات الارهاب على مرؤوسيه . كل قرار خاطئ يستخدم ضدهم ، ويمكنه من لومهم . والتمادى فى ممارسة هذه اللعبة قد يؤدى إلى نتائج سيئة تحيق بمن يمارسونها ، كالفصل ، والنقل ، والتنزيل .

أما المرؤوس الذى يستمتع بالغبن الذى يقع عليه ، فيواصل اللعبة بحماس ، فهو يفعل ذلك بسبب رغبة مرضية لتحقير الذات لديه . وهو بهذا يمارس لعبة أخرى يطلق عليها اسم «لماذا يحدث هذا دائمًا ، لى ؟!» ، هذا إذا كان من سريعى الغضب . أما إذا كان ممن يميلون إلى الاكتئاب ، فهو يمارس لعبة «ها نحن مرة ثانية !» . وهاتان اللعبتان ، تعتبران من عائلة لعبة «اضربنى ..» التى سنتعرض لها بعد قليل .

الدرجة الثالثة من اللعبة :

تصل إلى هذا المستوى عندما يمارس هذه اللعبة (العصابيون) من المرضى النفسيين ، ضد أشخاص لا يتسمون بالحذر . مما يجعلهم يتطوعون بتقديم النصائح ، حيث يكونون منهمكين فى ممارسة لعبة أخرى ، سنتعرض لها أيضًا ، هى لعبة «أنا لا أسعى إلا لمساعدتك» . على هذا المستوى ، تكون للعبة نتائجها الخطيرة ، والتى تصبح فى بعض الحالات مميتة !.

* * *

ولعبة «انظر ماذا جعلتنى أفعل» ، تكمل بشكل محكم لعبة «أنت السبب» . والمزيج بين هاتين اللعبتين ، يعتبر أساسًا تقليديًا للاتفاق الضمنى على ممارسة الألعاب ، فى كثير من الزيجات .

الواقعة التالية توضح هذا الاتفاق :

- يتفق الرجل مع زوجته على أن تقوم هى بإمساك حسابات الأسرة ، والانفاق من رصيدهما المشترك .
- يبلغها البنك أن إنفاقها قد تجاوز الرصيد ، ويطالبها بتغطية النقص .
- يتدارس الزوجان سبب ما حدث ، فيكتشف أن الزوجة قامت بشراء قطعة أثاث غالية ، دون إخطاره .
- يشرع الزوج فورًا فى ممارسة لعبة «أنت السبب ..» ، وتواجه الزوجة زجرته باكية ، واعدة بعدم تكرار هذا .
- تسير الأمور على ما يرام لفترة من الزمن ، ثم يظهر فجأة مندوب إحدى

الشركات ، مطالبًا بسداد أقساط متأخرة .

ـ لما كان الزوج يسمع عن هذا الموضوع لأول مرة ، فهو يسارع بسؤال الزوجة عن التفاصيل . هنا تبدأ الزوجة فى ممارسة لعبة «انظر ماذا جعلتنى أفعل» . فتقول إنها كانت غلطته . لقد حذرها من تجاوز الرصيد فى البنك ، فوجدت أن الوسيلة الوحيدة لشراء السلعة هو الالتجاء إلى التقسيط . ومحاولة إخفاء مطالبات الأقساط التى تفشل فى تدبير المال اللازم لها .

تستمر هذه اللعبة لعشرات السنين ، على اعتبار أن كل واقعة ستكون الأخيرة ، وبعد مضى عدة شهور دون مشاكل ، تتجدد المشكلة .

عــلاج اللعبــة :

خلال جلسات العلاج النفسى ، استطاع الزوج أن يحلل اللعبة بمهارة ، ودون مساعدة من الطبيب النفسى المعالج . واقترح علاجًا ناجحًا ، هو أن يتفق مع زوجته على أن يضعا رصيدهما معًا باسمه هو ، وأن تستمر الزوجة فى مهمة إمساك الحساب وكتابة الشيكات ، على أن يراجع هو الفواتير قبل توقيعها - حتى يستطيع أن يجرى التنسيق اللازم بين الرصيد والانفاق .

بهذه الطريقة ، استقامت أمور حياتهما ، وأصبحا يتشاركان فى إدارة ميزانيتهما .

والملاحظ ، أنه بعد أن توقف الزوجان عن ممارسة اللعبتين ، شعرا فى أول الأمر بالضياع ، فاضطرا إلى البحث عن أنماط أخرى للاستمتاع ، تكون علنية وبناءة .

وعلاج هذه اللعبة يختلف من درجة إلى أخرى .

- بالنسبة للعبة من الدرجة الأولى ، يكون بأن يترك اللاعب لحاله .
- وبالنسبة للعبة من الدرجة الثانية ، يكون بالإصرار على إلقاء تبعة القرار على شخص ممارس اللعبة .
- أما بالنسبة للدرجة الثالثة ، فيجب أن يوكل العلاج إلى الإخصائيين .

* * *

وبشكل عام ، يكون الدافع إلى ممارسة لعبة «انظر ماذا جعلتنى أفعل» هو الرغبة فى التبرير .

« المـــدين »

إذا كانت هذه اللعبة تجرى ممارستها بشكل متصل ، أو كخطة للحياة ، فى بعض المجتمعات المتحضرة ، فهى تجد طريقها أيضًا إلى المجتمعات النامية ، وإلى أدغال أفريقيا .

ففى غينيا الجديدة ، يتعاون أقارب العريس ، ويجمعون المال فيما بينهم ، لكى يشتروا له عروسًا غالية الثمن . وبهذا ، يظل مدينًا لهم لعدة سنوات تالية .

نفس الشىء يتم فى المجتمعات المتحضرة . يحل البيت مرتفع الثمن محل العروس الغالية ، ويحل البنك محل أقارب العريس .

والغريب أن احتفالات الزواج وأفراحه ، ودخول البيت الجديد ، كل هذا لا يتم بمناسبة انتهاء العريس من سداد أقساط الديون ، لكنه يتم عندما يوقع العريس على وثائق هذه الديون ، التى سيقتضى سدادها أبهج سنوات حياته .

وهناك تنويع شائع على هذه اللعبة هو «حاول أن تسترد » ، وهى لعبة منتشرة بين حديثى الزواج ، وتجرى ترتيب هذه اللعبة بحيث يكسب اللاعب أيًا كان تطور الأحداث .

الشاب والشابة اللذان تزوجا حديثًا ، يمتلكان كل وسائل المعيشة الحديثة ،

من أجهزة وأثاث ، بنظام التقسيط . يحدث ما يضطرهما إلى التوقف عن سداد بعض هذه الأقساط إذا كان الدائن من النوع السهل ، الذى يتوقف عن المطالبة بعد محاولات لينة غير جادة ، يعتبر الزوجان أنهما قد حققا نصرًا ، فبإمكانهما الآن أن يستمتعا مجانًا بما اشترياه دون دفع باقى الأقساط ، ودون تلقى عقوبة من أى نوع .

أما إذا قام الدائن بمحاولات أكثر نشاطًا وإصرارًا ، فإنهما يستمتعان أيضًا بما فى ملاحقاته من إثارة (كما لو كانا يلعبان «الاستغماية») ، هذا بالإضافة إلى استمتاعهما بالمشتريات .

تجىء المرحلة الصعبة من اللعبة ، عندما يصمم الدائن على الحصول على دينه . وهو قادر على أن يصل إلى آخر مدى فى هذا الطريق ، ابتداء من الشكوى لدى رئيس الشاب فى العمل ، أو إثارة الضجيج فى مسكنه وتحت سمع وبصر الجيران ، وحتى ملاحقته بالمحضرين للحجز على شقته .

عندما نصل إلى هذه المرحلة ، ويشعر الشاب أنه سيضطر إلى الدفع . عندما يتسلم الإنذار الأخير ، الذى يقول «إذا لم تتقدم إلى مكتبنا خلال ٢٤ ساعة من تاريخه ...» ، هنا .. يشعر الشاب بحقه ، الذى لا ينازع ، فى الغضب .

لهذا يتحول مباشرة إلى لعبة أخرى سيجىء الحديث عنها تفصيلاً، هى «أخيرًا أمسكت بك ، يا ابن الكلاب» . والشاب ـ فى هذه المرحلة ـ يستمد متعته من وصفه الدائن بالجشع وانعدام الأخلاق . .

هذه اللعبة لها مكسبان أساسيان :

١ ـ إنها تدعم ثقة الشاب بنفسه ، عندما يردد بينه وبين نفسه «كل الدائنين

لصوص » ، أو « كل التجار لصوص » ، « وأنا الضحية البريئة » .

٢ ـ إنها تدعم الوضع الاجتماعى للشاب ، عندما يطلق أحكامه العامة على نظام التقسيط ، وما يتضمنه من خديعة للبسطاء ، وعندما يقول « إذا كان أسلوب الدائنين على مثل ما أظهر هذا التاجر الجشع ، فلماذا يدفع أى واحد منا دينه أصلاً ؟! » .

اللعبة المضادة :

واللعبة المضادة للعبة « المدين » هى لعبة « الدائن » ، فى صورة « حاول أن تتهرب من الدفع » ، وغالبًا ما يمارسها صغار الملاك .

فى لعبتى « حاول أن تسترد » و « حاول أن تتهرب من الدفع » ، تبدأ الممارسة عندما يتعرف الممارسون على بعضهم البعض . وعندما يتثبون من نية اللعب المتبادل ، تفيض نفوسهم بالسعادة وهم يشرعون فى اللعب ، بسبب المزايا الجانبية التى سيحققونها من تعاملهم واحتكاكهم . هذا بصرف النظر عمن سيكسب فى نهاية الأمر ، وهل سيحصل الدائن على ماله أم ينجح المدين فى التهرب من الدفع .

ألعاب المال هذه يمكن أن يكون لها عواقب وخيمة ـ وإذا بدا مثل هذا الوصف لعواقب اللعبة مضحكًا وسخيفًا فى نظر البعض ، فليس مرجع ذلك إلى سخف الألعاب التى نتحدث عنها ، ولكن إلى سخف الدوافع التى تقف وراء مجموعة من التصرفات ، اعتاد الناس على أخذها مأخذ الجد .

«أخيرًا .. أمسكت بك يا ابن الكلاب !»

لتوضيح طبيعة هذه اللعبة ، نستعرض على سبيل المثال حالة الشخص الذى يحتاج يومًا إلى إصلاح بعض الأعمال الصحية فى حمام بيته .

يحضر السباك ، ويفحص الوضع جيدًا ، ويجلس أمام صاحب البيت الذى يراجع معه المصاريف وأثمان الخامات وأجر الإصلاح . تتم المراجعة بدقة ، ويتم الاتفاق على المبلغ المطلوب ، وليكن عشرة جنيهات ، قبل البدء فى أى عمل .

عندما ينتهى العمل ، يتقدم السباك طالبًا أجره ، مضيفًا إلى الرقم السابق الاتفاق عليه مبلغاً زهيدًا ، وليكن عشرة قروش ، ثمنًا لخامة اكتشف حاجة العمل إليها أثناء عملية الإصلاح .

بمجرد أن يذكر السباك القروش التى أضافها إلى الحساب ، تثور ثائرة صاحب البيت ، وينتهز هذه الفرصة الذهبية ليكيل الاتهامات للسباك ، حول أخلاقه وتصرفاته وطمعه ، ويرفض أن يدفع مليمًا واحدًا من أصل الحساب ، إلا بعد أن يتنازل السباك عن هذه القروش التى أضافها إلى اتفاقهما السابق . وفى آخر الأمر ، يضطر السباك إلى التسليم .

فى هذا الموقف ، يمارس صاحب البيت والسباك لعبة «أخيرًا .. أمسكت بك يا ابن الكلاب !» .

فى جلسة الاتفاق على الأجر ، وخلال المناقشة التى جرت ، والمفاوضات التى تمت حول التكلفة تعرف كل منهما على إمكانيات الآخر ، وعلى إمكان الشروع فى ممارسة اللعبة .

بدأ السباك الحركة الأولى من اللعبة ، فقام بخطوته الاستفزازية مطالبًا بالقروش الزائدة . ولما كان صاحب البيت قد اتفق على كل شىء بالتحديد ، قبل بدء العمل ، أصبح من حقه أن يدين السباك ، وأن يشن عليه هجومًا عادلاً ، وغضبًا مبررًا . وبدلاً من أن يجرى صاحب البيت الحوار مع السباك على مستوى (البالغ) فى كل منهما ، فيقنعه بأن المبلغ المضاف لا يستحق جهد المطالبة به ، إذا قيس بحجم المقاولة كلها . أو أن المطالبة بمبلغ إضافى فيه إخلال بالاتفاق السابق .. بدلاً من هذا، نراه يتقمص صورة البرىء الذى أثير وتلقى لطمة ظالمة ، يشن هجومه العنيف على السباك ، متناولاً بالنقد شخصه وأسلوب عمله ، وأخلاقه وتربيته !

* * *

على المستوى الاجتماعى الظاهر ، تبدو المناقشة وكأنها على مستوى (بالغ ـ بالغ) ، مناقشة عادية حول اتفاق مالى .

لكن إذا بحثنا فى المستوى السيكلوجى المستور ، نراها علاقة (والد ـ طفل) : صاحب البيت مستندًا إلى وضعه الاجتماعى بالنسبة للسباك ، يسخر هذا الحدث العارض للتخلص من غضبه المكبوت ، وربما الذى طال كبته لعدة سنوات ، والذى تشاء الظروف أن ينصب على رأس هذا السباك . نفس ما كانت تفعله أمه معه وهو صغير .

صاحب البيت يدرك منذ البداية أنه سيمارس لعبة «أخيرًا .. أمسكت بك يا ابن الكلاب !» ، ويفيض قلبه بسعادة مستورة بمجرد إدراكه للاستفزاز الذى قام به السباك . ويكتشف أنه كان منذ طفولته يبحث عن مثل هذه المواقف ، حتى يستمتع بممارسة لعبته بلا توقف .

وفيما بعد ، عندما يستعيد صاحب البيت هذه الواقعة ، ينسى فى كثير من الأحوال سبب الاستفزاز الذى قاد إلى ممارسة اللعبة ، لكنه يتذكر جيدًا وبالتفصيل ، مراحل المعركة التى قاد إليها ذلك الاستفزاز ، وتفاصيل استمتاعه بها .

ومثل هذه اللعبة يمكن أن تتواصل بلا نهاية ، إذا ما كان السباك يلعب هو الآخر ، تنويعا من تنويعات لعبة «لماذا يحدث هذا دائمًا لى ؟» .

* * *

فى جميع الأحوال ، يكون هدف هذه اللعبة هو التبرير (تبرير الغضب) .

والعلاقة فى شكلها أو مستواها الاجتماعى تبدو علاقة (بالغ – بالغ) ، مثل :

صاحب البيت : انظر .. لقد ارتكبت خطأ فى حقى .

السباك : أما وقد نبهتنى ، فإنى اعترف بالخطأ .

غير أن العلاقة فى واقعها السيكلوجى المستور تكون علاقة (والد – طفل) مثل :

صاحب البيت (والد) : لقد كنت أراقبك ، آملاً أن تقع فى خطأ ما .

السباك (طفل) : لقد أمسكت بى هذه المرة .

صاحب البيت (والد) : نعم ، وسأجعلك تشعر بكل قوة غضبى ...

«اضـــربـنى !..»

الغريب أن الذين يمارسون هذه اللعبة ، تبدو تصرفاتهم الاجتماعية وكأنهم يرفعون لافتة تقول «أرجوك.. لا تضربنى» .

ولما كان إغراء ضربهم ، ماديًا أو معنويًا ، مما لا يمكن مقاومته . فما أن تتحقق النتيجة الطبيعية لهذا الاغراء ، ويتم الضرب ، حتى يصبح الواحد منهم بشكل يثير الشفقة «لكن اللافتة التى أحملها تقول بوضوح : لا تضربنى !» . ثم يستطرد ممارساً لعبة أخرى فيقول «لماذا يحدث هذا دائماً لى ؟» . وهذه اللعبة الأخيرة تستمد عناصرها من الزهو المقلوب ، الذى يعنى (سوء حظى أقوى من سوء حظك) .

إذا ما عمد الناس إلى الامتناع عن ضرب الشخص الذى يمارس لعبة «اضربنى !» ، بدافع من طيبة القلب ، أو لكونهم يلعبون لعبة «أنا أحاول مساعدتك فقط» ، أو تحت ضغط التقاليد الاجتماعية ، أو حرصًا على الالتزام بالقانون ، إذا حدث هذا ، يتزايد سلوك الشخص استفزازًا يومًا بعد يوم ، حتى يتخطى الحدود المحتملة ، فتضعف أمام ذلك كل الموانع السابقة وهكذا ، يجبر ممارس اللعبة من حوله على الاستجابة لطلبه .

يشيع هذا الطور من اللعبة بين الأشخاص المنبوذين ، والمطرودين من وظائفهم ، والمخدوعين فى الحب .

واللعبة المناظرة عند النساء هى «المهجورة» ، التى تسعى دائمًا إلى من يخفف آلامها . واللاعبة من هذا الطراز قد تقع فى يدها ثروة غير متوقعة . فتراها تجتذب الشباب أصحاب المشاريع الذين يسعون إلى مساعدتها على تبديد هذه الثروة !.

الفصـــل الخامس

ألعَـابُ الحيَـاة الزوْجيّـة

ألعـاب الحيـاة الزوجيـة

بالطبع يبدو فصل ألعاب الحياة الزوجية عن الألعاب الجنسية نوعًا من الفصل المتعسف . لكننا آثرنا أن نورد الألعاب الجنسية فيما بعد ، على أن نقتصر هنا على طرح الألعاب الآتية :

- المأزق .
- المحكمة .
- المرأة الباردة .
- المترعجة .
- انظر كم أحاول بجد .
- حبيبتى . .

المــــأزق

تعتبر هذه اللعبة نموذجًا جيدًا لخاصية نجدها متكررة فى الألعاب ، وهى وظيفتها كعائق للتآلف بين ممارس اللعبة ومن هم حوله .

لكى نفهم هذه اللعبة ، علينا أن نتابع تسلسل السيناريو التالى :

١ ــ تقترح الزوجة على زوجها أن يذهبا إلى السينما ، فيوافق الزوج .

(٢ ــ أ) تقع الزوجة فى زلة لسان (لاشعورية) ، عندما تذكر بطريقة طبيعية وخلال الحديث أن المنزل يحتاج إلى عملية طلاء كاملة . عملية طلاء حوائط المنزل عملية مكلفة ، وقد أخبر الزوج زوجته قبل ذلك بأيام أن حالتهما المالية ليست على ما يرام ، وطلب منها ألا تفتح أبوابًا جديدة للانفاق خلال الشهور التالية ، على الأقل حتى بداية السنة الجديدة . لقد أساءت الزوجة بهذا الاقتراح اختيار اللحظة المناسبة ، واستحقت ردًا وقحًا من الزوج .

(٢ ــ ب) أو قد يقود الزوج الحديث بحيث يؤدى إلى أن تطرح الزوجة اقتراحها ، ثم يستمر التتابع كما فى (٢ ــ أ).

٣ ــ فى الحالتين تدافع الزوجة عن نفسها ، وتقول إن رد الزوج الذى لا يتسم باللطف ، لابد راجع إلى حالة نفسية سيئة يمر بها الزوج . وأنها بناء على هذا لا ترى مبررًا للذهاب معه إلى السينما ، وأن الأفضل ــ إذا ما كان مصرًا ــ أن يذهب بمفرده . فيجيب الزوج بعصبية «إذا كان هذا هو ما تريدين .. فسأفعله ! » .

٤ ـ يذهب الزوج إلى السينما ، تاركًا الزوجة فى البيت ، تداوى جروح مشاعرها .

* * *

هناك نوعان من الحيل فى هذه اللعبة :

أولاً : تعلم الزوجة جيدًا ـ من خبراتها السابقة ـ أن عليها ألاّ تأخذ استياء الزوج وضيقه مأخذ الجد . فهو بما أبداه من استياء وضيق ، يسعى فى حقيقة الأمر إلى أن تبدى الزوجة بعض التقدير لجهده الشاق فى العمل وسعيه لتوفير مطالب حياتهما . إذا أظهرت هذا التقدير ، يصبح بإمكانهما أن يمضيا معًا إلى السينما .

لكن الزوجة ـ مع علمها بذلك ـ ترفض الدخول فى اللعبة ، فيشعر الزوج بالخذلان الشديد . لهذا ، فهو يغادر البيت وحيدًا ، مشحونًا بالاستياء وخيبة الأمل ، بينما تجلس هى فى البيت ، مهانة ظاهريًا ، تكافح لإخفاء شعور دفين بالانتصار !

ثانيًا : يعلم الزوج جيدًا من سوابق تعامله مع الزوجة ، أنه من المفروض ألا يأخذ اقتراحها بطلاء حوائط البيت مأخذ الجد . وأن كل ما تطلبه من وراء مثل هذا الاقتراح ، هو بعض التدليل ، والوعود المعسولة فقط ، يمضيان بعدها فى سعادة إلى السينما . لكن الزوج يرفض الاشتراك فى لعبة الزوجة ، عالمًا أن تصرفه هذا لا يتسم بالأمانة . فهو يعلم أنها تطالب بالتدليل ، لكنه يتظاهر بعدم المعرفة متعمدًا .

فى هذه الحالة يغادر الزوج بيته متظاهرًا بالضيق ، وإن كان يشعر بالابتهاج فى أعماقه ، بينما تبقى الزوجة فى بيتها ، مع شعور بالخيبة والامتعاض .

* * *

فى كل من الحالتين السابقتين ، يبدو موقف المنتصر منها ـ للوهلة الأولى ـ غير مستوجب للوم ، فكل ما فعله هو أن أخذ كلام الطرف الآخر مأخذاً حرفيًا . ويعلم الطرفان جيداً أن فى هذا نوع من الغش والخداع .. لكن طالما أنها قالتها ، فقد وضعت نفسها فى «المأزق» .

مكسب اللعبة :

وأوضح المكاسب فى هذه اللعبة ، هو ما يسمى بالمكسب السيكلوجى الخارجى (أى محاولة تجنب خبرة يراها ممارس اللعبة سيئة ومخيفة أو غير سارة ، فيعمد إلى ممارسة اللعبة) .

فى حالتنا هذه ، يجد كل من الزوجين فى الذهاب إلى السينما منبهًا جنسيًا . فمن المفروض أنه بشكل أو بآخر ، سيتم الاتصال الجنسى بينهما بعد عودتهما من السينما . وعلى ذلك ، فالذى يريد منهما تجنب هذه النتيجة ، بما فيها من تآلف ، يبدأ ممارسة اللعبة كما فى (٢ ـ أ) أو فى (٢ ـ ب) .

عـلاج اللعبة :

وعلاج هذه الحالة من لعبة « المأزق » يكون سهلاً من جانب الزوجة . كل ما هو مطلوب منها هو أن تغير رأيها ، وتأخذ زوجها من زراعه مبتسمة ، ثم تمضى إلى السينما (أى بالانتقال من موقف الطفل إلى موقف البالغ) .

وقد يكون الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للزوج ، فالزوجة هى التى أخذت المبادرة . إلا أنه يستطيع أن يتجاوز الموقف بأكمله ، فيلاطفها حتى تقبل الخروج معه . والأفضل فى هذه الحالة أن يعاملها كبالغ وليس كطفل عبوس .

عائلة لعبة المأزق :

ولعبة «المأزق» تنتشر بشكل مختلف بعض الشىء كلعبة عائلية ، يدخل فيها

الأطفال . فى هذه الحالة يوضع الطفل الصغير فى (المأزق) ، بحيث يصبح كل ما يفعله خاطئًا ! .

ثم هناك الأشكال اليومية من لعبة «المأزق» ، تشارك فيها العائلة بأكملها ، وغالبًا ما تؤثر على نمو صغار الأطفال . وتكثر ممارستها بين الآباء الذين يتصرفون من موقف (الوالد) فى كثير من الفضول والتدخل المعيب .

يطلب الابن ـ أو الابنة ـ من الوالدين المشاركة فى أعمال المنزل . وعندما يستجيب أى منها لهذا النداء ، يواظب الوالدان على اكتشاف الأخطاء فى كل ما يفعله الابن (أو الابنة) . وهو تطبيق عائلى للقول المأثور «ملعون أنت إذا فعلت ، وملعون إذا لم تفعل» .

عند دراسة أسباب إصابة الأطفال بالربو ، تظهر فى بعض الأحيان لعبة «المأزق» ، كعامل من عوامل الإصابة بالمرض .

وهناك تطبيق آخر لهذه اللعبة .

يسأل الصغير أمه «أمى .. هل تحبيننى ؟» . فتجيب الأم «وما هو الحب ؟» . هذه الاستجابة تترك الطفل الصغير بلا معين . هو يريد أن يتحدث مع أمه ، والأم تصعد الحوار إلى المستوى الفلسفى ، حيث يفتقد الابن القدرة على التعامل . مثل هذا الموقف ، يمكن أن يؤدى إلى اضطراب تنفس الطفل . وإذا تكرر هذا الموقف من الممكن أن يتسبب فى إصابة الطفل بالربو .

ومن ألعاب الحياة الزوجية القريبة من لعبة «المأزق» ، لعبة تسمى «لفّة الغذاء» .

الزوج الموظف ، القادر على تناول طعام الغداء فى مطعم جيد ، يصرّ على أن يصنع لنفسه بعض الشطائر كل صباح ، يأخذها معه إلى عمله فى كيس من الورق . وهو لا يتكلف شيئًا فى صنع هذه الشطائر لأنه يجهزها معتمدًا على ما تخلف من طعام العشاء . بل إنه يحرص على أن تحتفظ له زوجته بالأكياس

الورقية القديمة الخاصة بالمشتريات لكى يضع فيها شطائره .

هذا التصرف من الزوج يعطيه السيطرة الكاملة على مالية الأسرة ، فأى زوجة هذه ، التى تجرؤ على أن تشترى لنفسها ثوبًا غاليًا من الحرير ، بينما يقوم زوجها بهذه التضحية اليومية ؟!.

البعض ينظر إلى هذه اللعبة ، ليس كلعبة خبيثة يسيطر بها الزوج على زوجته ، بل كلعبة طيبة ، لأنها تشجع على الاقتصاد فى الاستهلاك والإنفاق .

« المحكمـــة »

تكثر ممارسة هذه اللعبة فى جلسات الاستشارة النفسية العائلية ، وبين جماعات العلاج النفسى الجماعى . وفى كثير من الأحيان يتزلق الطبيب النفسى إلى المشاركة فى اللعبة دون أن ينتبه لذلك .

لعبة «المحكمة» يمكن أن يلعبها أى عدد من الأشخاص . لكنها فى أغلب الأحيان لعبة ثلاثية الأدوار : الاتهام ، والدفاع ، والقاضى . ويلعب هذه الأدوار الزوج والزوجة والطبيب النفسى .

يبدأ الزوج شاكيًا «دعنى أقص عليكم ما فعلته فلانة (اسم الزوجة) بالأمس ، بدأت هذه القصة عندما ... الخ» ، فتجيب الزوجة مدافعة «أستطيع الآن أن أسرد عليكم الوقائع الحقيقية التى سارت عليها هذه القصة ...، وبالاضافة إلى ذلك فهو قد عمد قبل هذا مباشرة ... وعلى كل حال فقد قمنا بهذا معًا ..» .

يضيف الزوج بفروسية «أنا سعيد الآن ، لقد أتيح لكم أن تسمعوا وجهتى النظر ، فغاية ما أسعى إليه هو أن تتحقق العدالة فى الحكم» .، عند هذه النقطة يتدخل الطبيب المعالج فيضيف قائلاً بحكمته المعهودة «يبدو لى أنه إذا ما أدخلنا فى الاعتبار ... الخ» . أما إذا كان هناك بعض الجمهور أو بعض أعضاء الجماعة ، فقد يتوجه الطبيب إليهم قائلاً «هذا عظيم .. دعنا الآن نستمع إلى آراء الذين معنا» .

عــلاج اللعبـــة :

علاج هذه اللعبة يقتضى من الطبيب المعالج بعض المناورات . فهو يبدأ بأن يقول للزوج «رأيي أنك على حق تمامًا» ، فإذا أبدى الزوج ارتياحًا ، وكشف عن شعور بالانتصار ، يسأله الطبيب «ما هو إحساسك بقولى ؟» ، يجيب الزوج «عظيم !» ، فيقول الطبيب «وما رأيك ، إذا قلت لك إننى فى الحقيقة أعتقد أنك أنت المخطئ» . إذا كان الزوج أمينًا ، سيقول معترفًا «أعلم هذا منذ البداية» . أما إذا لم يكن أمينًا ، فسيبدى بعض ردود الفعل ، التى تكشف أن ممارسة اللعبة على أشدها . ويكون على الطبيب المعالج أن يواصل بعد ذلك مراحل العلاج . والعنصر الأساسى فى اللعبة ، هو صياح الزوج ممثل (الاتهام) مطالبًا الانتصار له فى الظاهر ، بينما هو يشعر فى أعماقه بخطئه .

يعمد الطبيب المعالج بعد ذلك إلى جمع القدر الكافى من المعلومات العلاجية حول الحالة التى يتعرض لها ، حتى تتضح له أبعاد الموقف ، ثم ينتقل إلى إيقاف اللعبة بمناورة ، تقتضى الرشاقة فى فن العلاج .

وجوهر هذه الخطوة هو الانتقال إلى التحديد والمواجهة ، وعدم التستر خلف الواجهة الموضوعية الزائفة لإخفاء الحقائق . يطلب الطبيب المعالج من المشاركين فى اللعبة أن يخاطبوا بعضهم باستخدام الضمير (أنت) ، أو (أنا) . وبدلاً من استخدام تعبيرات عائمة مثل «دعنا ننظر فى أمر التى تتصرف على النحو كذا ..» ، يجرى استخدام التعبير المباشر مثل «دعنا ننظر فى تصرفك الذى كان ...» . وبهذا ، يتوقف الزوج والزوجة عن ممارسة لعبة «المحكمة» فى جلسات العلاج الجماعى .

عــائلة اللعبـــة :

وفى بعض الأحيان ، ينتقل الزوجان بعد ذلك إلى ممارسة لعبة

«حبيبتى ..» ، التى ستتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد ، ويعتبر هذا خطوة إلى الأمام فى العلاج .

وفى أحيان أخرى ، يعمد الزوجان إلى ممارسة لعبة «والأكثر من هذا ..» ، وهذا أيضًا يساعد على تطوير العلاج .

فى لعبة «والأكثر من هذا ..» ، يتقدم (الاتهام) بالاتهامات واحدًا بعد الآخر ، ويجيب (الدفاع) عن كل منها بقوله «أستطيع أن أفسر هذا ..» ، إلا أن (الاتهام) لا يلتفت إلى الشرح الذى يقدمه الدفاع ، فبمجرد أن يتوقف (الدفاع) عن الكلام ، ولو للحظة واحدة ، يندفع (الاتهام) إلى سرد تهمة جديدة ، بادئًا الحديث دائمًا بقوله «والأكثر من هذا ...» . وهذه اللعبة تجرى على مستوى (والد ـ طفل) .

ولعبة «الأكثر من هذا ..» ، تجرى بشكل أكثر تكثيفًا ، لو أن (الدفاع) كان من المرضى النفسيين (العصابيين) . هؤلاء يأخذون الأمور أخذًا حرفيًا ، يسهل عليهم إحباط (الاتهام) كلما لجأ إلى التعبير عن نفسه بتعبيرات فكاهية واستعارية . هنا تكون الاستعارة هى الفخ الخطير الذى يجب على ممارس لعبة «والأكثر من هذا ..» أن يتجنبه .

«المـــرأة البـــاردة»

الأرض الخصبة لهذه اللعبة فى معظم الأحيان ، الحياة الزوجية .

يحاول الزوج أن يتقرب من زوجته ، فيقابل بالاعراض . وعندما يكرر محاولاته ، تصيح فيه الزوجة ، قائلة إن الرجال جميعًا وحوش ، وأنه لا يحبها فى الحقيقة لشخصها ، وأن كل ما يهمه منها هو الجنس .

يتوقف الزوج عن محاولاته لبعض الوقت ، ثم يحاول من جديد ، ملاقيًا نفس النتيجة . أخيرًا ، يصرف النظر ، ولا يقوم بأى محاولات أخرى . تمضى الأسابيع والشهور ، فتتزايد الجفوة بينهما ، وربما أصبحت الزوجة فى كثير من الأحيان نسيًا منسيًا بالنسبة للزوج .

هنا ، تبدأ مرحلة جديدة من اللعبة . تسير الزوجة فى حجرة النوم نصف عارية ، أو تنسى (البشكير) عندما تأخذ حمامًا ، فيتحتم على الزوج أن يحضره لها فى الحمام . وإذا كانت الزوجة تميل إلى القسوة فى ممارسة اللعبة ، أو كانت ممن يكثر من شرب الخمر ، عمدت إلى مداعبة بعض الرجال ، خلال الحفلات الاجتماعية ، لكى تثير غيرة الزوج .

فى نهاية الأمر ، يستجيب الزوج لضروب الإثارة هذه ، ويجرب حظه مرة ثانية . ومن جديد تقابله الزوجة بالصدود ، بل إنها تلجأ فى بعض الأحيان إلى ممارسة لعبة «الصراخ» ، التى سنتحدث عنها فيما بعد . وخلال صراخها ، تستعرض من جوانب حياتها ، وتجرى المقارنات مع الحياة الزوجية للأقارب

والأصدقاء. وينتهى هذا الصراخ عادة بصوت أحد الأبواب وهو يصفق فى عنف.

هذه المرة ، يصل الزوج إلى قرار. لقد تأكد الآن أنه قد وقع مع زوجته معاهدة بتحريم الاتصال الجنسى. من الآن وصاعدًا ، يتجاهل الزوج كل مناورات الزوجة من طراز (البشكير) ، فتحاول الزوجة أن تصعد محاولات الإثارة ، لكنه يثبت على موقفه ، متعظًا بخبرته السابقة.

وذات ليلة ، تشرع الزوجة فى ملاعبته وتقبيله بلا مواربة ، ومع هذا لا يستجيب الزوج ، فتواصل الزوجة ملاعباتها الصريحة ، فما تلبث النوازع الطبيعية أن تفعل فعلها بعد فترة طويلة من الحرمان ، ويتأكد الزوج الآن أن الوضع قد اختلف.

محاولات التقرب الأولى التى يقوم بها الزوج لا تقابلها الزوجة بالصدود. وهكذا يصبح أكثر شجاعة. ولكن ، عند النقطة الحرجة بالضبط ، تنفر الزوجة مبتعدة عنه وهى تقول «أرأيت ؟!.. ألم أقل لك ؟.. كل الرجال وحوش.. غاية ما كنت أسعى إليه هو أن نتبادل العواطف الرقيقة الحالمة ، أما أنت فكل ما يعنيك هو الجنس !». ولعبة «الصراخ» المرتبطة بلعبة «المرأة الباردة» تتجه مباشرة فى هذه المرحلة إلى الشكوى من الحالة المالية ، والمشاكل الاقتصادية.

ويجب ملاحظة أنه بالرغم من شكوى الزوج ، فهو يكون عادة كزوجته ، فى حالة خوف من التقارب الجنسى ، وأنه كان قد اختار زوجته بعناية ، حتى يقلل من مخاطر إرهاق قدرته الجنسية المهتزة ، وبحيث يمكنه فى النهاية إلقاء اللوم على الزوجة.

عـلاج اللعبـــة :

نظرًا لخطورة هذه اللعبة ، فاحتمالات علاجها تتسم أيضًا بنفس الخطورة . انتقام الزوج بالدخول فى مغامرة إنشاء علاقات نسائية خارج الحياة الزوجية ، يعتبر تهورًا له عواقبه الوخيمة ، خاصة وإذا كان أوان مثل هذه المناورة قد فات . ومن ناحية أخرى يكون بإمكان الزوجة أن تلجأ إلى القضاء أو تشهر بالزوج فى أوساط العائلة ، ممارسة لعبة «أخيرًا .. أمسكت بك يا ابن الكلاب !.» .

وإذا ما خضع الزوج للعلاج النفسى ، ورفضت الزوجة ذلك ، فإن حصول الزوجة على مكاسب من هذه اللعبة يصبح أقل احتمالاً . فالزوج بعد العلاج يصبح أكثر قوة وثقة بالنفس ، بحيث يتمكن من قيادة العلاقة بينه وبين زوجته فى مسار صحى .

أما إذا كانت الزوجة تمارس اللعبة بقسوة وعنف ، فإن تحسن حالة الزوج نتيجة لدخوله العلاج قد تقود إلى الطلاق .

والحل الأمثل - إذا كان هذا ممكنًا - أن يشارك الزوجان فى جماعة من جماعات العلاج النفسى الجماعى ، حيث تتم تعرية أهداف ومكاسب هذه اللعبة . وهذه الخطوة تصلح كتأهيل للعلاج النفسى الفردى المكثف .

عــائلة اللعبـــة :

ومن عائلة هذه اللعبة ، مقلوبها : «الرجل البارد» ، وهى أقل شيوعًا من اللعبة الأصلية ، ولكنها تتخذ نفس الخطوات ، مع بعض الاختلافات فى التفاصيل . وتعتمد النتيجة النهائية على نوع النص الذى يؤدى وفقه الأطراف المشتركة أدوارهم .

وخط النهاية للعبة «المرأة الباردة» ، هو ظهور لعبة «الصراخ» فما أن تبدأ

هذه اللعبة الجديدة ، حتى يصبح التقارب الجنسى فى خبر كان ، حيث يستعيض الطرفان بالمتعة المستمدة من لعبة « الصراخ » عن متعتهما باللقاء الجنسى . وهذا هو السر فى أن أهم خطوة فى سبيل القضاء على لعبة « المرأة الباردة » ، هو إحباط لعبة « الصراخ » وحرمان اللاعبين من مكاسبها ، بحيث تصبح الزوجة فى حالة عدم إشباع جنسى ، تجعلها فى نهاية الأمر أكثر اذعانًا ورضوخًا .

تحليـــل اللعبـــة .

هذه اللعبة تتم على المستوى الاجتماعى الظاهر من موقف (والد ــ طفل) كالتالى :

الزوجة (والد) : أعطيك الإذن بأن تقبّلنى .

الزوج (طفل) : كم يسرنى أن أفعل ذلك .

الزوجة (والد) : والآن انظر ! . كم أنت شهوانى قذر ! ! .

أما الصيغة السيكلوجية الخفية للعبة ، فتتم من موقف (طفل ــ والد) كالتالى :

الزوجة (طفل) : حاول أن تغوينى أو تثيرنى جنسيًا .

الزوج (والد) : سأفعل إذا حاولت منعى .

الزوجة (طفل) : انظر .. أنت الذى بدأت الأمر ..

« المــتزعجــة »

هذه اللعبة تقوم بها ربة البيت دائـمة الانزعاج والقلق ، والتى تضع نفسها .. فى وضع يتطلب منها أن تكون خبيرة فى عشرات الأعمال المختلفة . إنها تريد أن تكون المرأة الكاملة ، ربة البيت ، والعشيقة ، والمربية ، والطاهية ، الحائكة ، والممرضة .. إلى آخر القائـمة .

والطبيعى أن هذا الحشد من الوظائف يكون عادة مجهدًا ، لتعدده وتناقضه . ومع مرور الأعوام ، يتضاعف إحساسها بالإجهاد ، الذى ينعكس فى ترديدها الدائم نصيحة « كم أنا متعبة ! » .

إذا كانت ربة البيت هذه قادرة على تنظيم خطواتها ، بما يتيح لها تأدية معظم هذه الأعمال ، وكانت تستنبط متعتها من حب وخدمة زوجها وأولادها ، فستمضى فى حياتها الزوجية السعيدة ، حتى تتضاعف متعتها وسعادتها بذهاب أصغر الأبناء إلى الجامعة .

أما إذا كانت ، من ناحية ، غير قادرة على استنباط متعة كافية من حب وخدمة عائلتها ، ومن ناحية أخرى كان (الوالد) فيها قد اختار زوجها بحيث ينتقدها دائمًا ويحاسبها على أعمالها ، فستحاول فى البداية أن تلعب « لو لم يكن من أجل خاطرك » ، أو لعبة « الوصمة » التى سنتعرض لها فيما يلى .. والحقيقة أن الزوجات يلجأن عادة إلى هاتين اللعبتين كلما ساءت أمور حياتهن . ولكن ، فى

حالتنا هذه ، تشعر الزوجة بعد حين أنهما لا تفيان بالغرض ، ويكون عليها أن تتجه إلى لعبة «المنزعجة» .

خطـوات اللعبـة :

مظاهر هذه اللعبة بسيطة . تقبل الزوجة أى عمل يطلب منها أو يعرض لها ، بل ربما تسأل المزيد من الأعمال والتكليفات . وهى تتقبل فى صبر نقد زوجها لها ، وتسرع إلى تلبية كافة مطالب أولادها . إذا ما كان عليها أن تسلى ضيوفها على العشاء ، شعرت أن واجبها يتجاوز الظهور بمظهر المضيفة اللبقة حلوة الحديث ، إلى ضرورة الظهور بمظهر ربة البيت المدبرة ، ومصممة الأزياء الفنانة ، والطاهية الحاذقة ، والمرأة الجذابة ، والدبلوماسية الحصيفة . وهى بالإضافة إلى كل ذلك تتبرع فى صباح اليوم التالى بطهى كعكة خاصة للإفطار ، واصطحاب الصغار إلى طبيب الأسنان .

وكلما أحست ببعض القلق والانزعاج من المسئوليات والأعمال التى تنتظرها ، صممت على أن تجعل يومها أكثر إزعاجًا ، متصدية للمزيد من المسئوليات . وما أن تصل إلى ما بعد الظهيرة ، حتى تنهار تمامًا ، ولا تنجز شيئًا مما وعدت به ، فيخيب أمل الزوج والأولاد والضيوف فيها ، ويتضاعف تأنيبها لنفسها ، وتتزايد تعاستها .

عندما يتكرر هذا الموقف عدة مرات ، تصبح حياتها الزوجية فى خطر ، فترتبك أحوال الأولاد ، وتفقد الكثير من وزنها ، وتروح وتجىء فى بيتها بشعرها المهوش ووجهها الشاحب ، وحذائها المترب . وما أن يمضى بعض الزمن ، حتى تظهر فى عيادة الطبيب على استعداد لدخول المستشفى .

عــلاج اللعبـة :

العلاج يكون بسيطاً إن كان وضع الزوجة لم يتجاوز الشكوى «كم أنا

متعبة ! ». فمن الممكن مساعدتها على تنظيم وقتها ، حتى يمكنها أن تفى بالأعمال التى تتكفل بها على مدى الأسبوع ، وفى حدود المعقول . ويكون عليها أن ترفض القيام بعملين فى آن واحد. عندما تقيم حفل عشاء مثلاً، يكون عليها أن تختار بين دور (المتعهد) الذى يشترى حاجيات الحفل ، وبين (الطاهى) الذى يعد الطعام ، وبين (الجرسون) الذى يقدم الشراب والطعام ، وبين (المضيفة) التى تستقبل الضيوف وتجاذبهم أطراف الحديث .

أما إذا كانت الزوجة تمارس لعبة «المتزعجة» ، فسيكون من الصعب اقناعها بهذا المنطق ، خاصة وأنها كانت قد اختارت زوجها بعناية ، بحيث يلعب فى حياتها دور الرجل العاقل ، الذى يواظب على نقد زوجته ، طالما أنها لا تصل أبدًا إلى نفس مستوى الكفاءة التى يرى بها أمه . والزوجة فى هذه الحالة تتزوج أحلام الزوج عن أمه كما يراها (الوالد) الذى بداخله ، التى تتشابه فى نفس الوقت مع أحلامها عن صورة أمها وجدتها .

عندما تصل إلى الزوج المناسب ، يصبح بإمكان (الطفل) فيها أن يمارس لعبة «المتزعجة» ، وتعتمد على هذه اللعبة فى تحقيق ما تسعى إليه من توازن نفسى . وهكذا ، يصبح من الصعب عليها أن تقلع عن ممارسة اللعبة .

عندما يتأزم الوضع ، بسبب الإجازات المدرسية للأولاد مثلاً ، يجرى استدعاء الطبيب المعالج ، لتتحول «المتزعجة» إلى لعبة ثلاثية . واستدعاء الطبيب يكون ، إما لأن الزوج يريده أن يجرى صيانة شاملة للزوجة ، وإما لأن الزوجة تريده كحليف فى مواجهة الزوج : وما يتم بعد ذلك يتوقف على مدى مهارة الطبيب النفسى المعالج ويقظته .

حالة الاكتئاب التى تعانى منها الزوجة عادة ما يسهل تخفيفها كخطوة أولى . إلا أن الخطوات الحاسمة تحل عندما يحاول الطبيب المعالج أن يدفع الزوجة إلى التوقف عن ممارسة لعبة «المتزعجة» ، لتحل محلها لعبة «الطب النفسى» ،

وهى لعبة سيأتى ذكرها فيما بعد . هذه الخطوة من الطبيب غالبًا ما تقابل بمقاومة متزايدة من الزوجين. وفى بعض الأحيان ، يتمكن الزوجان من إخفاء هذه المقاومة بمهارة ، إلى أن يفاجأ الطبيب يومًا بتفجر هذه المقاومة ، رغم أنه كان يتوقعها . عندما تكشف هذه المقاومة عن نفسها ، يمكن للطبيب النفسى المختص بتحليل الألعاب أن يواصل باقى مراحل العلاج .

من الضرورى التأكيد على أن المذنب الحقيقى فى هذه اللعبة هو (الوالد) داخل الزوجة ، سواء استمد عناصره من أمها أو جدتها ، ويكون دور الزوج أقل أهمية وفعالية . ولا يقتصر دور الطبيب على مناهضة (الوالد) داخل الزوجة ، أو مقاومة الزوج الذى يحلو له أن يستثمر استمرار اللعبة ، بل يتعدى ذلك إلى دراسة الظروف الاجتماعية للأسرة ، التى تشجع الزوجة على الشكوى وتقودها إلى ممارسة اللعبة .

ومن المصاعب التى يواجهها المعالج عند تناوله للحالات التى تمارس هذه اللعبة ، ميل الزوج إلى تجنب المشاركة الشخصية فى إجراءات العلاج ، لأنه فى واقع الأمر يكون ضالعًا فى لعبة «المنزعجة» بأكثر مما يبدى . وخلال العلاج ، تراه يرسل إلى الطبيب المعالج الرسائل غير المباشرة ، عن طريق انفجاراته العصبية المتكررة ، التى يعلم مسبقًا أنها ستصل إلى الطبيب عبر الزوجة .

هنا ، نصل إلى الدرجة الثالثة من لعبة «المنزعجة» ، حيث يتم صراع حياة أو موت ، من أجل الطلاق ، وعند هذا المستوى ، يكون الطبيب المعالج وحيدًا ، لا يسانده سوى (البالغ) فى الزوجة . هذا (البالغ) فى الزوجة يقتصر على الدخول فى عراك مميت مع (الطفل) و (البالغ) و (الوالد) فى الزوج ، لكنه يشتبك أيضًا مع (الطفل) و (الوالد) فى الزوجة شخصيًا .

«انظر ، كم أحاول بجد»

هذه لعبة ثلاثية الأدوار ، يقوم بها الزوج والزوجة والطبيب النفسى . الزوج يسعى إلى الطلاق ، رغم اعلانه الصارخ بعكس هذا ، بينما تكون الزوجة مخلصة فى عزمها على مواصلة الحياة الزوجية . يأتى الزوج إلى الطبيب النفسى محتجًا فى أول الأمر ، لكنه يتكلم كثيرًا وبإسهاب ، حتى يظهر أمام الزوجة بمظهر المتعاون الراغب فى حل المشاكل واستمرار الحياة الزوجية ، فى هذه الحالة يمارس الزوج عادة لعبة «الطب النفسى» ، أو لعبة «المحكمة» .

ومع مرور الوقت يكتشف الطبيب فى الزوج ، إما تذمرًا متزايدًا ، أو إذعانًا كاذبًا ، أو شغفًا بالمناقشة العدوانية معه . أما فى البيت ، فيبدى مزيدًا من التفهم والخضوع للزوجة إلاّ أنه فى النهاية ، يتصرف بشكل يتناقض مع هذا كله ، فبعد زيارة أو عدة زيارات لطبيب (ووفقًا لمهارة الطبيب) ، يرفض الذهاب إلى جلسات العلاج النفسى ، ويفضل عليها تمضية الوقت فى أى تسلية أخرى ، مما يدفع الزوجة إلى قبول الطلاق .

الزوج الآن لا يستحق اللوم ، فهو قد أظهر حسن نيته وتعاونه بالذهاب مع الزوجة إلى الطبيب النفسى ، كما أن الزوجة هى التى طلبت الطلاق . لقد أصبح فى موقف ممتاز ، يسمح له بأن يقول للقاضى أو الصديق أو القريب «انظر ، كم حاولت بجد» .

عـلاج اللعبـة :

علاج هذه اللعبة يحتاج إلى خطة دقيقة ، تبدأ بمقابلة الطبيب النفسى للزوجين معًا ، فإذا كان الزوج هو الذى يمارس اللعبة ، يقتصر الطبيب فى الجلسات التالية على علاج الزوجة ، مع إهماله لأمر الزوج ، على اعتبار أنه أقل خضوعًا للعلاج النفسى من الزوجة . ورغم أن الزوج بهذه الطريقة يبقى قادرًا على الطلاق ، لكنه ـ على الأقل ـ لن يستطيع أن يدّعى أنه حاول جدّيًا منع الطلاق .

كما يمكن للزوجة أن تطلب هى الطلاق ، إذا كان هذا ضروريًا لصالح الطرفين ، إلا أن موقفها سيكون أفضل من موقف الزوج ، حيث أنها حاولت فعلاً الحفاظ على حياتهما المشتركة .

الحكمة فى هذه الخطة ، أن الزوج الذى سيعانى من إحساس باليأس نتيجة لحرمانه من ممارسة اللعبة ، سيمضى باحثًا عن علاج لحالته فى مكان آخر ، ولكن بدوافع حقيقية هذه المرة .

وتجرى هذه اللعبة فى شكلها اليومى كلعبة ثنائية بين الصغير وأحد أبويه : وينطلق الصغير فى ممارسته لهذه اللعبة من موقفين «أنا ضعيف بلا عون ..» ، أو «لا يمكن أن يلومنى أحد» . هذا الصغير يحاول ، لكنه يفشل ، فإذا كان ينطلق من موقف «أنا ضعيف بلا عون ..» يكون على الأب أن يشاركه ممارسة اللعبة . وإذا كان ينطلق من موقف «لا يمكن أن يلومنى أحد» لا يكون لدى الأب سبب معقول لعتابه ، وعلى الأبوين إذا ما اكتشفا ممارسة الابن أو الابنة لهذه اللعبة ، أن يبحثا بأمانة ، أيا منهما لقن الابن أو الابنة هذه اللعبة ، وما هو الذى يفعلانه مما يسمح لهذه اللعبة أن يطول أمدها .

* * *

وهناك تنويع مثير لهذه اللعبة ، يتسم فى أغلب الأحيان بالشر والنية الخبيثة ، هو لعبة «انظر ، كم كنت أحاول بجد» . وهذا التنويع يعتبر لعبة قاسية من الدرجة الثانية أو الثالثة .

فى المثال التالى نستعرض حالة رجل دءوب فى عمله . مصاب بقرحة المعدة .

الدرجـــة الأولى :

يعلن الرجل أمام زوجته والأصدقاء أنه أصيب بقرحة المعدة . وهو يحرص على إعلامهم بأنه مازال يواصل العمل بنفس المعدل الذى كان يلتزمه ، وهو بهذا يبتز اعجابهم . فالشخص الذى يعانى من الألم ، أو من الظروف السيئة ، يكون من حقه أن يمارس قدرًا من المباهاة ، كتعويض عن معاناته . ويتوقع أن يتلقى مجاملة ضمنية تحمل معنى «نعم .. كلنا معجبون بتضحيتك ونكرانك لذاتك» .

الدرجـــة الثانيـــة :

يعرف الرجل أنه مصاب بالقرحة ، ولكنه يحتفظ بالخبر لنفسه ، ولا يخطر به الزوجة أو الأصدقاء ، ويواصل العمل والقلق بطريقة أكثر تكثيفًا مما سبق . وفى أحد الأيام ، يسقط فى مكتبه . وعند اخطار الزوجة بحالته ، تتلقى فى نفس الوقت رسالته الضمنية «انظرى ، كم كنت أحاول بجد» . وهنا ، يصبح على الزوجة أن تبالغ فى تقديره بأكثر مما فعلت فى أى يوم من الأيام . وأن تكون آسفة على جميع الأعمال الوضيعة التى فعلتها معه فى الماضى . باختصار ، يصبح من المفترض الآن أن تغرقه فى حبها ، فكل الطرق السابقة التى لجأ إليها حتى يستميل الزوجة ويحظى بحبها قد فشلت .

ولحظ الزوج السيئ ، تكون جميع مظاهر الود والاعجاب التى تبديها

الزوجة فى هذه المرحلة بدافع الإحساس بالذنب ، أكثر من كونها بدافع الحب . هذا بالإضافة إلى أن الزوجة تشعر فى أعماقها بالاستياء منه ، لأنه قد استخدم ضدها ، عنصر إرغام قوى لا يتصف بالعدل . كما أن إصراره على إخفاء خبر مرضه منذ البداية ، قد اكسبه تميزًا غير عادل أو أمين عليها .

وواقع الأمر ، أن خاتمًا هدية يكون أداة أكثر فى التقرب إلى الزوجة من معدة مصابة . وهو يدرك هذا ، إلا أنه يدرك فى نفس الوقت أنه إذا كان بإمكانها أن تلقى فى وجهه بالخاتم الهدية ، فهى لن تستطيع أن تهجره بعد إصابته بقرحة المعدة . والزوجة ــ من جانبها ــ تشعر أن مفاجأته لها بالمرض خديعة تدخلها إلى الفخ ، أكثر منها وسيلة لكسبها والتقرب منها .

وغالبًا ما يتم اكتشاف هذه اللعبة ، بمجرد أن يسمع المريض أن هناك احتمالاً كبيرًا لأن تسوء حالته ، ولأن يستفحل المرض . وحتى إذا كانت لديه نية مواصلة اللعبة ، فالوضع بأكمله سيلتمع فى عقله ، ويصبح بإمكان طبيب نفسى حريص أن يشفيه من دوافع هذه اللعبة .

الدرجة الثالثة :

وفيها يكون الانتحار المفاجئ للزوج نتيجة لمرضه الخطير ، مظهرًا أشد شرًا وحقدًا .

القرحة تتطور إلى سرطان . وذات يوم ، تدخل الزوجة ــ التى لم تكن لديها فكرة عن مرضه ــ إلى الحمام ، لتجد زوجها مطروحًا على الأرض ، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة ، تاركًا رسالته الخالدة إليها «انظرى ، كم كنت أحاول بجد » .

«حبيبتى ..»

يتم اكتشاف هذه اللعبة فى أوضح أشكالها خلال المراحل الأولى من جلسات العلاج النفسى الجماعى ، خاصة عندما يميل الطرفان إلى اتخاذ موقف دفاعى ، كما يمكن أيضًا تتبع اللعبة فى اللقاءات الاجتماعية .

الزوج يبدى باتزان بعض الملاحظات المهينة عن زوجته ، فى شكل حكاية طويلها يختمها بقوله «أليس هذا صحيحًا .. يا حبيبتى ؟» . عادة ما تميل الزوجة إلى التأمين على أقوال الزوج ، لسببين :

أولاً :لأن الحكاية التى رواها الزوج تكون بالفعل صحيحة فى جوهرها . ورغم أنه جعلها تبدو أكثر إهانة ببعض التفاصيل الفرعية التى أضافها للحكاية الأصلية . فاعتراضها على هذه التفاصيل مع اعترافها بالجوهر ، سيجعلها تبدو سخيفة أمام الآخرين .

ثانيًا : لأنه سيبدو غريبًا أن ترفض كلام الرجل الذى يناديها أمام الناس بقوله «يا حبيبتى» .

والدافع السيكلوجى لموافقتها ــ على أى حال ــ هو احساسها بالاكتئاب . فهى قد تزوجته بالذات ، دون غيره. من الرجال ، لأنها عرفت قدرته على تقديم خدمة خاصة لها . فهو باستعراضه لنواقصها ، يعفيها من أن تضطر إلى القيام بهذه المهمة بنفسها خاصة وأن والدها قد تعود على أن يؤدى لها هذه الخدمة عندما كانت صغيرة .

وهذه اللعبة تلى لعبة «المحكمة» ، من حيث الشيوع فى الحياة الزوجية. وبقدر تأزم الموقف ، وبقدر اقتراب الزوج فى حكايته من التفاصيل الدقيقة لحياتهما الزوجية ، تكون مرارة نداء «يا حبيبتى» فى أذن الزوجة ، تلك المرارة التى لا تتبدد إلا عندما تتضح لها طبيعة اللعبة.

عــلاج اللعبــة :

الملاحظة الدقيقة تظهر لنا وجه الشبه بين هذه اللعبة ، ولعبة «المكّار» ، التى سنتعرض لها فيما بعد بالتفصيل. فالحركة المميزة فى هذه اللعبة ، هى التى تحصل فيها الزوجة على الغفران من زوجها ، بحديثه عن نواقصها التى تميل إلى تجاهلها واغماض العين عنها.

من واقع هذا التشابه ، يكون أسلوب العلاج وإيقاف اللعبة فى حالة «حبيبتى» موازيًا لأسلوب العلاج فى لعبة «المكّار». وفيه تقول الزوجة تعقيبًا على حكاية الزوج «يمكنك أن تحكى قصصك المهنية عنى ، لكن أرجوك ألاّ تدعونى حبيبتك !». هذا العلاج يحمل نفس مخاطر العلاج الموازى فى لعبة «المكّار» ، إلا أن خطوة الزوجة الأيسر عواقبًا والأكثر تحضرًا تكون باستجابتها قائلة «بالضبط .. يا روحى !».

ومن أساليب وقف اللعبة ، أن تعقب الزوجة على حكاية الزوج ، بحكاية أخرى عن نواقص الزوج ، بحيث تنهى حكايتها قائلة له «أليس هذا أيضًا صحيحًا .. يا حبيبى ؟». وهى بهذا توجه إليه رسالة ضمنية تقول «وأنت أيضًا يا عزيزى لك نفس الوجه القبيح !».

وهناك نوع آخر من لعبة «حبيبتى» يوصف بأنه النوع الصامت ، حيث لا يتم نطق ألفاظ التحبب صراحة ، لكن المستمع الحصيف يمكنه أن يشعر بها واضحة فى خفايا حديث الزوجين.

الفصل السادس

ألعاب الحفلات

ألعـــاب الحفـــلات

الغرض الأساسى من الحفلات هو تمضية الوقت بشكل لطيف ، ولكن مع تعمق التعارف يبدأ ظهور الألعاب . «المكّار» وضحيته يتعرفان على بعضهما ، وعلى إمكانية ممارسة اللعبة . والألعاب التى تندرج تحت فصيلة ألعاب الحفلات هى :

* «أليس هذا فظيعًا ؟!» .
* «الوصمة» .
* «المكّار» .
* «لماذا لا ... ، نعم ولكن ...» .

«أليس هذا فظيعًا ؟! »

تشيع هذه اللعبة بين الناس على أربعة أشكال : كتسلية من موقف (الوالد) ، وتسلية من موقف (البالغ) ، وتسلية من موقف (الطفل) .. ثم أخيرًا كلعبة .

وهى كتسلية لا تحقق لمارسها كسبًا أو عائدًا دفينًا ، كما فى حالة اللعبة .

أولاً : «هذه الأيام» :

بهذا يسمى نمط التسلية من موقف (الوالد) . وتشيع هذه التسلية بين نوع معين من نساء الطبقة المتوسطة ، يتميزن بالدخل المحدود . تقول المرأة لصاحباتها «لا عجب إذا لم نجد من نثق فيه هذه الأيام .. كنت أبحث عن شيء فى الدولاب ، ويمكنكن تصور ما وجدت فى الدرج ... إلى آخر هذا الحديث» .

والمرأة التى تمارس هذه التسلية لديها إجابة شافية على معظم التساؤلات الجارية فى المجتمع : عن التدليل الزائد (الآباء أصبحوا فى منتهى الضعف «هذه الأيام») ، وعن الطلاق (الزوجات لم يعد لديهن ما يشغلهن «هذه الأيام») ، وعن الجريمة (الأغراب الذين يحومون حول البيوت «هذه الأيام») ، وعن ارتفاع الأسعار (الخلل الاقتصادى الذى وصلنا إليه «هذه الأيام») .

ثانيًا : «الجــراحـة» :

بهذا يسمى نمط التسلية من موقف (البالغ) . هذا النوع من التسلية يتسم بتدفق بحور من الدماء !.

غالبًا ما تتم هذه التسلية فى حجرات الانتظار داخل عيادات الأطباء ، وتبلغ قمة دمويتها فى عيادات الجراحين .

يبدأ أحد الحاضرين بسرد تفاصيل جراحة من الجراحات ، وكلما كانت التفاصيل أكثر إيلامًا كلما كانت أقرب إلى النجاح ، فمن خصائص هذه التسلية الاهتمام البالغ بالتفاصيل الدقيقة المخيفة . وما أن ينتهى الأول من حكايته ، حتى تتوالى الحكايات من باقى الموجودين فى حجرة انتظار الجراح ، عن بتر أعضاء ، وفتح رأس ، وعمليات قيصرية .. إلى آخر القائمة .

ثالثًا : «فــترة الـراحــة» :

بهذا يسمى نمط التسلية من موقف (الطفل) . وتحمل هذه التسلية شعار «انظر ماذا يفعلون بنا الآن !» . وهى تسلية تجرى فى المؤسسات التى يسود فيها الظلم . وهى تسلية أركانها ثلاثة : المتحدث والمستمع و «هم» ، والضمير ينسحب على المؤسسة أو الدولة .

رابعًا : «أليس هذا فظيعًا ؟!» :

بهذا تسمى اللعبة ، وهى تتحقق بشكل ظاهر لدى مدمنى اجراء الجراحات . وتعاملاتهم تكشف بوضوح خصائص هذه اللعبة .

الذين يلعبون «أليس هذا فظيعًا ؟» ، يغلب أن يكونوا من الزبائن الدائمين للأطباء ، الذين يبحثون بنشاط عن فرصة اجراء جراحة لهم حتى فى وجه معارضة الأطباء . وهم يستنبطون متعتهم من المحاولة ذاتها ، ومن

الجراحة ، ومن الإقامة الممتدة فى المستشفى .

وهذه اللعبة تستمد مزاياها السيكلوجية الداخلية من تحقيق الرغبة فى تشويه الجسد . أما المزايا السيكلوجية الخارجية (أى التى تتصل بالناس) فتأتى من تجنب أى شكل من أشكال الألفة ، وتجنب جميع المسئوليات ، بالاستسلام الكامل للجراح .

«أليس هذا فظيعًا ؟!» ، لا تصبح لعبة عندما يكشف ممارسها عن شعور بالمرارة ، ولكن عندما يضمر استمتاعه الذى يستمده من سوء حظه .

* * *

والذين يعانون من سوء الحظ يمكن تصنيفهم فى ثلاث فئات :

١ ـ الذين لا يهتمون بالمعاناة ، ولا يريدونها ، وهؤلاء قد يستثمرون العطف الذى يقدم إليهم طواعية ، وقد لا يستثمرونه .. وهذا وضع أقرب إلى أن يكون طبيعيًا ، ويقتضى الرفق فى المعاملة .

٢ ـ الذين لا يهتمون بالمعاناة ، ولكنهم يتقبلونها بامتنان ، بسبب احتمالات الاستمتاع بالعطف الذى يتلقونه نتيجة لها .. وهنا ، تكون اللعبة فى المقام الثانى (أى أن مكسب الذى يمارسها يعتبر مكسبًا ثانويًا) .

٣ ـ الذين يبحثون عن المعاناة ، مثل مدمنى الجراحة الذين يتنقلون من جراح إلى آخر ، حتى يعثروا فى النهاية على الجراح الذى يقبل إجراء العملية لهم . وفى هذه الحالة تحتل اللعبة المقام الأول .

«الوصمة»

تعتبر هذه اللعبة مصدرًا لنسبة عالية من المخاصمات الخفيفة فى حياتنا اليومية . وتتم ممارستها من موقف (الطفل) المكتئب ، الذى يقول لسان حاله «أنا لا أصلح لشىء» . ولتغطية هذا الموقف تتم ممارسة اللعبة من موقف (الوالد) ، الذى يقول لسان حاله «إنهم لا يصلحون لشىء» . وتصبح مشكلة الذى يمارس هذه اللعبة فى معاملاته مع الآخرين أن يثبت الافتراض الأخير .

ولهذا فممارس لعبة «الوصمة» لا يشعر بالارتياح مع شخص يتعرف به لأول مرة ، إلا حين يكتشف هذا الشخص وصمته .

ويمكن أن تصبح هذه اللعبة ، فى شكلها القاسى ، لعبة سياسية دكتاتورية ، تلعبها الشخصيات السلطوية ، بهذا قد تصبح لها اصداء تاريخية جادة . كما أن الثقة بالذات التى تحققها هذه اللعبة لممارسها تتسم بالسلبية ، لأنه يعتمد على اكتشاف وصمات الآخرين ، وليس وصمته هو .

ومنطلقات هذه الممارسة تمتد على نطاق واسع ، من أكثر المنطلقات تفاهة وغرابة «إنه يرتدى طرازًا قديمًا من السترات» ، وأكثرها سخرية «بعد كل هذا العمر لم يصل رصيده إلى عشرة آلاف جنيه» ، أو شرًا مثل «لا يستطيع أن يثبت نقاء سلالته» ، إلى أكثرها ترفعًا «لم يقرأ فلسفة سارتر» ، أو خصوصية

«إنه فاقد القدرة الجنسية» ، أو سفسطة «ليتنى أعرف ما الذى يسعى إلى إثباته» .

ومن وجهة نظر الآليات السيكلوجية ، تقوم هذه اللعبة عادة على عدم الأمان الجنسى ، وهدفها هو استعادة الثقة . ومن وجهة نظر تحليل التعاملات ، تقوم اللعبة على التطفل والفضول المرضى والتلذذ بمراقبة الآخرين ، يحدث هذا أحيانًا تحت شعار اهتمام خيرى من موقف (الوالد) و (البالغ) يغطى استمتاع (الطفل) .

المكسب السيكلوجى الداخلى هو التحلل من الاكتئاب ، أما المكسب السيكلوجى الخارجى فهو تجنب التآلف الذى قد يقود إلى كشف ممارس اللعبة عن وصمته . وممارس اللعبة يشعر بعدالة موقفه عندما ينتقد أصحاب الطرز القديمة أو الذى لم يقرأ فلسفة سارتر أو من يكون فاقدًا القدرة الجنسية . هذا بالإضافة إلى أن التطفل على الآخرين يوفر تحركًا اجتماعيًا داخليًا له فوائده البيولوجية .

« المكّار »

تتبع حركات هذه اللعبة النسق التالى :

الضيف (حركة أولى) : يقلب ممارس لعبة « المكّار » قدح الشاى على رداء المضيف .

المضيف (حركة أولى) : يستجيب المضيف تلقائيًا بالغضب ، ولكنه يشعر (غالبا بشكل غامض) أنه إذا ما أظهر غضبه ، سيكسب الضيف المعركة . وعلى هذا يتماسك المضيف مخفيا مشاعره ، مما يعطيه إحساسا وهميا بالانتصار .

الضيف (حركة ثانية) : يقول الضيف « أنا آسف » .

المضيف (حركة ثانية) : يغمغم المضيف بالعفو ، أو يعلنه بصوت مرتفع ، داعما إحساسه الذاتى بالانتصار .

الضيف (حركة ثالثة) : يتابع الضيف بعد ذلك القيام بإتلاف أشياء أخرى فى بيت المضيف ، يكسر شيئا أو يسكب شيئا ، خالقا الاضطراب من كل نوع . فبعد أن تحرق سيجارته مفرش المائدة ، يمزق رجل المقعد الذى ينقله الستار الرقيق الخاص بالشرفة . (الطفل) فى الضيف ، قد عمه السرور ، وحقق أقصى متعته بالأفعال التى قام بها ، ثم هو قد حظى بالغفران فى كل حالة . أما المضيف فقد قدم عرضا ممتازا ، فى قدرته على تحمل معاناة ضبط النفس . وبهذا يكون كل منهما قد استفاد من هذه المناسبة غير السعيدة . وفى

غالب الأحيان ، لايسعى المضيف إلى إنهاء هذه الصداقة ، أو العلاقة .

مكسب اللعبة :

كما فى جميع الألعاب ، اللاعب الذى يبدأ الحركة الأولى ، هو الذى يكسب بصرف النظر عن المسار الذى تمضى فيه اللعبة .

إذا أظهر المضيف غضبه ، يشعر ممارس اللعبة (أى الضيف) بعدالة موقفه إذا ما قام برد اللطمة . وإذا أمسك المضيف بأعصابه ، يمكن للضيف أن يستمر فى نشاطه مستمتعا .

العائد الأساسى من هذه اللعبة ، أو مكسبها ، ليس هو التخريب الذى يقوم به الضيف والذى هو فى حد ذاته مكسب إضافى ، إنما هو حصول ممارس اللعبة ، أو الضيف ، على العفو والغفران فى نهاية الأمر .

علاج اللعبة :

علاج هذه اللعبة يكون بعدم تقديم الغفران أو العفو ـ بعد أن يقول ممارس اللعبة فى أعقاب إحدى عملياته التخريبية « أنا آسف » ، على المضيف ، بدلا من أن يغمغم بالعفو ، أن يقول للضيف بحسم « اسمع .. يمكنك الليلة أن تحطم أثاث بيتى ، وتمزق ستائرى .. ولكن أرجوك ألا تردد (أنا آسف) هذه ! ... » بهذا ينتقل المضيف من (والد) متسامح ، إلى (بالغ) موضوعى يتحمل كافة المسئوليات الناشئة عن دعوته هذا الضيف إلى بيته .

مدى ثقل وكثافة اللعبة التى يمارسها الضيف، يمكن أن يتم الكشف عنه فى أعقاب هذا النوع من الرد من جانب المضيف . والأغلب أن يجىء رد الفعل متفجرا ، فالذى يتدخل لإيقاف مسار هذه اللعبة ، يدخل فى مغامرة أكيدة ، غالبا ماتتضمن اندفاع الخصم إلى تحرك سريع للأخذ بالثأر . وفى أبسط الأحوال وأقلها فداحة ، يكتسب عداوة ممارس اللعبة .

* * *

الأطفال ، عندما يبدأون فى ممارسة لعبة « المكّار » ، يكتفون فى أول الأمر بالحصول على الاستمتاع بخلق الفوضى ، إلا أنهم سرعان مايتدربون على التكيف الاجتماعى ، الذى يتيح لهم أن يحصلوا آخر الأمر على الغفران الذى هو المكسب الأساسى للعبة .

على المستوى الاجتماعى الظاهر ، تتم اللعبة من موقف (بالغ ـ بالغ) على الصورة التالية :

الضيف (بالغ) : طالما أننى مؤدب يجب عليك أنت أيضا أن تكون مؤدبا .

المضيف (بالغ) : هذا حسن .. إنى أغفر لك .

أما على المستوى السيكلوجى الخفى ، فتتم من موقف (طفل ـ والد) كما يلى :

الضيف (طفل) : عليك أن تغفر لى الأفعال التى أقوم بها طالما أنها تبدو عرضية .

المضيف (والد) : أنت على حق ، يجب أن أعطيك نموذجا لما تكون عليه الأخلاق الطيبة .

« لماذا لا ... نعم ولكن »

هذه اللعبة تحتل مكانة خاصة فى تحليل الألعاب ، لأنها كانت الظاهرة الملفتة التى نبهت المختصين إلى الألعاب . لقد كانت أول لعبة يتم اقتطاعها من سياقها الاجتماعى ، ووضعها تحت مجهر البحث السيكلوجى . لهذا السبب ، تعتبر أكثر الألعاب وضوحا وهى أيضا أكثر الألعاب تداولا فى الحفلات واللقاءات الاجتماعية ، وكذلك فى تجمعات العلاج النفسى الجماعى .

المثال التالى يوضح اللعبة :

اللاعبة : يصر زوجى دائما على أن يقوم بأعمال النجارة المنزلية بنفسه ، ومع ذلك لم يحدث أن أتم عملا واحدا بشكل سليم .

امرأة (١) : لماذا لايأخذ دروسا فى أعمال النجارة ؟.

اللاعبة : نعم ولكن .. ليس لديه الوقت الكافى لذلك .

امرأة (٢) : لماذا لاتشترين له أدوات النجارة الحديثة التى تسهل العمل ؟.

اللاعبة : نعم ولكن .. من أين له أن يعرف كيفية استخدامها ..

امرأة (٣) : لماذا لاتكلفين أحد النجارين المحترفين بهذه الأعمال ؟.

اللاعبة : نعم ولكن .. سيكلف هذا كثيرا .

امرأة (٤) : لماذا لاتقبلين مايفعله زوجك ، وبالطريقة التى يفعله بها ؟.

اللاعبة : نعم ولكن .. هذا يعنى أن كل شىء من حولنا سيتساقط .

* * *

مثل هذا الحوار ، غالبا من ينتهى بلحظة صمت هذا الصمت قد تقطعه امرأة (٥) قائلة شيئا ما مثل « هكذا الرجال بالنسبة لنا دائما ، يسعون إلى إظهار تفوقهم علينا بسبب وبدون سبب » .

ولعبة « لماذا لا .. نعم ولكن ... » ، يشارك فى لعبها أى عدد من الأشخاص . اللاعب يطرح مشكلة ، فيبدأ الآخرون فى تقديم الحلول .. كل حل يبدأ بقول « لماذا لا .. » ، ويرد اللاعب فى كل مرة « نعم ولكن ..» .

الممارس الماهر لهذه اللعبة يستطيع أن يستمر فيها لأطول مدى ، وحتى يستسلم جميع الموجودين مما يعنى انتصاره عليهم . وفى كثير من الأحيان ، تحتاج اللعبة إلى عشرة اقتراحات أو أكثر قبل الوصول إلى لحظة الصمت المطلوبة ، والتى تعنى انتصار ممارس اللعبة .

وممارس اللعبة يرفض ، فيما عدا حالات نادرة ، كل الحلول والاقتراحات المطروحة عليه من الآخرين ويحاول أن يفندها . وهذا يوضح مالهذه اللعبة من أهداف خبيثة .

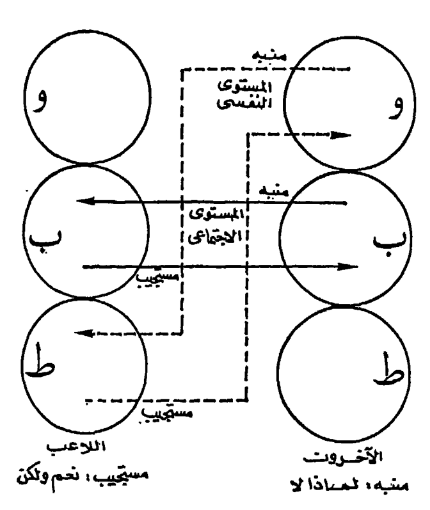
تحليل اللعبة :

هذه اللعبة لاتتم سعيا وراء الأغراض الظاهرة لها ، « طلب (البالغ) حلا لمشكلة ، أو معلومات حول موضوع » . ولكنها تتم بهدف تأمين وامتاع (الطفل) فى اللاعب .

النص الصريح للعبة ، قد يوحى بأنها تتم من موقف (البالغ) ، ولكن المتأمل للنسيج الحى للعبة ، يمكنه ملاحظة أن الزوجة تلعبها من موقف (الطفل) القاصر عن مواجهة الموقف ، بينما تلعبها الأخريات من موقف

(الوالد) الذى لايدخر جهدا ، فى تقديم خبرته لممارس اللعبة .

فاللعبة على المستوى الاجتماعى المعلن تتم من موقف (بالغ - بالغ) . وعلى المستوى السيكلوجى الخفى تتم من موقف (طفل - والد) - وعادة مايكون المستوى السيكلوجى للعبة خافيا على الذين يمارسونها ، فتمضى حركاتها بطريقة لاشعورية (انظر شكل ٨) .



"لماذا لا "،نعـم ولكن"
شكل (٨)

ظة التحول الشعورى للأطراف الداخلة فى اللعبة (البالغ فى الزوجة إلى طفل ، والبالغ فى الآخرين يتحول إلى والد) ، لحظة التحول هذه ، يمكن للملاحظ المدقق أن يكتشفها ، عن طريق التغير الذى يحدث فى الإيماءات والحركات والطبقات الصوتية ، والمفردات المستخدمة فى الحديث .

من أجل كشف الوجه الخفى لهذه اللعبة ، يسأل الطبيب الزوجة .

الطبيب : هل طرحت إحدى الحاضرات اقتراحا لم تفكرى فيه من قبل ؟.

الزوجة : لا .. لم يحدث ، بل واقع الأمر أننى جربت تقريبا كافة الاقتراحات التى طرحوها فاشتريت له أدوات نجارة حديثة ، ودفعته إلى أخذ دروس فى النجارة .

رد الزوجة يعطى سببين لعدم أخذ اللعبة على وجهها الظاهر .

أولهما ، كون اللاعب على نفس مستوى ذكاء المشاركين فى اللعبة ، ومن ثم يصبح بعيدا عن الاحتمال أن يقترح واحد منهم حلا لم يصل إليه ممارس اللعبة من قبل . وهذا لايمنع أنه يحدث فى بعض الأحيان أن يتقدم أحد المشاركين فى اللعبة باقتراح جديد مبتكر للمشكلة ، فإذا كان ممارس اللعبة يمارسها بأمانة (وهذا مالايحدث فى أغلب الأحيان) ، سيجد نفسه مضطرا لقبول هذا الحل ، بمعنى أن (الطفل) العاجز فى الزوجة ، سيتخلى عن تحكمه فى الموقف ، مخليا السبيل (للبالغ) ، بعد ظهور الفكرة المبتكرة .

ومن ناحية أخرى ، يكون القبول العاجل للاقتراحات من جانب الزوجة ، يثيرا للتساؤل فيما إذا كانت تخفى عزمها بالانتقال إلى لعبة أخرى اسمها « الغبى » ، سيأتى ذكرها فيما بعد . والمثال المذكور للحوار بين الطبيب والزوجة ، يصور بوضوح الجانب الخفى الثانى للعبة . لقد حاولت الزوجة بالفعل بعض الاقتراحات التى طرحتها النساء عليها ، لكنها مازالت تعترض

على هذه الاقتراحات وترفضها . فالهدف من اللعبة إذا ، ليس الحصول على اقتراحات ، بقدر ماهو الاعتراض على هذه الاقتراحات .

بينما يكون من المحتمل أن يلعب أى واحد منا هذه اللعبة ، فى ظروف مناسبة ، وكوسيلة لشغل الوقت ، فالدراسة المتأنية للأشخاص الذين يفضلون هذه اللعبة ويمارسونها دائما ، تكشف عدة ملامح مثيرة للانتباه .

أولا ، قدرتهم على لعب الأدوار المختلفة للعبة ، بنفس السهولة واليسر وهذا التنقل بين الأدوار المختلفة سمة عامة من سمات الألعاب . قد يفضل اللاعب دورا حصينا على باقى الأدوار بحكم العادة لكنه يكون قادرا ــ إذا اقتضى الأمر ــ أن ينتقل من دور إلى آخر فى نفس اللعبة .

ثانيا ، لوحظ فى عيادات الطب النفسى ، أن الذين يمارسون لعبة « لماذا لا .. نعم ولكن .. » ينتسبون إلى فئة من المرضى النفسيين ، تتطلب حالتهم فى أغلب الأحيان التنويم المغناطيسى أو التنويم بالحقن ، كوسيلة للاسراع بالعلاج . فجوهر لعبتهم هو التأكد من عدم قدرة الآخرين على الوصول إلى حلول تقنعهم ، الذى يعنى بدوره رفضهم الخضوع . إلا أنهم عندما يتعاملون مع الطبيب النفسى ، يطالبون بإجراء يجعلهم فى حالة خضوع كامل .

هذا يعنى أن اللعبة تمثل حلا اجتماعيا ظاهرا ، لصراع خفى حول الرغبة فى عدم الخضوع . والخوف المرضى من الخجل والمواقف المخجلة هو الدافع غالبا إلى هذه اللعبة ، وهو مايؤكده هذا الحوار الذى جرى بين الطبيب النفسى والزوجة أثناء العلاج .

الطبيب : لماذا تلعبين لعبة « لماذا لا .. نعم ولكن .. » ، إذا كنت تعرفين حقيقتها ؟.

الزوجة : عندما أتحدث مع إنسان ، أظل أفكر فى الأشياء التى سأقولها . وإذا لم أنجح فى العثور على موضوع للحديث ، يصيبنى الخجل . أنا لا أتحمل

فترات السكوت . أنا أعرف هذا ، وزوجى يعرفه ، وطالما كاشفنى بهذه الحقيقة .

الطبيب : معنى هذا أن (البالغ) عندك إذا لم يكن فى حالة نشاط ، فإنه يفتح السبيل أمام (الطفل) كى يقفز إلى السطح ، ويسبب لك الارتباك .

الزوجة : الأمر كذلك فعلا . عندما أواصل تقديم الاقتراحات للإنسان ما ، أو عندما أدفعه إلى أن يقدم لى اقتراحاته ، أكون بخير ، وأشعر بالحماية . وكلما تمكنت من ابقاء (البالغ) داخلى فى عالم تحكم ، أمكننى أن أؤجل فترة الارتباك ..

مكاسب اللعبة :

أظهرت الزوجة فى حوارها هذا أنها تخاف الوقت الخالى ، غير المشغول . لأن (الطفل) داخلها يحال بينه وبين الاعلان عن نفسه وممارسة ألاعيبه ، طالما أن (البالغ) يظل منشغلا بموقف اجتماعى . واللعبة تقدم شغلا مناسبا لوظيفة (البالغ) . وهذه اللعبة لا تحقق مكسبها إلا إذا أديرت بشكل مناسب .

واختيار الزوجة لهذه اللعبة قد تم وفق قاعدة اقتصادية : الحصول على أكبر مكاسب داخلية وخارجية من صراع (الطفل) الذى بداخلها .

وهى قادرة أن تلعب بحماس متكافئ ، إما دور (الطفل) المشاغب الذى يصعب اخضاعه ، أو (الوالد) العاقل الذى يحاول أن يتحكم فى (الطفل) عند الآخرين ، والذى يفشل فى هذا دائما . فالمبدأ الأساسى فى هذه اللعبة أن جميع الاقتراحات مرفوضة ، بمعنى أن (الوالد) لاينجح أبدا ومنطوق اللعبة يقول « لاتجعل الفزع يستولى عليك .. (الوالد) لن ينجح أبدا ! » .

وباختصار ، بينما توفر كل حركة من حركات هذه اللعبة لمارسها التسلية ، والمباهج الصغيرة من خلال رفضه الاقتراحات فإن المكسب الحقيقى للعبة هو الصمت ، أو الصمت الضمنى ، الذى تنتهى به اللعبة عن مايجهد الآخرون

عقولهم ، ويصيبهم التعب ، من فرط محاولاتهم للبحث عن حل معقول . هذا الصمت ، هو الدليل على أن اللاعب قد كسب المعركة ، وأن الفشل كان من نصيب الآخرين ، الذين لم يوفقوا إلى حل مقنع للمشكلة .

والطريف فى هذه اللعبة ، مايحدث فى بعض الأحيان ، عندما ينقض أحد المشاركين على مكاسب بطل اللعبة ، محاولا إفساد لحظة الصمت التى كسبها بطل اللعبة ، بالدخول فى لعبة جديدة لصالحه ، وعادة ماتبدأ معركة بين الطرفين فى أعقاب هذا .

ومن الخصائص الغريبة للعبة « لماذا لا .. نعم ولكن ..» ، هو أنها تمارس على وجهها الخاص والعام ، بنفس الأسلوب ، مع قلب الأدوار ، ففى الشكل العام (الاجتماعى الخارجى الظاهر) ، وعند مراقبة السيدة التى تمارس اللعبة فى عيادة العلاج النفسى ، وجدوا أن (الطفل) فيها يتقدم ليلعب دور الباحث عن الحل ، عند تكتشف المجموعة المناسبة ، من مجموعات العلاج الجماعى ، المستعدة للمشاركة فى البحث عن حل لمشكلتها ، وفى الشكل الخاص (الاجتماعى الداخلى) ، عندما تكون مع زوجها فى البيت ، يتصدر (الوالد) فيها ، ليقدم الاقتراحات العاقلة الحكيمة للزوج .

هذا الوضع المقلوب للعبة ، يعتبر مظهرا ثانويا لها . وعند الاستقصاء ، وجد أن الزوجة ، أثناء مرحلة تبادل العواطف الساخنة والغزل السابقة للزواج ، كانت تلعب دور (الطفل) قليل الحيلة ، الباحث عن حل لمشاكله . ولكن بعد انقضاء شهر العسل ، تحرك (الوالد) المسيطر فيها ، وتضخمت مكانته . وقد يكتشف الزوج بعض ملامح هذا الموقف مع اقتراب موعد الزواج ، لكنه يتغاضى عنها ولا يلتفت إليها ، فى غمرة شوقه إلى إتمام مراحل القران بزوجة المستقبل التى اختارها .

فى الحالات التى لايتغاضى فيها الزوج عن هذه السقطات التى تكشف

ممارسة الزوجة للعبة ، قد يؤدى هذا إلى الانفصال . وتبدأ الفتاة ، بشكل أكثر حزنا وليس أكثر حكمة ، البحث عن الرفيق المستجيب للعبتها .

علاج اللعبة :

علاج هذه اللعبة يقتضى التنبه إلى أن الذين يستجيبون لحركة اللاعب الأولى فى هذه اللعبة ، عند استعراضه (لمشكلته) ، هم أيضا يلعبون إحدى تنويعات لعبة «أنا لا أسعى إلا لمساعدتك» وهو الشكل المقلوب للعبة «لماذا لا .. نعم ولكن ..» . فى هذه اللعبة الأخيرة يوجد مريض واحد وعدة أطباء ، أما اللعبة الأولى فيها طبيب واحد وعدة مرضى .

والعلاج النفسى للعبة « لماذا لا .. نعم ولكن ..» ، هو عدم الاستجابة لمحاولات ممارس اللعبة ، وعدم ممارسة لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » . إذا كانت الخطوة الأولى من ممارس اللعبة على شكل « ماذا تفعل إذا ..» ، فالإجابة السليمة هى « هذه مشكلة صعبة ، ماذا تنوى أن تفعل فى مواجهتها ؟» . وإذا كانت الحركة الأولى على صورة « (فلان) لايؤدى عمله بشكل سليم ، ماذا أفعل معه ؟» ، تكون الإجابة ببساطة « هذا أمر سيئ؟ ! ..» ويجب أن تكون الاستجابة فى الحالتين على درجة من التأدب ، بمايترك اللاعب غير قادر على مواصلة اللعبة . وعندما يتخذ الطبيب المعالج هذه الخطوة ، خطوة التعامل المقطوع ، سيبدو الاحباط على ممارس اللعبة ، ومن هذا الموقف تتضح جذور اللعبة له .

على المستوى الاجتماعى ، وإذا كانت اللعبة ودية وغير مؤذية ، ليس هناك أى مبرر لعدم المشاركة فيها .

ولعبة « لماذا لا .. نعم ولكن ..» تكون فى درجتها الثانية أكثر قسوة ، تظهر فى شكل نداء حار » افعل شيئا من أجلى ..» . تمتنع الزوجة عن تأدية الأعمال المنزلية مثلا ، بحيث يصبح بإمكانها كل مساء أن تمارس اللعبة مع

زوجها بعد عودته من عمله . وجميع الحلول التى يقدمها الزوج ، ترفضها الزوجة ، مواصلة عبوسها واكتئابها . مثل هذه الحالة قد تؤدى إلى أن يصبح الاكتئاب ضارا بصحة الزوجة . مما يستدعى علاجا نفسيا سريعا

الفصل السابع

الألعابْ الجنسِيَّة

الألعــاب الجنســية

بعض الألعاب تتم ممارستها بهدف اساءة استغلال الدوافع الجنسية ومحاربتها . وهذه الألعاب جميعا تتضمن انحرافا فى الغريزة الجنسية ، يحل فيه الاستمتاع الناشئ عن التعاملات الحرجة التى تشكل مكسب اللعبة ، محل الاستمتاع الناشئ عن الاتصال الجنسى .

هذه الألعاب لايسهل تصويرها دائما بشكل مقنع ، لأنها تجرى فى إطار خصوصية العلاقات الجنسية ، ولهذا يستمد الطب النفسى معلوماته عنها بطريق غير مباشر ، أو عن طريق رواية أحد الداخلين فى اللعبة ، وهى رواية يصعب تقييم مدى صدقها وموضوعيتها .

فى معظم الحالات التى نطرحها ، تكون المرأة هى التى تمارس اللعبة . فهناك أشكال قاسية من الألعاب الجنسية ، بطلها الرجل ، وغالبا ماتميل إلى الجريمة ، ومن ثم فقد أوردناها فى قسم ألعاب عالم الجريمة . ومن ناحية أخرى ، غالبا ماتتداخل الألعاب الجنسية مع ألعاب الحياة الزوجية ، إلا أن ألعاب هذا القسم تنفرد بأنها من الممكن أن تتم بين غير المتزوجين أيضا . والألعاب هى :

- فلنتعارك .. أنت ، وهو !.
- الانحراف ..
- الاغتصاب .
- الجورب .
- الصراخ .

« فلنتعارك .. أنت وهو ! »

هذا النوع من الألعاب قد يختلط على غير المدقق ، فهو ليس « لعبا » فى كل حالة ، قد يكون مناورة ، مجرد مناورة ، أو طقس من الطقوس ، أو لعبة فعلية . وفى جميع الحالات يكون الأساس السيكلوجى أنثوى ، ولعل مرجع هذا إلى الخصائص المأساوية لهذه اللعبة وهى ، كما ستلاحظ ، تعتبر المعين الذى ينهل منه الأدب العالمى ، الجيد منه والردىء .

كمناورة :

تكون رومانتيكية . المرأة تناور ، أو تتحدى رجلين ، دافعة إياهما إلى العراك ، مع وعد ضمنى غير صريح بأنها ستكون من نصيب الفائز.

بعد أن ترجح كفة الفائز ، نراها تفى بوعدها .

التعامل فى هذه الحالة يعتبر تعاملا أمينا . ومن المفترض أنها ستعيش مع الرجل الفائز فى سعادة وهناء بعد ذلك .

كطقس :

تكون مأساوية . التقاليد تتطلب أن يتحارب الرجال من أجلها ، حتى ولو لم تكن راغبة فى هذا العراك ، وحتى لو كانت تميل مبدئيا إلى أحد المتعاركين . فإذا فاز الرجل الآخر ، تكون مرغمة على قبوله . فى هذه الحالة يكون المجتمع ـ وليس المرأة ـ هو الذى يمارس لعبة « فلنتعارك . أنت وهو ! » .

إذا كانت المرأة راغبة فى هذا الطقس أو التقليد ، يكون التعامل هنا أمينا . أما إذا كانت رافضة له ، أو مستاءة منه ، فالخاتمة تعطيها الحق فى اختيار واسع بين عدد من الألعاب ! .

كلعبة ..

تكون كوميدية . تبدأ المرأة بأن تقيم المنافسة ، فتتم المبارزة بين الرجلين . وعندما يصل العراك بينهما إلى ذروته ، تهرب هى مع رجل ثالث !..

مكسب اللعبة :

مكسب المرأة ورفيقها الذى هربت معه فى هذه اللعبة ، ينبع من الموقف الذى يقول إن المنافسة الأمينة لاتجرى إلا بين المغفلين ، هذا من الناحية السيكلوجية الخفية . أما المكسب الاجتماعى المعلن فتستمده المرأة ورفيقها من القصة الكوميدية التى عاشاها .

« الانحـراف .. »

الانحرافات فى العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ، كالاهتمام المرضى بالجنس ، أو السادية (التلذذ بتعذيب الغير) ، أو الماسوشية (التلذذ بتعذيب الذات) ، هى جميعا أعراض (طفل) مرتبك داخل الشخصية ، ويجرى علاجها على هذا الأساس .

ومظاهر مثل هذه التعاملات ، كما تبدو فى المواقف الجنسية الحقيقية ، يمكن تناولها من خلال تحليل الألعاب ، وهذا يؤدى إلى بعض التحكم الاجتماعى فيها . فحتى إذا بقيت الدوافع الجنسية الخبيثة على حالها دون تغيير ، فيمكن على الأقل معادلتها بالقدر الذى يسمح به المجتمع .

الأشخاص الذين يعانون من الانحرافات السادية والماسوشية الحقيقية ، يميلون إلى ممارسة لعبة « الطبيب النفسى » بشكل بدائى .

الأشخاص الذين يعانون من التشوهات السادية أو الماسوشية الخفيفة ، يميلون إلى اتخاذ وضع بدائى للعبة « الصحة العقلية » والتى سنتحدث عنها فيما بعد . إنهم يشعرون أنهم يتمتعون بقوة جنسية هائلة ، وأن فترات العفة والزهد الطويلة ستقودهم إلى عواقب وخيمة . وبالطبع لا يكون أى من استخلاصاتهم هذه حقيقيًا ، لكن هذه الاستخلاصات تشكل الأساس الذى يمكن بموجبه ممارسة لعبة أخرى تسمى « الساق الخشبية » ، والتى يقول فيها لسان حال الشخص

« ماذا تتوقع من شخص مثلى ، على هذه الدرجة من القوة الجنسية ؟ ! » .

علاج اللعبة :

يكون العلاج بخض الطرفين على اطالة فترة الملاطفة العادية ، أى تجنب أى شكل من أشكال الضرب بالسوط ، معنويا أم حرفيا ، والاقتصار على الأشكال العادية فى الاتصال الجنسى .

إذا كان ممارس اللعبة منحرف حقيقى ، فسيقود هذا التصرف إلى تعرية العنصر الثانى من اللعبة ، والذى يتم التعبير عنه بوضوح فى الأحلام غالبا : وهو أن العملية الجنسية فى حد ذاتها لا تحظى من ممارسى اللعبة إلا بأقل اهتمام ، وأن استمتاعه الحقيقى ينبع من مرحلة الملاعبة السابقة والتى تتسم بتحقير الذات . وهذا شىء لم يكن يجرؤ على الاعتراف به لنفسه . وتصبح شكواه الآن « بعد كل هذا الجهد الذى بذلته فى ضبط النفس ، أما زال مطلوبا منى أن أمارس الاتصال الجنسى ؟ ! » .

عند هذه النقطة يكون الموقف مواتيا للتحليل النفسى الدقيق ، بعد أن تم إبطال كل جهود المراوغة . هذا التحليل والعلاج ينسحب فقط على « العصابيين جنسيا » ، ولا يمتد إلى حالات الذين يعانون من انفصام الشخصية الضار ، أو الانحراف الاجرامى ، ولا يمتد أيضا إلى أولئك الذين يحصرون نشاطهم الجنسى على أحلام اليقظة .

« الاغتصــاب »

تجرى هذه اللعبة بين رجل وامرأة ، ويمكن أن نطلق على أشكالها الخفيفة ، وعلى سبيل التأدب ، اسم « القبلة عن بعد » أو « المكايدة ». وتتم ممارسة هذه اللعبة على درجات مختلفة من الشدة .

« الاغتصاب » من الدرجة الأولى :

وهى الدرجة التى تحتمل أن نطلق عليها « القبلة عن بعد » .. وهذه لعبة شائعة فى اللقاءات الاجتماعية وتعتمد أساسا على الغزل الخفيف .

توحى المرأة بتصرفاتها ، أثناء الحفل ، إلى أنها ممن يمكن الوصول إليهن . ثم تستمد مسراتها من ملاحقة الرجال لها . وبمجرد أن تثبت تهمة الملاحقة على الرجل ، تنتهى اللعبة بالنسبة لها .

إذا كانت امرأة مؤدبة، فهى قد تقول للرجل بصراحة تامة «إنى أقدر مجاملاتك ، وأشكرك عليها » ، ثم تنصرف إلى المتبارى التالى .

أما إذا كانت أقل كرما ، فهى قد تتركه ببساطة دون أى تعليق .

واللاعبة الماهرة تستطيع أن تطيل أمد هذه اللعبة لزمن طويل ، فى اللقاءات الاجتماعية الموسعة . وذلك بالتحرك حول الرجل من حين لآخر ، بحيث يصبح عليه أن يقوم بمناورات معقدة لمتابعتها ، حتى لاتبدو مناوراته مفضوحة .

« الاغتصاب » من الدرجة الثانية :

وهنا ، يمكن أن نطلق عليها اسم « المكايدة » .

المرأة فى هذه الدرجة تحصل من ملاحقة الرجل لها على مجرد متعة جانبية . أما متعتها الحقيقية فتأتى من رفضها له . فهى تستدرج الرجل إلى تصرفات أكثر جدية من التى تجرى فى الدرجة الأولى من اللعبة ، وتستمتع أساسا بملاحظته وقد ظهرت عليه خيبة الأمل عندما ترفضه . والرجل ، على عكس مايبدو عند النظرة الأولى ، لايكون ضحية حقيقية فى هذا اللعبة . ففى الأغلب يكون قد بذل جهدا ملحوظا حتى يتاح له الوصول إلى هذا اللعبة . وهو فى نفس الوقت يمارس لعبة « اضربنى ! » .

« الاغتصاب » من الدرجة الثالثة :

اللعبة على هذا المستوى تعتبر لعبة شريرة . وتنتهى عادة بالقتل أو الانتحار أو القضاء .

فى هذه الدرجة من اللعبة . تقود المرأة رجلها إلى مراحل محسوبة من الاتصال الجسدى ، ثم تتهمه بارتكاب اعتداء إجرامى عليها ، أو أنه تسبب لها فى تلف لايمكن اصلاحه . وفى الأشكال الأكثر شرا ، قد تسمح للرجل بإكمال الاتصال الجنسى ، بحيث تستمد متعتها الجانبية من هذا الاتصال ، قبل أن تبدأ متعتها الحقيقية بممارسة اللعبة ، ومواجهته بصيحة الاغتصاب .

والمواجهة قد تكون مباشرة ، كما فى صرخة الاغتصاب ، وقد تتأخر المواجهة لوقت طويل ، كما فى حالات الانتحار ، أو حالات القتل الذى يعقب علاقة جنسية طويلة .

وإذا اختارت المرأة أن توجه الاتهام بالاعتداء الاجرامى للرجل ، فلن تجد صعوبة فى الحصول على العطف والاستجابة لدى الأوساط المختصة ،

كالصحافة والشرطة والأقارب . وان كان الوضع ينقلب فى بعض الأحيان ، فيتجه الهجوم إلى المرأة ، فتفقد مبادرتها .

وفى بعض الأحيان ، يكون محيط المرأة هو الأكثر تشبثا بممارسة اللعبة ، ربما على غير ارادتها . فيضع المجتمع المرأة فى وضع يضطرها إلى اطلاق صرخة الاغتصاب ، حتى تنقذ ماء وجهها وسمعتها ، ويحدث هذا عادة مع الفتيات القاصرات ، اللاتى يكن فى أعماقهن راغبات فى استمرار العلاقة مع الرجل ، ولكن نتيجة لانكشاف هذه العلاقة وما أثير حولها من ضجيج ، يجبرن على تحويل علاقة الحب إلى لعبة « الاغتصاب » من الدرجة الثالثة .

والخليط من لعبتى « الاغتصاب » . ولعبة « فلنتعارك ، أنت وهو! » ، يتحول فى لعبة ثالثة يطلق عليها اسم لعبة « البائع المتجول » ، وفيها تغرى المرأة الرجل ، فما أن يستجيب حتى تطلق صرخة الاغتصاب وفى هذه اللحظة يدخل الزوج المجروح ، ليلعب دوره ، مهددا الرجل بهدف ابتزاز أمواله .

ولعل أسوأ أشكال ودرجات لعبة « الاغتصاب » من الدرجة الثالثة ، ذلك الذى يجرى بين الأغراب المصابين بالشذوذ الجنسى ، فنى خلال ساعة تقريبا من اللقاء لأول مرة ، يصلون إلى حالة القتل . مثل هذه الأشكال الشريرة من اللعبة ، هى التى تغذى العناوين الضخمة فى الصحف ، وصفحات الجرائم بالذات .

* * *

مقدرة الرجل على تجنب الانغماس فى مثل هذه اللعبة ، أو مقدرته على التحكم فى سير حركاتها يعتمد على قدرته فى التمييز بين التعبير الأصيل عن المشاعر ، وبين حركات اللعبة . فإذا كان قادرا على التزام الضوابط

الاجتماعية ، فقد يتحقق له قدر كبير من المتعة ، بالغزل الرقيق الذى يجرى فى لعبة « القبلة عن بعد » .

ومن ناحية أخرى ، يكون من الصعب الوصول إلى تصوّر للمواجهة الأمينة ، عندما تبدأ « المناورة » ، كما يصعب تدارك الموقف قبل أن يستفحل الأمر .

ولعبة « الاغتصاب » لها تنويع رجالى ، نجده كثيرا فى المعاملات التجارية .

تحليل اللعبة :

الدرجة الثالثة من لعبة « الاغتصاب » تجرى على المستوى الاجتماعى المعلن من موقف (بالغ ـ بالغ) ، كالتالى :

الرجل (بالغ) : آسف إذا كنت قد تجاوزت ما تطلبينه منى ..

المرأة (بالغ) : لقد اغتصبتنى ! .. ويجب أن تدفع الثمن كاملا .

أما على المستوى السيكلوجى الخفى ، فتجرى من موقف (طفل ـ طفل) كالتالى :

الرجل (طفل) : أرأيت ، إلى أى مدى لا استطيع أن أقاوم ..

المرأة (طفل) : هاقد أمسكت بك .. يا ابن الكلاب !.

« الجــورب »

هذه اللعبة تعتبر من تنويعات ألعاب « الاغتصاب » . فيها يكون حب الاستعراض هو أكثر الخصائص وضوحا ، وتكون الرغبات الاستعراضية عند ممارسى اللعبة متصفة بالهستيرية .

تقبل المرأة التى تمارس اللعبة على مجتمع الغرباء ، وبعد قليل من الوقت ، ترفع ساقها عارضة نفسها بشكل مثير ، قائلة بعد آهة ممطوطة « ياللخسارة .. لقد ظهر قطع فى جوربى الثمين » .

والمفروض فى مثل هذا الاستعراض أن يثير الرجال جنسيا ، ويغضب النساء الحاضرات ، وبصفة خاصة زوجات الرجال الحاضرين

أى اتهام يوجه إلى هذه المرأة نتيجة لهذه الحركة التى تبدو عفوية ، يدفعها إلى الاحتجاج بالبراءة ، أو إلى شن هجوم مضاد . ومن هنا يأتى التشابه بين هذه اللعبة ولعبة « الاغتصاب » .

المرأة التى تمارس هذه اللعبة ، غالبا ماتكون قد فشلت فى التكيف مع المجتمع الذى اقبلت عليه ، وتمارس فيه ألعابها . وهى غالبا ما تبدأ لعبتها ، قبل أن تتعرف على نوع المجتمع الذى تتعامل معه ، أو الوقت المناسب لممارسة ألعابها ، ولذا فغالبا ماترفض مثل هذه المجتمعات الصغيرة وجود مثل هذه المرأة ، مما يؤثر على علاقاتها البشرية .

تحليل اللعبة :

المرأة التى تلعب هذه اللعبة، بالرغم من التفسيرات السطحية التى تطرحها ، تفشل فى فهم ذلك الذى يجرى بينها وبين الآخرين ، ومن هنا يكون منطلقها فى الحكم على الطبيعة البشرية شريرًا ، ويصبح هدفها دائمًا هو اثبات أن عقول الناس وافكارهم شهوانية . فى حالتها هذه يلتحم (البالغ) مع (الطفل) و(الوالد) فى كتلة واحدة تصر على تجاهل افعالها المثيرة ، والطبيعة السوية للناس الذين تلتقى بهم .

والدافع إلى هذه اللعبة يكون فى الأغلب ، الرغبة فى تحطيم الذات .

تنويعات اللعبة :

وهناك أشكال أخرى لهذه اللعبة ، من بينها اللعبة التى تقدم عليها المرأة التى تتمتع بصدر كبير مثير فهى تميل عادة إلى أن تجلس واضعة ذراعيها خلف رأسها ، حتى تبالغ فى دفع صدرها إلى الأمام . إذا نجح هذا الأسلوب ، كان بها ، وإلا فهى تعمد إلى مزيد من لفت النظر إلى صدرها ، بأن تشير ـ بالقول ـ إلى حجم صدرها ، أو بالحديث ـ البرىء ظاهريا ـ حول جراحة أجرتها فى صدرها ، أو تتحدث ـ أيضا بشكل برىء ظاهريا ـ عن الناموسة التى لدغتها فى صدرها .

ومضمون كل هذه المجهودات التى تقوم بها المرأة التى تمارس لعبة «الجورب» ، هو امكان الوصول إليها جنسيا . ومن الأشكال الرمزية لهذه اللعبة ، تلك الحالة التى تحرص فيها المرأة على تأكيد كونها أرملة أو مطلقة ، فى حديثها ، الذى يبدو بريئا فى ظاهره ، ولكنه يحمل الكثير من المعانى الخبيثة فى جوهره .

علاج اللعبة :

أثناء العلاج ، تبدى المرأة التى تمارس هذه اللعبة أقل الصبر فى دخولها إلى علاج حقيقى . وقد يتم علاج هذه اللعبة بأن يتجاهل المجتمع الذى تجرى فيه ، أمر المرأة التى تمارسها نهائيًا ، رغم كل الحركات والأقوال . مثل هذا التصرف ، قد يؤدى إلى توقف اللاعبة عن المضى فى محاولاتها .

والتصدى لعلاج هذه اللعبة يحتاج إلى حرص شديد ، وألا تتسم خطوات العلاج بأقل قدر من الانتقام أو الثأر أو التشفى ، لأن ظهور مثل هذه المشاعر يعنى أن اللاعبة قد كسبت جولتها .

والنساء يكن عادة أقدر من الرجال على القيام بالحركة المضادة لهذه اللعبة ، فلديهن دائما حافزهن الشخصى لإنهائها .

« الصــراخ »

هذه اللعبة ، فى شكلها التقليدى ، تجرى بين أب متحكم مسيطر ، وابنته الشابة ، فى ظروف تكون فيها الأم ممتنعة جنسيا على الأب .

يصل الأب إلى بيته بعد انتهاء ساعات عمله ، فيكتشف غلطة ما فى تصرف ابنته ، ويلفت نظرها ، فتجيب بسلاطة لسان . أو تكون هى البادئة بالحركة الأولى من اللعبة ، مستعرضة سلاطة لسانها أثناء تعليقها على أمر ما ، مما يعتبره الأب نقيصة تستوجب المآخذة . على المدى يتعالى صراخها ، ويصبح الصدام بينهما أشد حدّة .

والحركة الأخيرة من هذه اللعبة ، تتوقف على الذى يأخذ المبادرة من الطرفين ، وهناك ثلاثة احتمالات :

١ ـ يذهب الأب إلى حجرته ، ويصفق الباب خلفه .
٢ ـ تذهب الابنة إلى حجرتها ، وتصفق الباب خلفها .
٣ ـ يذهب كل منهما إلى حجرته ، ويصفق بابها .

فى جميع الأحوال ، تنتهى لعبة « الصراخ » بصوت الباب وهو يصفق .

هذه اللعبة تقدم حلا فعالا ـ وان كان مقبضا ـ للمشاعر الجنسية التى قد تنشأ بين الأب وابنته المراهقة فى بعض العائلات . فتحت ضغط الدوافع الجنسية الغريزية ، غالبا مايكون من الصعب عليهما أن يعيشا تحت سقف

واحد ، مالم يكونا متخاصمين . وانصفاق الباب ، يؤكد لكل منهما ، ان كل منهما له حجرة نومه الخاصة .

ولعبة « الصراخ » ، بشكل عام ، تجرى بين أى شخصين يحاولان تجنب الألفة الجنسية بينهما وتعتبر لعبة « الصراخ » الحركة الأخيرة من لعبة « المرأة الباردة » .

تنويعات اللعبة :

نادرا ماتجرى لعبة « الصراخ » بشكل مقلوب ، أى بين الشاب والمحارم من النساء اللاتى يعشن معه تحت سقف واحد . ومرجع هذا إلى الصلاحيات التى تعطى للشاب ، والتى تسمح لهم بالهروب من البيت فى أغلب الأمسيات ، دون اعتراض من الأسرة .

النموذج الطفولى للعبة « الصراخ » ، يتمثل فى العراك الجسدى بين الأولاد والبنات الصغار ، حيث يؤدى هذا العراك الجسدى إلى إقامة الموانع الجنسية ، كما فى حالة اللعبة بين الكبار ، إلا أن المتعاركان فى هذه الحالة يحصلان على بعض الاستمتاعات الجزئية . والعراك الجسدى له العديد من الدوافع فى مختلف الأعمار .

فى أمريكا ، يعتبر العراك الجسدى بين الصغار ، شكل شبه طقسى للعبة « الصراخ » ، وهو مجاز من المشرفين على التليفزيون ، ومن السلطات التربوية ، أما فى الطبقات الإنجليزية العليا ، فيعتبر العراك الجسدى بين الصغار ، أو كان يعتبر ، نشاطا سيئا ، يجب الحرص على سرعة تحويله إلى لعبة « الصراخ » ، التى يجاد تنظيمها فى الملاعب الرياضية .

علاج اللعبة :

علاج هذه اللعبة يأتى بشكل طبيعى ، عندما تتزوج الأبنة . وفى بعض الحالات قد تلجأ الأبنة إلى هذا الحل فى سن مبكرة ، مندفعة إلى زيجة غير

ناضجة . وإذا كانت الأم فى وضع سيكلوجى يسمح لها بالتدخل ، تكون قادرة على اتخاذ الخطوة الأولى نحو قطع اللعبة ، وذلك بتنازلها عن برودها الجنس النسبى أو المطلق . كما يمكن لهذه اللعبة أن تنتهى ، إذا ماوجد الأب اهتماما جنسيا خارج البيت ، غير أن هذا الحل يقود إلى تعقيدات أخرى.

فى حالة قيام لعبة « الصراخ » بين الزوجين ، يكون قطع اللعبة وإيقافها ، بنفس الخطوات التى اتبعناها فى لعبة « المرأة الباردة » .

الفصل الثامن

ألعاب عالم الجريمة

ألعاب عالم الجريمة

مع شيوع نشاطات علم النفس والخدمة الاجتماعية فى المحاكم والسجون ومراكز رعاية الأحداث ، ومع تزايد حصيلة أبحاث علم الجريمة ، يجب على القائمين على هذا الجهات أن يكونوا منتبهين إلى الألعاب التى تدور فى عالم الجريمة ، داخل السجون أو خارجها . سنستعرض لعبتين من ألعاب عالم الجريمة هما :

- عسكر وحرامية ..
- كيف تهرب من هنا ..

« عسكر وحرامية »

لأن أغلب المجرمين يكرهون الشرطة ، نراهم يستمدون متعتهم الكبرى من خديعة الشرطة ، أكثر من المكاسب التى يستهدفونها بنشاطهم الاجرامى .

فالجرائم على مستوى (البالغ) هى ألعاب تستهدف المكسب المادى ، الغنيمة . لكنها على مستوى (الطفل) ، تستهدف الإثارة التى يحصل عليها ممارس اللعبة ، أثناء المطاردة ، ملاحقة الشرطة له ، ومراوغته لهم .

والنمط الطفولى للعبة « بعسكر وحرامية » ، ليس به عسكر ولاحرامية ، إنه يأخذ شكل « الاستغماية » أو « المساكة » . وعنصر الاستمتاع الأساسى فى هذه اللعبة هو « التعبير عن التكدر » الذى يبديه الطفل المختبئ ، فى لحظة اكتشاف مكانه .

وصغار الأطفال يكشفون طواعية هذه الحقيقة . إذا استطاع الأب أن يعثر على ابنه المختبئ بسهولة شديدة وبسرعة ، تتحقق للطفل رغبته فى « التعبير عن التكدر » ، إلا أن اللعبة تفتقد فى هذه الحالة اثارتها وطرافتها . أما إذا كان الأب فاهما لأصول اللعبة ، ماهرا فى ممارستها ، نراه يفهم بالتحديد مايجب عليه فعله ، فهو يظهر الحيرة أثناء البحث ، ويبدو وكأنه يبذل محاولات جادة للعثور على مكان الأبن . إذا طالت هذه الفترة ، نلاحظ أن الابن يصدر صوتا ، أو يسقط شيئا على الأرض محدثا صوتا ، ليساعد الأب فى العثور

عليه ـ إنه فى الواقع يجبر الأب على العثور عليه ، ولكنه حتى فى هذه الحالة ، لايتخلى عن اظهار التكدر فى لحظة العثور عليه . بهذه الطريقة يحصل الابن على متعته كاملة .. الاثارة فى مرحلة البحث عنه ، ثم التعبير عن التكدر والاستياء لحظة العثور عليه . أما إذا فشل الأب فى العثور على الابن، وبرغم مايحمله هذا من انتصار للابن على جهود الأب ، فإن الابن يشعر بالاستياء أكثر من شعوره بالانتصار .

كذلك عندما يحل الدور على الأب كى يختفى هو ، يدرك أنه ليس من المفروض المبالغة فى اختيار المخبأ ، بحيث يصعب على الطفل العثور عليه ، كما يدرك بحكمته ، أن أصول اللعبة تقتضى منه أن يظهر الضيق عندما يتم العثور عليه . وفى هذا أيضا تأكيد للحقيقة السابقة ، وهى أن الاستمتاع الأساسى فى هذه اللعبة يكون ساعة العثور على الشخص المختبئ ، ومايستتبع ذلك من تكدر واستياء وضيق .

لهذا ، لايجب أن نعتبر لعبة « الاستغماية » نوعا من أنواع التسلية وتمضية الوقت ، إنها لعبة نفسية بكل معنى الكلمة .

* * *

على المستوى الاجتماعى الظاهر ، تعتبر اللعبة معركة حذق ومهارة ، وتتحقق متعتها الكبرى عندما يبذل (البالغ) فيمن يمارسونها أفضل ما عنده .

وعلى المستوى السيكلوجى الخفى ، يكون على (البالغ) فى ممارس اللعبة أن يخسر ، حتى يستطيع (الطفل) فيه أن يكسب .

وعلاج هذا اللعبة يكون بالامتناع عن إمساك المختبئ .

* * *

ومن الملاحظ أنه عندما تجرى اللعبة بين الأطفال الأكبر سنا ، يعتبر

اختيار المخبأ الصعب الذى لايمكن العثور عليه ، انتقاصاً للروح الرياضية ، وافساداً لجوهر اللعبة . وهو يعتبر نوعا من استئصال لعنصر (الطفل) فى اللعبة ، وتحويل الأمر بأكمله إلى نوع من الاجراءات الماهرة التى يقوم بها (البالغ) . اللعب هنا لايكون من أجل متعة اللعبة فى حد ذاتها ، ويصبح أشبه بنشاط صاحب كازينو القمار ، أو نشاط المجرم المحترف ، الذى يسعى إلى الكسب المادى ، وليس إلى الاستمتاع باللعب .

ويبدو أن هناك نمطان متميزان من معتادى الإجرام ، أولئك الذين يدخلون عالم الجريمة أساسا من أجل الكسب المادى ، وأولئك الذين يدخلونه أساسا من أجل اللعب . وهذا لايمنع من وجود مجموعة ضخمة تتردد بين النمطين . النمط الأول يضم « الفائز حتما » ، ذلك الذى ينجح فى جمع المال نتيجة لنشاطه الاجرامى ، وموقف (الطفل) داخله لا يريد للشرطة أن تعثر عليه . وهذا النمط ـ وفقا للتقارير ـ يعتبر نموذجا نادرا ، يصعب على الشرطة أن تصل إليه ، أو تمس مصالحه . والنمط الثانى يضم « الخاسر حتما » ، ذلك الذى يلعب لعبة « عسكر وحرامية » . وهذا ، غالبا ماتكون أحواله المالية سيئة ، أما الذين يخرجون عن قاعدة الأفلاس هذه ، فيكون مرجع ذلك إلى الحظ ، أكثر من أى شىء آخر . وحتى هؤلاء المحظوظين ، غالبا ما ينتهون ـ على المدى البعيد ـ إلى أن يستجيبوا لمطالب (الطفل) فيهم ، الذى يطالبهم ، مصرّا ، بالوقوع فى يد الشرطة .

* * *

ممارس لعبة « عسكر وحرامية » ، يشبه فى بعض جوانبه ممارس لعبة « المدمن » . فهو قادر على تغيير الدور الذى يلعبه ، من شرطى إلى لص ، أو من لص إلى شرطى . وفى بعض الأحيان ، نراه يلعب الشرطى (الوالد)

نهارا ، واللص (الطفل) ليلا . والمثل الشائع يقول : هناك شرطى داخل كل لص ، ولص داخل الكثير من رجال الشرطة .

المجرم الذى يشفى من ممارسة هذه اللعبة ، قد يتحول إلى دور المنقذ ، فيعمل فى حقل الخدمة الاجتماعية أو الدينية . إلا أن دور المنقذ فى هذه اللعبة ، يتضاءل كثيرا إذا قيس بدور المنقذ فى لعبة (المدمن) . وعادة يكون دور اللاعب (كلص) هو قدره ، وتكون داخله الدوافع الخفية التى تتيح للشرطة أن تمسك به . ومحاوراته ومداوراته مع الشرطة ، تكون عنيفة فى بعض الأحيان ، سهلة يسيرة فى أحيان أخرى .

* * *

نفس الوضع ينسحب على المقامرين . على المستوى الاجتماعى الظاهر للجميع ، يكون الهدف الأول فى حياة المقامر المحترف هو المقامرة . أما على المستوى السيكلوجى ، فإننا نجد نوعين من المقامرين المحترفين : أفراد النوع الأول يمضون أوقاتهم فى اللعب ، اللعب مع القدر ، وتكون رغبة (البالغ) فى الكسب عندهم ، أقل من الصياح القوى الصادر من (الطفل) داخلهم والذى يطالبهم بالخسارة . أما أفراد النوع الثانى ، فهم أولئك الذين يديرون بيوت القمار غالبا ، ويعيشون من إيراد هذا العمل ، فيحققون أرباحا كبيرة ، من إتاحة فرصة المقامرة للمقامرين . وهم فى حد ذاتهم لايقامرون ، ويحاولون بقدر الامكان أن يتجنبوا اللعب . إلا أنه تحت ظروف خاصة ، يمارسون المقامرة ـ من حين لآخر ـ ويستمتعون بها . تماما كما يجنح المجرم المحترف فى بعض الأحيان إلى ممارسة لعبة « عسكر وحرامية » .

* * *

وهذا ، يلقى الضوء على سر تخلف الدراسات الاجتماعية والسيكلوجية فى

عالم الجريمة ، .. وعدم نمو هذه الدراسات أو تقدمها بشكل عام .

يرجع السر فى ذلك إلى أن الدارسين والباحثين لاينتبهون إلى أنهم يتعاملون مع نوعين مختلفين من الناس ، يصعب وضعهما داخل نفس الإطار ، أو اخضاعهما لنفس الأفكار والنظريات .

ونفس الشيء ينسحب على دراسة المقامرين .

ولايمكن الوصول إلى حل مباشر لهذه المشكلة ، دون الاعتماد على علم تحليل التعاملات وتحليل الألعاب . عن هذا الطريق ، يمكننا كشف غوامض الموضوع ، بالتفريق بين ما هو ظاهر وما هو مستتر تحت المستوى الاجتماعى ، بين ممارس اللعبة والمحترف .

لكى نفهم هذا بشكل أوضح ، نعطى بعض الأمثلة .

بعض اللصوص يؤدون عملهم ، بدون جهد ضائع ، وبكفاءة كاملة . والبعض الآخر الذى يمارس لعبة « عسكر وحرامية » ، يترك غالبا بطاقته فى مكان الجريمة ، على شكل عمل تخريبى لامبرر له مثل إفساد ثوب ثمين ، أو تحطيم آنية غالية .

سارق البنك المحترف ـ وفقا للتقارير ـ يتخذ كافة الاحتياطات ليتجنب العنف ، وسارق البنك الذى يمارس « عسكر وحرامية » ، ينغمس فى البحث عن مبرر للتعبير عن غضبه . ومثل كل محترف ، يحب سارق البنك المحترف لعمله أن يكون على أكبر درجة من النظافة والدقة ، تسمح بهما الظروف . أما السارق الذى يمارس اللعبة ، نراه يحرص على إثارة الغبار حول عمله . المجرم الحقيقى لايقدم على عمل ما ، إلاّ إذا تأكد من أن ضمانات الأمن كاملة ، أما المجرم اللاعب ، فيعمل كل ما من شأنه أن يجعله فى آخر الأمر يقف أمام القانون مكبل اليدين .

المجرم المحترف يدرك تماما ـ بطريقته الخاصة ـ خصائص وطبيعة لعبة

« عسكر وحرامية » . فإذا أحس بأن أحد أعضاء عصابته يبدى ميلا إلى اللعبة ، فإنه سرعان مايتخذ الإجراءات العنيفة لاستئصال هذا الانحراف من عمله . ولعل السبب فى أن أغلب المجرمين المحترفين لايقعون فى أيدى الشرطة ، هو أنهم لايمارسون لعبة « عسكر وحرامية » . ونتيجة لهذا ، قلما يخضعون للدراسة الاجتماعية أو السيكلوجية ، ويندر أن يتاح للطب النفسى أن يدرس حالتهم . ونفس الشىء ينسحب على المقامرين . ومن هنا ، فإن أغلب معلوماتنا عن المجرمين والمقامرين نستمدها من ممارسى لعبة « عسكر وحرامية » ، أكثر ما نستمدها من المجرمين المحترفين .

تنويعات اللعبة :

يتزايد عدد ممارسى لعبة « عسكر وحرامية » ، بانتشار المصابين بجنون السرقة (وهم غير لصوص المحال العامة من المحترفين) . هذا بالإضافة إلى أن نسبة عالية من الناس تمارس اللعبة بالخيال . وهذا هو ما تعتمد عليه الكثير من المجلات الرخيصة . ويقوم هذا الخيال على حلم (الجريمة الكاملة) ، والتى تعنى ممارسة لعبة « عسكر وحرامية » فى أعنف وأصعب أشكالها ، متضمنة محاولة تضليل الشرطة تضليلا كاملا .

ولعبة « عسكر وحرامية » لها تنويعات عديدة ، مثل لعبة « المحاسب واللص » ، والتى يمارسها المختلسون ، بنفس القواعد والمكاسب والأهداف . كذلك لعبة « مأمور الجمرك واللص » ، والتى يمارسها المهربون .. إلى آخر ذلك .

ومن الأشكال المثيرة للألعاب ، ذلك التنويع الاجرامى للعبة « المحكمة » فبرغم الاحتياطات الكبيرة التى يتخذها المجرم المحترف ، يحدث ــ بين الحين والآخر ــ أن يتم القبض على أحدهم ، ليجد نفسه ماثلا أمام المحكمة . وهو هنا يعتبر المحكمة مجرد اجراء من الاجراءات وليس لعبة ، وهو يسير فى

الخطوات وفقا لتعليمات محامين. وإذا كان المحامى نفسه من النمط «الفائز حتما»، تصبح «المحكمة» لعبة أساسية، يجريها المحامى مع المحلفين، ويكون هدفه منها الانتصار عليهم وكسب القضية. الأمر الذى تعتبره قطاعات واسعة من المجتمع عملا مشروعا ومستحبا.

علاج اللعبة:

وعلاج هذه اللعبة يجب أن يكون على يد علماء الجريمة المؤهلين. وليس على يد الطبيب النفسى. فى هذه الحالة لاتدخل السلطات القضائية أو الشرطة كعنصر من عناصر العلاج، لأنها تمثل أدوارا فى اللعبة. وفقا للقوانين التى تحكم المجتمع.

بعض الباحثين والعاملين فى حقل الجريمة، يتفكهون حول تصرف بعض المجرمين، بقولهم إن أولئك المجرمين يتصرفون وكأنهم يستمتعون بالمطاردة، ويرغبون فى أن يتم الامساك بهم فى النهاية. أو قد يقرأون مايكتب حول الألعاب ويوافقون عليه، ولكن من منطلق مختلف عن المنطلق الحقيقى. إنهم يبدون أقل الميل لاعتبار ظاهرة الألعاب، ظاهرة اكاديمية، يمكن أن يكون لها تأثيرها الفعلى على عملهم (الجادّ).

وهذه اللعبة من الصعب الكشف عن عناصرها، من خلال المقاييس والممارسات التقليدية للبحث النفسى. فالباحث يجد نفسه مضطرا إلى القفز فوق النقاط شديدة الغموض التى تعترض طريقه، بعد أن يعجز عن معالجتها بأدواته الراهنة، أو يجد صعوبة فى تغيير الادوات التى يعمل بها.

سيظل علم الجريمة يدور فى حلقة مفرغة من البحوث السطحية والجانبية، مالم ينظر إلى لعبة «عسكر وحرامية»، نظرة جديدة، ليس على سبيل أنها فكرة مثيرة، بل باعتبارها الحل الحقيقى الذى يمكن أن نصل عن طريقه إلى فهم كامل لكثير من مشاكل علم الجريمة.

«كيف تهرب من هنا ..»

تؤكد الشواهد التاريخية أن المسجون الذى يشغل وقته بنشاط ما ، أو بنوع من أنواع التسلية أو الألعاب ، هو الذى يتمتع بحالة أفضل من غيره . ويدرك رجال الشرطة السياسية هذه الحقيقة ، وعندما يهدفون إلى القضاء على سجين ما ، يتركونه دون عمل أو نشاط من أى نوع ، وفى حالة عزلة اجتماعية كاملة .

« النشاط » المفضل فى حالات السجن الانفرادى هو القراءة والكتابة . أما « التسلية » المفضلة فهى الهروب من السجن .

أما « اللعبة » المفضلة فهى ممارسة «كيف تهرب من هنا ..» ، التى قد نعثر على من يمارسها فى المستشفيات العامة أيضا .

السجين الذى يرغب حقا فى الخروج إلى عالم الحرية ، يستطيع بتجاوبه مع سلطات السجن ، أن يحصل على الأفراج فى أقرب فرصة . أما ممارسة لعبة «كيف تهرب من هنا ..» فيكون من نصيب المرضى ، الذين لايرغب (الطفل) داخلهم فى الخروج من السجن أو المستشفى .. نراهم يحرصون على السلوك الطيب ، لكن ما أن تحل النقطة الحرجة ، حتى يعمدون إلى تخريب وضعهم ، بحيث ينشأ المبرر القوى لعدم خروجهم .

يقتضى السلوك الحميد ، كإجراء وليس كلعبة ، ان يتكاتف (الوالد) مع

(البالغ) مع (الطفل) لتحقيق هدف الافراج. أما فى لعبة «كيف تهرب من هنا..»، فليتزم كل من (الوالد) و(البالغ) بالخطى المرسومة، التى تستهدف الخروج من السجن، ثم تحل اللحظة الحرجة، عندما يتدخل (الطفل) لإفساد كل شيء. والسبب فى ذلك هو أن (الطفل) داخل السجين يكون خائفا من خوض المغامرة، مغامرة الخروج إلى عالم الحرية الذى لايثق فيه.

وفى المستشفيات أو عيادات العلاج النفسى، يلح كثير من المرضى الذين يمارسون اللعبة على طلب السماح لهم بالخروج من المستشفى، ويظهرون تحسنا فى حالتهم وامتثالا كاملا للعلاج. وما أن يصبحوا على وشك الخروج، حتى تفاجأ المستشفى بانتكاسهم الكامل، وعودتهم إلى الحالة التى دخلوا بها المستشفى.

ولعبة «كيف تهرب من هنا..» تحتاج إلى علاج نفسى فعال، حتى يتوقف الشخص عن ممارستها.

تنويعات اللعبة:

هناك بعض التنويعات لهذه اللعبة، منها «عليك أن تسمع». فى هذا التنويع يطالب الشخص، عضو المؤسسة الاصلاحية، أو المريض بالمستشفى، بحقه فى الشكوى. وتكون الشكوى عادة حول ظواهر وهمية غير حقيقية. ويكون الهدف الحقيقى لممارس اللعبة فى هذه الحالة، هو أن يتأكد من قدرته على أن يفرض على السلطة الانصات لكلامه. فإذا ارتكبت السلطة غلطة البحث فى شكواه، والنظر فيها بشكل جدى لإثبات عدم سلامتها، ساءت حالته النفسية. وإذا استجابت السلطة لطلبه، تزايدت الطلبات وتصاعدت. أما إذا اكتفت السلطة بمجرد الاستماع، بصبر وأناة مع إبداء نوع من الاهتمام، يكون ممارس اللعبة قد حقق هدفه، ويصبح بعد

ذلك متعاونا مع السلطة ، ولايعود إلى الشكوى .

على المدير أو رئيس العمل أن يميز جيدا بين ممارس لعبة « عليك أن تسمع » ، وبين أصحاب المطالب الحقيقية من العاملين ، والتى تحتاج إلى تصرف عملى فيها .

الفصل التاسع

ألعاب حجرة الاستشارة

ألعاب حجرة الاستشارة

على محلل الألعاب المحترف أن يستثمر مايجرى فى حجرة الاستشارة النفسية من ألعاب نفسية ، أثناء العملية العلاجية . ذلك لأن علاقته بهذه الألعاب تكون مباشرة . وهناك ثلاثة أنواع من هذه الألعاب ، وفقا لتباين الممارس الأساسى فيها :

(١) ألعاب يمارسها المعالجون النفسيون والذين يتولون بحث الحالات مثل لعبتى « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » ولعبة « الطب النفسى » .

(٢) ألعاب يمارسها المرضى الخاضعون للعلاج الجماعى ، والذين تدربوا عليها تدريبا عاليا يضعهم فى مصاف المحترفين ، كما فى لعبة « بيت النباتات » .

(٣) ألعاب يمارسها المرضى العاديون ، مثل لعبة « العاجز » ، ولعبة « الساق الخشبية » .

والألعاب التى نطرحها فى هذا القسم هى :

- بيت النباتات .
- أنا لا أسعى إلا لمساعدتك .
- العاجز .
- الفلاحة .
- الطب النفسى .
- الغبى .
- الساق الخشبية .

« بيت النباتات »

فى مجال البحث العلمى ، وليكن على سبيل المثال علم النفس التجريبى ، يشيع بين المبتدئين عند الالتقاء ببعضهم البعض ، استخدام الاصطلاحات العلمية فى الحديث اليومى العادى . فيقول أحدهم للآخر « أنت تستعرض نوازعك العدوانية ..» ، أو « انظر إلى أى مدى تتحقق لديك الآلية ، فى نظام الدفاع النفسى الآلى » .. إلى آخر هذه التعبيرات .

وهذا فى حد ذاته تسلية غير ضارة ، وأحد مظاهر الخبرة الأكاديمية ، أو فائض الدراسة. والاصلاء من بين شباب العلماء يمكنهم أن يستنبطوا من هذا الحوار المتبادل متعة وتسلية .

وهذا يختلف عن جوهر لعبة « بيت النباتات » . فهناك ميل شديد بين المستجدين فى الدراسات النفسية إلى المبالغة فى احترام مايطلقون عليه أسم (المشاعر الفريدة والأصيلة) التى يمرون بها . قبل أن يصف الواحد منهم هذه المشاعر ، يبدأ بالإعلان عن قرب حلولها . بعد هذا الإعلان ، يبدأ فى وصف هذه المشاعر ، ويستعرضها أمام زملائه ، كما لو كانت زهرة ثمينة نادرة ، نمت فى (الصوبا) أو (بيت النباتات) ، يجب أن نتلقاها بحرص ورهبة . ومن ناحية أخرى ، يتلقى الزملاء هذه الكلمات باهتمام شديد وتوقير ، وينهمكون فى الحديث عنها ، كأنهم خبراء نبات فى حديقة لدراسات النبات

العلمية . وهم يثيرون التساؤلات الهامة حول هذه الزهرة النادرة ، وهل تستحق أن تعرض فى « المتحف العام للمشاعر البشرية » ! ..

عندما يحاول الطبيب النفسى المتمرس أن يقاطع هذه الطقوس المقدسة. سائلا بعض الأسئلة العلمية ، يقابل منه هذيا بالاحتجاج والرفض ، وكأنه قد مد أصابعه الفظة الباردة ، ليمزق الأوراق الهشة لهذه الزهرة التى لاتتكرر. والطبيب النفسى يشعر– عن حق– أن فهم هذه الزهرة ومعرفة تركيبها وتشريحها وطبيعتها ، يقتضى تقطيع أوصال هذه الزهرة .

هذه اللعبة يمكن أن تعوق تقدم العلاج النفسى . وعلى الطبيب النفسى أن يعتمد فى علاجه لهذه اللعبة ، على نفس السخرية والتهكم الواردين فى وصف اللعبة .

* * *

إذا سمحنا لمثل هذه اللعبة أن تستمر ، فقد تتواصل ممارستها بلا تغيير لعدة سنوات ، يشعر بعدها المريض أنه أصبح يتمتع (بخبرة علاجية) ، وأنه أصبح يعرف كيف (يعبر عن نوازعه العدوانية) ، وأنه قد تعلم (مواجهة مشاعره) بطريقة تضعه فى موقع أفضل من زملائه الذين لم يصادفهم نفس التوفيق . وإذا كانت ممارسة هذه اللعبة تتضمن بعض المزايا ، إلا أن ممارستها تعوق جهد التوصل إلى نتائج علاجية أفضل .

والمضحك ، أن هذه التعبيرات ، التى لاتصدر إلا من مبتدئى الدراسة ، لاتوجه إلى الزملاء من ممارسى اللعبة ، بل يتم استعراضها أمام الأساتذة والوسط الثقافى المحيط بهم ، والذى يشجع مثل هذه الحذلقة .

ومن المناسب فى مثل هذه الحالات توجيه بعض الملاحظات التى تتضمن التشكيك فى جدوى هذا النوع من الحوار . فقد تفيد هذه الملاحظات فى انتزاع المريض بنجاح من تأثيرات (الوالد) الزائفة ، وتخفيف حدة التركيز

على الذات فى تعامل المرضى مع بعضهم البعض .. وبدلا من أن يزرعوا مشاعرهم وينموها فى (بيت النباتات) الدافئ ، يكون عليهم أن يكتفوا بترك مشاعرهم لكى تنمو بشكل طبيعى ، وعلى أن يتم تشجيع هذه المشاعر ، فقط عند ما تكون قد نضجت تماما .

أكثر مزايا هذه اللعبة وضوحا ، هى المزايا السيكلوجية العامة أو الخارجية ، فاللعبة توفر لممارسها تجنب الألفة عن طريق عرض المشاعر بالطريقة التى تضمن عدم استجابة الآخرين لها .

« أنا لا أسعى إلا لمساعدتك »

تجرى هذه اللعبة فى أى مجال من مجالات العمل ، ولاتقتصر على أفراد جماعات العلاج النفسى ، أو العاملين فى حقل الخدمة العامة . إلا أنها تشيع بشكل ملحوظ بين العاملين فى حقل الخدمة الاجتماعية ، حيث تظهر اللعبة فى أكثر أشكالها وضوحا .

وقد تم اكتشاف هذه اللعبة على يد دكتور إريك بيرن فى ظروف خاصة جدا .

كان يراقب مجموعة من الرجال تلعب (البوكر) ، وفى أحد الأدوار انسحب الجميع ماعدا باحث سيكلوجى ، ورجل من رجال الأعمال . كانت أوراق رجل الأعمال عالية ، فرفع رهانه ، ولما كانت أوراق الباحث السيكلوجى قوية جدا ، وتصعب هزيمتها ، فقد رفع بدوره الرهان . أخذ رجل الأعمال يتطلع إلى خصمه حائرا ، فعلق الباحث ممازحا « لاتتحير .. أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » . تردد رجل الأعمال قليلا ، ثم اعتمد زيادة الرهان التى أعلنها الباحث . كشف الباحث أوراقه الرابحة ، بينما ألقى الآخر أوراقه على المنضدة فى اشمئزاز ، وتعالى ضحك الحاضرين على التعليق الذى قاله الباحث ، فقال رجل الأعمال بأسى « لقد ساعدتنى حقا ! .. » .

رمق الباحث دكتور بيرن بنظرة ذات مغزى ، تعنى أن النكتة جاءت على

حساب مهنة البحث النفسى . وبدأت تتضح معالم هذه اللعبة .

* * *

تتم اللعبة بالتتابع التالى :

يقدم أحد المسئولين فى عمل ما ، أو أحد المعالجين فى عيادة أو مستشفى ، النصيحة لمرءوس أو عميل أو مريض . بعد قليل يعود المريض (مثلا) ليبلغ المعالج أن النصيحة لم تفد فى تحسين حالته . يغصّ المعالج بفشله ، ويحاول مستسلما ـ أن يقدم نصيحة أخرى .

إذا كان المعالج دقيق الملاحظة لنفسه ، فسيكتشف داخله وخزة إحباط ، إلا أنه سيواصل محاولاته مع المريض . وهو غالبا مالايشعر بالحاجة إلى مناقشة وفحص دوافعه الذاتية فى مثل هذا الموقف ، لأنه يعلم أنه يفعل مثل مايفعل غيره من الزملاء المدربين ، وأنه فى عمله يتبع الاجراءات (السليمة) ، وانه سيضمن مساندة كاملة من رؤسائه .

إذا تم هذا الموقف فى مواجهة مريض أكثر قسوة ، كأن يكون مشبعا بنوازع العدوان ، فسيجد المعالج أن تجنب الشعور بالقصور سيصبح أكثر صعوبة . هنا تبدأ متاعب المعالج ، ويبدأ التدهور البطىء للموقف .

فى أسوأ الحالات يواجه المعالج غضب مريض مصاب بجنون الاضطهاد ، يندفع ذات يوم إلى حجرته صائحا فى غضب « انظر ، ماذا جعلتنى أفعل .. » . يتضاعف احساس المعالج بالاحباط ويصل إلى الجملة المنطوقة أو الضمنية « ولكن .. أنا لم أكن أسعى إلا لمساعدتك » . وحيرة المعالج نتيجة لإحساسه بانعدام الوفاء ، تسبب له قدرا واضحا من المعاناة . وهذا يشير إلى الدوافع المركبة الكامنة خلف سلوكه . فهذه الحيرة هى مكسب لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » ، وعائدها الأساسى

* * *

ويجب التمييز بين الذين يساعدون حقيقة ، وبين الذين يمارسون اللعبة.

يجب أن نميز بين من يقولون «أعتقد أن بإمكاننا أن نفعل شيئا بهذا الخصوص» ، أو «أنا أعرف مايجب فعله فى هذه الحالة» ، أو «لقد تخصصت فى حل هذه المشكلة» ، أو «سأتكفل بمساعدتك مقابل أجر قدره ...» ، وبين الذين يمارسون اللعبة ، فيقول كل منهم «أنا لا أسعى إلا لمساعدتك» .

الحالات الأربع الأول ، تمثل عروضا من (البالغ) لوضع المؤهلات والخبرات الحرفية فى خدمة العميل أو المريض . أما فى حالة اللعبة ، فتكون الدوافع خفية ، وتكون هذه الدوافع أكثر أهمية من المهارات الحرفية ، فى تحديد العائد أو المكسب .

من أهم دوافع اللعبة ، تأكيد وجهة النظر القائلة بأن الناس يتصفون بنكران الجميل ، لهذا فهم مخيبون للآمال . وهذا يعنى أن الهدف الأساسى لمحترف اللعبة الذى يقدم المساعدة هو أن يصل فى النهاية إلى اثبات خيبة أمله فى الناس ووصفهم بالجحود ونكران الجميل . صورة النجاح فى المهمة تشكل انذارا موجها إلى (الوالد) عند المحترف ، وهذا الإنذار يكون بمثابة دعوة إلى التخريب . النجاح فى المهمة يعتبر تهديدا للموقف بأكمله .

* * *

من المهم أن يتأكد ممارس اللعبة من أن مساعدته لن تكون مقبولة آخر الأمر ، بصرف النظر عن حماسه فى تقديم المساعدة . والعميل أو المريض يستجيب للعبة «أنا لاأسعى إلا لمساعدتك» ، بلعبة أخرى يمارسها تسمى «انظر ، كم أحاول بجد» ، أو «مع كل ما تفعل ، لن تنجح فى مساعدتى» . وممارس اللعبة الذى يتسم بالمرونة يستطيع أن يركن إلى نوع من التوفيق ، منطلقا من شعار «لابأس على الناس من أن تكون مساعدتى لهم

ناجحة ، شرط أن تستغرق هذه العملية وقتا طويلا » .

وبالطبع نجد على الجانب الآخر من اللعبة العنيفة ، الحالات السوية بين المحامين الناجحين الذين يساعدون عملاءهم فعلا ، من غير تدخل للمشاعر الشخصية .

وبعض مدارس الخدمة الاجتماعية تكون بمثابة أكاديميات أولية ، لتدريب اللاعبين المحترفين على ممارسة لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » ، ويكون من الصعب على زملائهم مقاومة اشراكهم فى اللعبة .

تنويعات اللعبة :

يساعد على تصور الأفكار السابقة بشكل أوضح ، الوصف الذى سنورده عند استعراضنا للعبة المكملة لهذه اللعبة ، وهى لعبة « العاجز » .

ولعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » تشيع بتنويعاتها المختلفة فى حياتنا اليومية . وتجرى ممارستها فى الأسرة مع الأقارب والأصدقاء على صورة «أستطيع أن اشتريها لك بسعر الجملة»، وبين البالغين الذين يقومون بأعمال الخدمة الاجتماعية للأطفال ، وهى من الألعاب المستحبة بين الآباء والأمهات . واللعبة المكملة التى يلجأ إليها الأطفال فى هذه الحالة هى لعبة « انظر ماذا جعلتنى أفعل » . ومن الناحية الاجتماعية يمكن أن نعتبرها تنويعا للعبة « المكّار » ، التى سنتحدث عنها فيما يلى .

علاج اللعبة :

فى مجال علاج هذه اللعبة . أو محاولة إيقافها ، تكون لدى المحترف أو المختص عدة حيل ، يلجأ إلى أى منها عندما يدعى إلى المشاركة فى هذه اللعبة . واختيار الأسلوب المناسب لإيقاف اللعبة وقطع حركاتها يتوقف على نوع العلاقة بين الطبيب والمريض . كما يتوقف بشكل خاص على طبيعة موقف

(الطفل) عند المريض. وتتنوع أساليب العلاج كالتالى :

(١) إيقاف اللعبة عن طريق التحليل النفسى التقليدى، وهو أكثر الوسائل نجاحا، وأشقها على ممارس اللعبة. والعلاج يبدأ برفض قطعى لممارسة اللعبة. فيبدأ المريض محاولات أكثر تكثيفا وقوة لممارسة اللعبة. وأخيرا، يصل ممارس اللعبة إلى حالة (اليأس) التى تنعكس على شكل حالة من الغضب والاكتئاب، مما يعنى أن اللعبة قد تم إحباطها بنجاح. ويقود هذا النوع من العلاج إلى مواجهة مفيدة.

(٢) وهناك أسلوب آخر، يكون أكثر رفقا بممارس اللعبة (وإن لم يتصف باللطف). وفيه تتم المواجهة عند أول دعوة لممارسة اللعبة. ما أن يطرح اللاعب مشكلة، حتى يقول الطبيب بجسم، أنه موجود للعلاج فقط، وليس لإدارة أعمال المريض.

(٣) وأكثر الأساليب لطفا هو تقديم المريض إلى مجموعة علاج نفسى جماعى، وترك فرصة المحاولة لأحد أعضاء المجموعة.

(٤) فى حالة اللاعب الذى يعانى اضطرابا حادا، يصبح من الضرورى الاشتراك معه فى ممارسة اللعبة عند مراحل العلاج الأولى. وهذا النوع من المرض لايجوز أن يتم علاجه إلا على يد طبيب مختص فى العلاج النفسى. ينصح الطبيب بنظام علاجى خاص، قد يتضمن الحمامات والتمرينات وفترات الراحة والاسترخاء، وانتظام الوجبات بالاضافة إلى بعض العقاقير. هنا، يتطور موقف المريض، كاشفا عن أحد احتمالات ثلاثة :

(أ) أن يتبع العلاج، فتتحسن حالته.

(ب) أن يسير على خطى العلاج، دون نظام، ثم يشكو من أن العلاج لا يحقق أى نتيجة إيجابية.

(جـ) أن يقول، وكأنه يتكلم عفو الخاطر، إنه نسى أن يلتزم ببعض جوانب

العلاج ، أو يقول إنه أهمل العلاج ، بعد أن تبين عدم جدواه .

فى الحالتين ب ، جـ يكون على الطبيب أن يقرر إذا ما كان المريض مستعدا لعملية تحليل الألعاب فى هذه المرحلة ، أما أنه يحتاج إلى علاج خاص ، قبل أن يمر بالعلاج النفسى .

تحليل اللعبة :

الهدف الحقيقى من هذه اللعبة ، هو التخلص من الإحساس بالذنب .

تتم اللعبة على المستوى الاجتماعى المعلن من موقف (طفل ـ والد) كالتالى :

الأول (طفل) : ماذا أفعل الآن ؟ .

الثانى (والد) : هذا هو مايجب أن تفعله .

أما على المستوى السيكلوجى الخفى ، فتتم من موقف (والد ـ طفل) كالتالى :

الأول (والد) انظر كم أنا ماهر .

الثانى (طفل) : سأقنعك بعدم مهارتك !

« العـاجز »

وصف هذه اللعبة ، جاء على لسان الكاتب هنرى ميللر فى إحدى رواياته ، عندما قال « لقد حدث خلال العام الماضى أن كنت أبحث عن وظيفة ، دون أن أقصد بالمرة الارتباط بواحدة . ورغم حالة اليأس التى كنت أعانيها ، فلم أحاول مرة واحدة أن أبحث فى باب الوظائف الخالية بالجرائد » .

تعتبر هذه اللعبة من الألعاب المكملة للعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » ، التى تشيع بين العاملين فى حقل العمل الاجتماعى والعام ، وهم يكتسبون عيشهم من ممارستها . ولعبة « العاجز » يمارسها البعض باحتراف ، ويكسبون عيشهم منها أيضا . والقصة التالية تبين طبيعة اللعبة :

الآنسة (س) تعمل فى حقل الخدمة الاجتماعية ، وبالتحديد فى مؤسسة اجتماعية تعينها الدولة ، تتخصص فى الرعاية المالية للمعوزين ، وذلك عن طريق البحث عن أعمال مجزية لهم . وفقا للتقارير الرسمية للمؤسسة كان العملاء « يبدون تقدما ملموسا .. » . لكن ، واقع الأمركان يقول إن من تم توظيفهم بنجاح هى القلة القليلة منهم .

أصبح هذا الوضع مثارا للتساؤل ، وقيل فى تفسيره إن أغلب المتعاملين مع المؤسسة ، كانوا من الحالات المزمنة ، دائمة التعامل مع المؤسسات الاجتماعية ، ينتقلون من واحدة إلى أخرى على مدى سنوات طويلة . بل كان

بعضهم يتعامل مع خمس أو ست مؤسسات فى وقت واحد ، ولذا فهم يعتبرون من فئة « الحالات الصعبة » .

كانت الآنسة (س) بحكم دراستها ، قد تدربت على تحليل الألعاب . وساعدها فى اكتشاف أن المسئولين فى هذه المؤسسة كانوا يمارسون لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك »، بشكل دائـم فتساءلت عن نوع استجابة العملاء لهذه اللعبة . ورغبة منها فى اختبار هذه الاستجابة ، عمدت إلى سؤال عملائها الذين تحتك بهم ، من أسبوع لآخر ، عن عدد فرص التوظف التى عرضت لهم . فاكتشفت أنه رغم الفرض النظرى ، الذى يقول إنهم يبحثون عن وظائف لهم بإلحاح من يوم لآخر ، كانوا فى واقع الأمر ، يعطون أقل الجهد لهذا الغرض . كما كانوا فى أحيان أخرى يتكلمون عن جهودهم هذه بشىء من التهكم والسخرية .

قال أحدهم – على سبيل المثال – إنه يرسل طلبات التوظف كل يوم على الأقل من واقع إعلانات الوظائف الخالية التى يقرأها فى الصحف . وعندما سألته (س) « ومانوع العمل الذى تبحث عنه ؟» ، قال « بائع فى محل تجارى » . سألته (س) وهل هذا هو النوع الوحيد من العمل الذى ترسل طلباتك باحثا عن فرصة العمل » ، فرد بالإيجاب . الملفت فى الموضوع أن هذا الرجل كان (يتهته) فى حديثه ، فاختار بالتحديد الوظيفة التى لايمكن أن تصلح له !.

فى ذلك الوقت ، اكتشف رؤساء الآنسة (س) ماتقوم به من استفسارات ، فقاموا بلفت نظرها ، وطلبوا منها عدم العودة إلى هذا « الضغط الذى ليس فى محله » ، والذى تمارسه على عملاء المؤسسة .

إلاّ أن (س) قررت ، رغم هذا ، أن تواصل محاولاتها لتوظيف بعضهم . واختارت من بينهم أصحهم بدنيا ، والذين ليس لديهم أى مبرر

للاقتصار فى حياتهم على إعانة البطالة . فتكلمت مع هذه المجموعة حول لعبتى «أنا لا أسعى إلا لمساعدتك» ، و«العاجز». وعندما أحست أنهم قد تفهموا الموضوع ، أكدت لهم أنه إذا لم يستقروا فى عمل ما ، فستضطر إلى قطع إعانة البطالة عنهم ، وتحويلهم إلى مؤسسة أخرى . وكانت النتيجة أن ارتبط أغلبهم بوظائف على التو، وكان من بينهم من لم يرتبط بعمل لعدة سنوات.

إلا أن هذا لم يمنع سخطهم على تصرفها ، فأرسل بعضهم خطابات إلى رؤسائها ، يشكون من تصرفها . استدعاها رئيسها ، ولامها بشكل أكثر قسوة ، وأفهمها أنه بالرغم من أنها نجحت فى تدبير وظائف لعملائها ، وأنهم أصبحوا يمارسون علملا يوميا ، إلا أن ماحدث لايمكن اعتباره «توظيفا حقيقيا» !.

وتتابع الصراع بعد ذلك بين الآنسة (س) وقيادة المؤسسة ، إلى أن قال لها رئيسها إن وضعها فى المؤسسة قد أصبح مزعزعا ، يعرضها للفصل فى أى لحظة . فحاولت الآنسة (س) ، متجنبة مغامرة فقد وظيفتها ، أن تشرح بحرص ولباقة فكرتها عن موقف المؤسسة والعاملين فيها من معنى «التوظيف الحقيقى»، لكنها فشلت ، ووصفت جهودها بأنها نوع من ممارسة «الضغط غير اللائق» على عملائها ، وأن كون هؤلاء العملاء أصبحوا يعولون أسرهم من عملهم لأول مرة منذ سنوات طويلة ، يحسب عليها وليس لها .

أصبحن الآنسة (س) الآن مهددة بالفصل ، ولما كانت تحتاج إلى وظيفتها فى المؤسسة ، فقد حاول بعض اصدقائها من مجال الدراسات النفسية مساعدتها ، فأرسل مدير وحدة العلاج النفسى خطابا إلى رئيسها ، قائلا إنه سمع بالدراسات التى تقوم بها مع عملائها ، ويستأذن فى أن يسمح لها بمناقشة نتائج دراستها فى مؤتمر يعقد بوحدة العلاج النفسى . فرفض الرئيس منحها الإذن بذلك .

تحليل اللعبة :

فى هذه القصة ، وضعت المؤسسة قواعد لعبة « العاجز » ، لتكمل بها قواعد لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » . وكأن اتفاقا تكتيكيا قد تم بين المؤسسة وعملائها على النحو التالى :

المؤسسة : سأحاول أن أساعدك (بشرط ألا يتحسن وضعك) .

العميل : سأبحث عن عمل (بشرط ألا أرتبط به) .

فإذا أخل أحد العملاء بالاتفاقية ، فسمح لحالته بأن تتحسن فعلا ، ستفقد المؤسسة عميلا ، وسيخسر العميل إعانة البطالة ، فيشعر الطرفان أنهما قد عوقبا . وعندما يمزق أحد العاملين فى المؤسسة بنود هذه الاتفاقية ، كما فى حالة الآنسة (س) ، ويوجد عملاً فعليًا للعميل تشعر المؤسسة أنها عوقبت عن طريق شكوى العملاء التى قد تتوجه إلى سلطات أعلى ، بينما يشعر العميل أنه خسر إعانة البطالة .

وطالما التزم الطرفان بالقواعد الضمنية ، حصل كل منهما على مايريده . يقبض العميل إعانته ، ويتعلم على الفور ماتطلبه منه المؤسسة فى مقابل هذا ، وهو « أن يتظاهر بسعيه لحل المشكلة ، ولكن دون أن يصل فعلا إلى حل حقيقى » . وهو بذلك ، يسمح للمؤسسة أن تجمع المادة الضرورية لتقديمها إلى مؤتمرات العاملين ، التى تبحث فى البطالة ووسائل التوظيف ، من واقع خبراتها مع العملاء . لكن موقف الآنسة (س) كان مختلفا ، فهى تريد « ان تحل المشكلة فعلا » ، بدلا من « التظاهر بالعمل لحلها ». وهى قد اقترحت مؤتمرا يناقش أوضاع « العاملين » ، بدلا من مناقشة أوضاع « العملاء » . وهذا هو ما أزعج كافة الأطراف المشاركة فى الألعاب .

من هذا تتضح ملاحظتان : الأولى هى أن « العاجز » كلعبة ، وليس كحالة ناتجة عن العجز البدنى أو العقلى أو الاقتصادى ، تمارسها نسبة معينة

من عملاء مؤسسات الخدمة الاجتماعية . والثانية . أنها لاتحقق إلا بوجود العاملين فى المؤسسة الذين يمارسون لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » .

تنويعات اللعبة :

من نظائر هذه اللعبة ، لعبتى « المسرّحون » و « العيادة » . ولعبة « المسرّحون » الذين عادوا من الحرب وأنهوا خدمتهم العسكرية ، تحمل نفس العلاقات الرمزية للعبة « العاجز » . وتجرى هذه المرّة ، بين إدارة المسرحين بالجيش أو غير ذلك من المؤسسات الشبيهة ، وبين عدد من المسرحين المحترفين ، الذين يطمعون فى مقاسمة ضحايا الحرب العاجزين حقوقهم الشرعية .

أما لعبة « العيادة » ، فتمارسها نسبة معينة من المترددين على العيادات الخارجية للمستشفيات العامة ، وفى هذه الحالة لايحصل ممارس اللعبة على تعويضات أو اعانات مالية ، ولكنه يحصل على بعض المزايا الأخرى .

علاج اللعبة :

يكون علاج هذه اللعبة بسحب مكاسبها . وهنا ، لا يأتى الخطر من المريض نفسه ، كما فى أغلب الألعاب ، ولكن من الجهات المسئولة التى تقدم المساندة الثقافية لمن يمارسون اللعبة ، وبمعنى أدق ، تلك الجهات التى تمارس لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » . وهذا يمكن أن يتوفر فى الأساتذة والجمهور المثقف ومؤسسات الخدمة والرعاية الحكومية ، والاتحادات والنقابات التى تعمل على حماية الفئات المختلفة .

« الفلاَّحــة »

النموذج النمطى لهذه اللعبة يتضمن واقعة فريدة . بطلتها فلاحة بلغارية مصابة بداء التهاب المفاصل وقد باعت بقرتها الوحيدة ، ليتوفر لها المال اللازم للسفر إلى العاصمة صوفيا ، وزيارة العيادة الجامعية بها . اختبر الطبيب الأستاذ حالتها ، فوجد أنه بصدد حالة مثيرة من الناحية الطبية ، تستوجب تقديمها فى عرض علاجى أمام طلبته فى الجامعة . لم يكتف الأستاذ بتحديد طبيعة المرض ، وأعراضه ، وكيفية تشخيصه ، بل حدد لها العلاج الكامل الذى يؤدى إلى الشفاء . نتيجة لهذا الاهتمام غير العادى من جانب الأستاذ ، افعمت فلاحتنا بعرفان الجميل والامتنان . وقبل أن تغادر العيادة ، سلمها الأستاذ (الروشتة) ، وشرح لها فى تفصيل دقيق طريقة إتمام العلاج .

هنا ، تملكها الإعجاب المتزايد بالأستاذ ، لعلمه ومعرفته وإخلاصة لعمله ، فصاحت « يالله .. كم أنت عظيم أيها الأستاذ .. » .

على أى حال ، عندما عادت الفلاحة إلى قريتها ، لم تبذل أى جهد لتنفيذ العلاج الذى أشار به الأستاذ . لقد عادت إلى قريتها دون أن تشترى الدواء ، مع علمها بعدم وجود صيدلية فى القرية ، وحتى إذا وجدت الصيدلية ، فهى ليست مستعدة لأن تفقد الوثيقة الثمينة التى تعتز بوجودها فى حوزتها (الروشتة) بالإضافة إلى أنها ـ لظروفها المالية ـ لاتستطيع الالتزام

بباقى العلاج ، من نظام غذائى خاص ، إلى علاج بالمياه المعدنية ، إلى غير هذا من المسائل المكلفة .

استمرت حياة الفلاحة كما كانت من قبل ، تعرج فى مشيتها ، إلا أنها الآن أكثر سعادة من أى وقت مضى ، فبإمكانها أن تحكى لكل من يصادفها ، عن العلاج العظيم الذى وصفه لها الأستاذ الكبير فى صوفيا ، الذى تكن له كل تقدير وعرفان بالجميل ، وتذكره فى صلاتها كل مساء قبل النوم .

تمر عدة سنوات ، ويكون الأستاذ فى طريقه لعيادة عميل ثرى خارج صوفيا ، فيتوقف عند قرية فلاحتنا . تندفع الفلاحة نحو الطبيب ، تذكره بالعلاج العظيم الذى وصفه لها ، فيتذكرها ، ويتقبل اعترافها بفضله شاكرا . وتتضاعف سعادته عندما تخبره بأن تشخيصه والعلاج الذى وصفه كان فعالا للغاية . وكان الأستاذ على درجة من الانفعال ، لم تتح له أن يلاحظ مشية الفلاحة ، التى كانت على نفس القدر من السوء الذى كانت عليه منذ سنوات .

* * *

وتجرى ممارسة لعبة « الفلاحة » اجتماعيا بشكلين ، أحدهما برىء والآخر مخادع . وفى الحالتين تتم من منطلق « يالله كم أنت عظيم يا استاذ » .

فى الشكل البرىء ، يكون الأستاذ عظيما فعلا . من صنّاع الخير ، أو من رجال العلم ، أو من كبار كتّاب القصة . تتدافع إلى لقائه النساء الساذجات ، يقطعن المسافات الطويلة ، بأمل لقائه ، والجلوس عند قدميه ، فى حالة من الاعجاب الشديد . وهن يسعين دائما إلى تزيين وتجميل نواقصه بشكل رومانتيكى . والنساء الأكثر ثقافة ، يعجبن به ويقدرنه ، ويحاولن إنشاء علاقات

معه ، أو الزواج منه إذا أمكن ، رغم أنهن يكن واعيات بنقط ضعفه . وهن يلجأن إلى تسخير نقط الضعف هذه لتحقيق مآربهن . أساس اللعبة عند هذين النوعين من النساء ، هو تزيين النواقص ثم استغلالها .

وفى الشكل المخادع من اللعبة ، قد يكون الأستاذ عظيما وقد لا يكون ، ويقع بين يدى امرأة لعوب ، تعجز عن تقدير مزاياه الفعلية ، ولكنها تلعب معه « يا لله .. كم أنت عظيم أيها الأستاذ » ، كنوع من النفاق ، والمديح الكاذب ، بهدف تحقيق أغراضها . وسواء كانت منبهرة به ، أو ساخرة منه ، فهى فى الحالتين لا تهتم بشخصه ، قدر اهتمامها بالمكاسب التى تتحقق لها من صحبته .

* * *

وتجرى لعبة « الفلاحة » فى مجالات العلاج النفسى والبدنى ، بشكلين بهما بعض أوجه الشبه من الشكلين السابقين ، من منطلق « يالله .. كم أنت عظيم يا أستاذ » .

فى الشكل البرىء ، تمضى المريضة متطورة إلى الأفضل ، طالما كانت تمارس اللعبة ، وتؤمن بها . وهذا يفرض على الطبيب المعالج أن يكون حسن التعامل مع الناس فى حياته الخاصة والعامة ، حتى تستمد المريضة من هذا التفوق دليلا على « عظمة الأستاذ » .

وفى الشكل المخادع ، تقبل المريضة على الطبيب ، وقد اعتزمت أن تدفعه إلى أن يتقبل ممارسة لعبتها « يالله .. كم أنت عظيم يا استاذ » ، ومن ثم يفكر فيها باعتبارها إنسانة (ذكية ومتفهمة للأمور بشكل غير عادى) . ومتى تم لها ذلك ، تقوم بما يجعله يبدو أحمقا ، ثم تنصرف بناء على هذه الحماقة التى بدرت منه إلى طبيب آخر لتمارس معه نفس التتابع . فإذا تنبه الطبيب إلى لعبتها ، وفشلت فى خداعه ، ربما أصبح قادرا على مساعدتها فى التخلص من

ممارسة اللعبة . وأسهل طريقة تتيح للمريضة أن تستمر فى ممارسة لعبتها ، هى أن تحتفظ بحالتها دون تحسن ملموس .

إذا كانت المريضة أكثر خبثا ، فقد تتخذ خطوات أكثر إيجابية ، حتى تجعل الطبيب يبدو أكثر حمقا . وفى إحدى الحالات كانت المرأة تلعب « يا الله .. كم أنت عظيم يا استاذ » مع طبيبها النفسى ، دون تحسن فى حالتها ، ودون أن تبدى أى استعداد لتخفيف تمسكها باللعبة . وعندما استنفذت مراحل لعبتها مع الطبيب ، تركته دون سابق انذار ، لم تنس أن تؤكد شكرها الشديد على مابذله نحوها من جهد . ثم ذهبت إلى قسيس العائلة تطلب معونته ، ومارست معه نفس اللعبة . وبعد عدة أسابيع بدأت تحاول غوايته ، ممارسة لعبة « الاغتصاب » من الدرجة الثانية ، تركته منصرفة إلى بيتها ، لكى تجتمع بجاراتها ، وتحكى لهن هامسة كيف أنها تكدرت جدا ، لأن رجلا لطيفا مثل قسيس العائلة ، يمكن فى لحظة ضعف أى يحاول مغازلة امرأة بريئة غير جذابة مثلها . ثم تقول إنها قد عفت عنه ، من أجل زوجته التى تصادقها ، وحتى لا ... إلى آخر هذا الكلام . هذه المرأة كسبت مع الطبيب بعدم تحسن حالتها ، ومع القسيس بإغوائه . وفى الحالتين ترفض أن تعترف لنفسها بالدوافع الخفية لتصرفاتها .

إلا أنها وصلت فى نهاية الأمر إلى طبيب نفسى ، قدمها إلى مجموعة علاج نفسى جماعى ، فأصبح من الصعب عليها أن تقوم بمناوراتها السابقة ، وحرمها من ممارسة « ياالله .. كم أنت عظيم يا أستاذ » و « الاغتصاب » ، حتى لاتنشغل بهما وقت العلاج . هنا فقط ، بدأت تمتحن سلوكها بشكل أدق ، وأقلعت عن لعبتها بمساعدة المجموعة العلاجية .

علاج اللعبة :

عند علاج هذه اللعبة ، يجب على الطبيب أن يتثبت فى بداية الأمر من

نوع اللعبة التى تمارسها المريضة إذا كانت من النوع البرىء ، يتركها تمارس لعبتها لبعض الوقت ، إلى أن ينتهى من دعم (البالغ) فيها بشكل سليم ، حتى يتجنب مخاطر إيقاف اللعبة بشكل باتر.

فإذا لم تكن اللعبة بريئة ، وجب على الطبيب أن يسارع بإيقافها عند أول فرصة متاحة ، بعد أن يكون قد أعد مريضته ، حتى تتمكن من فهم ماىجرى معها . الخطوة التالية يرفض فيها الطبيب تقديم أى نصائح للمريضة ، رغم كل وسائل الاحتجاج التى قد تبديها . وتتوقف الخطوات التالية من العلاج على نتائج الخطوة السابقة . وبشكل عام يكون هدف الطبيب فى حالة اللعبة غير البريئة ، هو الفصل بين (البالغ) و (الطفل) المنافق داخل المريضة ، حتى يتمكن من اجراء تحليل اللعبة .

« الطب النفسى »

يجب أن نفرق بين الطب النفسى كإجراء علاجى ، وبين « الطب النفسى » كلعبة .

ويعتمد الطب النفسى فى علاج المرضى على عدة أساليب ، مثل العلاج بالصدمة ، والتنويم ، والعقاقير والتحليل النفسى ، والتقويم النفسى العلاجى ، والعلاج الجماعى بالإضافة إلى بعض الأساليب الأخرى الأقل استخداما ، جميع هذه الأساليب ، تتسلل إليها لعبة « الطب النفسى » . ويسعى الطبيب ممارس هذه اللعبة إلى أن يلوح بشهاداته ، رافعا شعار « أنا المعالج الشافى » ، فهو يرى أن شهاداته تثبت أنه الشافى . فى الأحوال العادية ، يمكن أن تنظر إلى هذه اللعبة باعتبارها من الألعاب البناءة ، التى تعمق نوازع الكرم والرغبة فى تقديم الخدمات . وإذا كان ممارس اللعبة على درجة مناسبة من الإعداد الفنى الحرفى فى تخصصه ، يمكنه أن يحقق من ممارسة اللعبة ، الكثير من النتائج الطيبة .

إلا أن الممارسة المنحرفة لهذه اللعبة ، قد تضر بمصلحة المريض . فهناك قول مأثور يشيع بين طلبة الطب ، يقول « أنا أعالجهم ، لكن الله هو الذى يشفيهم » ، وهو قول يجعل العملية العلاجية أقرب إلى الاعتدال . إلا أن العاملين فى حقل العلاج النفسى من غير الأطباء ، قلما يؤمنون بمثل هذا القول

المأثور. ويكون شعارهم هو «أنا الشافى، لأن هذه الشهادة تقول إننى الشافى»، وهذا الموقف يتسبب فى بعض الأضرار. ولتلافى هذه الأضرار يجب أن يتحول شعارهم» سأحاول تطبيق كل المعارف التى استوعبتها عن اجراءات العلاج النفسى، على أمل أن تكون ذات نفع لك». ومثل هذا الموقف المعدّل يحمى الطبيب من الدخول فى الألعاب المبنية على فكرة «طالما أننى الشافى، إذا لم تتحسن حالتك فهذه غلطتك أنت»، أو التى يلعبها المريض ويقول «طالما أنك الشافى، فحالتى ستتحسن لأجل خاطرك»، وهو جوهر لعبة «الفلاحة».

هذا الموضوع، يدركه بوضوح كل صاحب ضمير يقظ فى مجال العلاج النفسى، وبخاصة من مارسوا العمل فى العيادات النفسية ذات السمعة الطيبة.

* * *

ومن ناحية أخرى، تشيع لعبة «الطب النفسى» بشكل أوسع، بين المرضى الذين أدمنوا التردد على الفاشلين من المعالجين النفسيين، الذين لا يتسمون باللياقة أو الكفاءة. وبعض هؤلاء المرضى يبذلون جهدا كبيرا فى انتقاء أقل المحللين النفسيين من حيث المستوى والكفاءة، مبررين تصرفهم هذا، بأنهم يبحثون بدقة عن المحلل النفسى القادر على علاجهم. وهم من خلال هذه المحاولات يتعلمون أكثر فأكثر، كيف يمارسون لعبة «الطب النفسى» بحذق وإجادة.

نتيجة لهذا تسوء حالة المريض، وتعامله المزدوج يتضمن موقفين:

(البالغ) الذى يقول، أنا قادم لكى أشفى من مرضى.

و (الطفل) الذى يقول، لن تستطيع شفائى، لكنك ستعلمنى كيف

أكون أكثر مرضا (أو بمعنى آخر ، أكثر مهارة فى ممارسة لعبة « الطب النفسى ») .

تنويعات اللعبة :

كذلك يجرى أداء لعبة « الصحة العقلية » بنفس الطريقة . فى هذه اللعبة يقول (البالغ) فى المريض ، «كل شىء سيتحسن ، إذا ما أنا طبقت مبادئ الصحة العقلية التى قرأت وسمعت عنها » ، وقد يتعلم المريض قواعد لعبة « الطب النفسى » من طبيب ما ، ثم يتعلم « الصحة العقلية » من طبيب آخر .

فى إحدى الحالات التى ينطبق عليها الوصف السابق ، عندما قام الطبيب بمناقشة الموضوع مع المريضة بصراحة كاملة ، وافقت على عدم ممارسة لعبة « الصحة العقلية » ، لكنها طلبت السماح لها ، بمواصلة ممارستها للعبة « الطب النفسى » ، لما توفره لها من إحساس بالراحة . وافق الطبيب . فاستمرت فى ممارسة اللعبة لعدة شهور مع جلسات علاجية تستعيد فيها احلامها وتشرحها ، وتتكلم عن تفسيراتها مرة كل أسبوع . فى النهاية ــ وربما بدافع العرفان بالجميل ــ طلبت أن تعرف بالضبط ماهى حقيقة أمرها . وهكذا ، أصبحت مهتمة بمساندة الطبيب فى إتمام العلاج ، فحققت نتائج طيبة .

ومن تنويعات لعبة « الطب النفسى » ، لعبة أخرى تعرف باسم « عالم الآثار » . وتعتمد هذه اللعبة على الاجترار لأحداث الطفولة . وكذلك لعبة «التعبير عن النفس» ، التى تشيع فى كثير من جلسات العلاج النفسى الجماعى ، والتى ترفع شعار «كل المشاعر طيبة .. » ، وكلما وصف المريض مشاعره بطريقة أكثر إباحية ، كلما قوبل بالمزيد من التصفيق والاستحسان . ومجموعات العلاج المدربة تكون قادرة على اكتشاف مثل هذه اللعبة بسرعة .

ومجموعات العلاج النفسى الجماعى تكون فى كثير من الأحيان على درجة عالية من التدرب على اكتشاف ألعاب « الطب النفسى » ، ويمكن لأفراد

هذه الجماعات أن يحددوا لكل مريض ، فى أقل وقت ، نوع اللعبة التى يمارسها سواء كانت « الطب النفسى » أو « تحليل التعاملات » ، والتى يسعى إلى ممارستها لكى يتجنب الاستجابة لإجراءات العلاج الجماعى .

وقد حدث أن انتقلت امرأة من مجموعة للتعبير عن الذات فى مدينة ما ، إلى مجموعة أخرى أكثر خبرة وتدريبا فى مدينة أخرى ، فشرعت تحكى عن قصة علاقة آثمة فاحشة فى طفولتها ، متطلعة إلى عيون الآخرين . وبدلا من أن تقابل بالانبهار الذى تعودته فى مدينتها كلما حكت مثل هذه القصة، لقيت عدم الاهتمام بقصتها من المجموعة الجديدة ، مما أثار غضبها . وقد أدهش هذه المرأة اكتشافها أن المجموعة الجديدة ، كانت أكثر اهتماما بغضبها ، من اهتمامها بالفاحشة التى روتها . فأعلنت بصوت غاضب ، رأيها فيهم ، والذى يمثل فى منطقها منتهى الإهانة ، والذى يفيد أنهم ليسوا من « الفرويديين » !.

وحديثا تم الكشف عن تنويع جديد للعبة « الطب النفسى » ، يطلق عليه اسم « قل لى هذا .. » ، وهو شىء أقرب إلى برامج مسابقات (عشرون سؤالا) . يحكى المريض عن حلم أو واقعة حدثت له ، ويحاول باقى المجموعة - فى حضور الطبيب المعالج غالبا - أن يفسروا الحلم أو الواقعة عن طريق توجيه الأسئلة المناسبة . وكلما أجاب المريض عن سؤال ، وجهت إليه مجموعة أسئلة جديدة ، حتى يتوقف المريض عند سؤال معين فلا يجيب . هنا ، يفجع صاحب السؤال ، ويوجه للمريض نظرة ذات مغزى ، تقول رغم الصمت .. آه .. إذا استطعت الإجابة عن (هذا) السؤال ، ستتحسن حالتك بكل تأكيد ، وهكذا أكون قد أديت الواجب الذى (يخصنى) .. » .

ويمكننا أن نلتمس فى هذه اللعبة قرابة بعيدة مع لعبة « لماذا لا .. نعم ولكن .. » .

بعض المجموعات العلاجية تقوم نشاطها أساسا على مثل هذه اللعبة ، وقد

يمتد هذا النشاط لعدة سنوات ، دون أقل تقدم . ولعبة « قل لى هذا .. » ، تقدم فرصا أوسع للمريض يمارس فيها ألعابه . وهو إما أن يستمتع بممارسة هذه اللعبة ، رغم أنه فى داخله يؤمن بعدم جدواها ، أو يقاومها بأن يجيب عن جميع الأسئلة المطروحة عليه ، فتغضب المجموعة ، إذ أن تصرفه هذا يحمل معنى قوله لهم « لقد أجبت على جميع أسئلتكم ، ولكنكم فشلتم فى علاجى .. فأى أناس أنتم ؟ !.. » .

ولعبة « قل لى هذا ... » تجرى ممارستها أيضا فى الفصول الدراسية بالمدارس . وهنا ، يدرك التلاميذ أن الإجابة على السؤال الذى يطرحه المدرس لايجب أن تكون كاملة وقاطعة وسليمة تماما ، بل لابد من الالتجاء إلى التخمين الذى يتيح تعدد الإجابات ، مع مدى قربها أو بعدها عن الإجابة الصحيحة الكاملة ، وأنه بهذه الطريقة تكون سعادة المدرس أوفر .

« الـغبى »

تجرى لعبة «الغبى»، فى أخف أشكالها على صورة «فلنضحك معا، على غلاظتى وغبائى» . أما المرضى الذين يعانون من اضطراب حقيق ، فلعبونها بطريقة متشائمة على صورة « أنا غبى ، هذه هى حقيقة أمرى .. فهلا فعلت لى شيئا ..» . وفى الحالتين تتم اللعبة من منطلق الاكتئاب . ويجب التفريق بين لعبتى « الغبى » و « المكّار » ، والتى تكون دوافعها أكثر عدوانا ، وحيث تكون الغلاظة أو الجلافة وسيلة للحصول على الغفران .

الموقف الحرج فى لعبة « الغبى » ، نصل إليه عندما يطلب المريض من الطرف الآخر فى اللعبة أن يصفه قولا وتصريحا بالغباء ، وإن يتصرف معه على هذا الأساس . وهنا يتفق تصرف المريض مع تصرف الذى يمارس لعبة « المكّار » ، لكن بدون طلب الغفران . والعكس هو الصحيح ، فالغفران يسبب لممارس لعبة « الغبى » قلقا وضيقا ، لما فيه من تهديد بتوقف اللعبة .

يوجد فى هذه اللعبة مكسب خارجى ملحوظ ، فكلما قصّر ممارس اللعبة فى تعليمه أو فى فهمه للأمور ، كلما استطاع أن يواصل اللعبة بشكل أفضل . إنه بهذا يقنع نفسه أن تعلمه فى المدرسة ، أو اكتسابه خبرة جديدة فى العمل ، ليس أمرا حتميا ، لقد تعلم ــ منذ صغره ــ أن الجميع يصبحون أكثر سعادة ، طالما بقى هو على حالة من الغباء . والغريب أنه فى الحالات التى يضطر فيها أن يظهر على حقيقته ، يفاجئ الجميع بأنه ليس غبيا بالمرّة .

علاج اللعبة :

علاج الحالات الخفيفة من ممارسى هذه اللعبة يكون بسيطا . ويتم بالامتناع عن ممارسة اللعبة ، وبعدم السخرية من غلاظته وغبائه . وممارس لعبة « الغبى » الذى يشفى من ممارسة اللعبة نتيجة لمثل هذا التصرف من الطرف الآخر ، يصبح ـ فى أغلب الأحيان ـ من أخلص أصدقاء الطرف الآخر ، على مدى الحياة .

وفى الحالات الأشد ، يصعب على الطرف الآخر أن يكتشف خديعة المريض ، عندما يطلب منه المريض أن يسخر من غبائه . ويصعب أن يمتنع الطرف الآخر عن المشاركة فى السخرية . فالمريض يعطى إحساسا بأنه يستنكر أى امتناع عن السخرية . وهو يفعل ذلك لأن الامتناع معناه التهديد بتوقف ممارسة اللعبة .

وعندما يصل المريض إلى حالة الاكتئاب ، نراه يصب هجومة على كل الذين سخروا من غبائه بشكل مكشوف . هنا فقط ، يدرك الممتنعون أنهم كانوا يتخذون أسلم المواقف . والذى يمتنع عن الاستجابة للمريض ، ويتجاهل نداءه الملح بالسخرية منه ، قد يصبح الشخص الوحيد الذى يلجأ إليه المريض عندما يشفى من ممارسة لعبته ، لينشئ معه صداقة حقيقية بينما ينظر إلى (الأصدقاء) القدامى ، الذين شاركوا فى السخرية من غبائه ، باعتبارهم من ألد الأعداء !..

وتصور امكان علاج المريض ، بإقناعه أنه ليس غبيا بالمرة ، يعتبر تصورا خاطئا . قد يكون المريض بالفعل على شىء من الذكاء ، وقد يدرك هو هذه الحقيقة ، لكن حالته النفسية تدفعه دفعا إلى ممارسة اللعبة . وعادة ماتكون لدى ممارس لعبة « الغبى » بعض جوانب التفوق ، بأن يكون مثلا صاحب بصيرة سيكلوجية . وليس ضارا أن يحاول البعض ابداء تقديرهم لجوانب

تفوقه ، ولكن الأمر هنا يختلف عن المحاولة الفجة ، التى تستهدف (تأمينه) ، بإفهامه أنه ليس غبيا بالمرة . فمثل هذه المحاولة تؤدى إلى سعادة المريض ، عند تحققه من أن الآخرين لا يقلون عنه غباء !. والمعالج الذى يعمد إلى « تأمين » المريض كخطوة علاجية ، لا يمكن أن يوصف بالذكاء ، بل يكون عادة ممارسا للعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » .

وكذلك ، لايكون إيقاف لعبة « الغبى » ، بأن تستبدل بلعبة أخرى جديدة ، إنما يكون بالامتناع عن المشاركة فى اللعبة .

أما علاج اللعبة فى شكلها الخبيث ، فيكون أكثر تعقيدا . لأن المريض ، فى هذه الحالة ، لايكتفى باستدرار الضحك والاستهزاء به ، لكنه يحرص على إشعار الآخرين بالضياع والغضب . وهو عادة مايستثمر هذا الموقف ليعرض تحديه قائلا « إذا كان الأمر كذلك .. فافعل شيئا فى حالتى » محققا مكسبه فى الحالتين .

إذا عجز الآخرون عن فعل أى شىء فذلك لأنهم يشعرون حياله بالضياع ، وإذا عجزوا عن فعل أى شىء ، فهذا يعنى احساسهم بالغضب . ويميل الآخرون فى مثل هذه الحالة إلى ممارسة لعبة «لماذا لا .. نعم ، ولكن ..» ، والتى يحصلون فيها على نفس مكاسب اللعبة وبشكل أخف . والحل الحقيقى لممارس اللعبة بهذا الشكل ، لايمكن أن يتم دون دراسة عميقة للآليات السيكلوجية لهذه اللعبة .

« الســاق الخشــبية »

يقول منطوق لعبة « الساق الخشبية » ، ماذا تتوقع من رجل يسير على ساق خشبية ؟!.. وعندما توضع اللعبة على هذه الصورة ، يصبح الحل الوحيد هو وضع الشخص فى مقعد متحرك ، على أن يقوده بنفسه ، وبدون مساعدة . ونحن نرى فى حياتنا اليومية الكثير من أصحاب العاهات الفعلية ، والذين يتجاوزونها ، طامحين إلى ممارسة كافة أوجه النشاط البشرى الطبيعية . لقد كان من بين ضحايا الحرب العالمية الثانية جنديا فقد إحدى ساقيه ، وكانت له بالفعل ساقا خشبية . لكنه اعتاد أن يقدم عرضا مثيرا للرقص العنيف، يتفوق فيه على الأصحاء. كما أن هناك الكثيرين ممن فقدوا بصرهم، وصمموا على النجاح فى كثير من المهن ، كالمحاماة أو النشاط السياسى أو العزف الموسيقى .

وأكثر أشكال اللعبة مأساوية يتحقق فى تنويع من تنويعات هذه اللعبة ، يطلق عليه اسم « ادعاء الجنون » ، وممارسى هذه اللعبة يقول لسان حاله : ماذا تتوقعون من شخص على هذه الدرجة من الاضطراب العاطفى ؟.. ماذا تتوقعون غير قتله للناس ؟! . ويكون مطلوبا من المحكمين أو المحلفين أن يقولوا : بالتأكيد لاشىء ، يبدو أنه من الصعب أن نمنعك من هذا ... ولعبة « ادعاء الجنون » كلعبة قانونية ، تشيع فى أوساط المثقفين الأمريكيين . وهى

تختلف طبعا عن المبدأ المقبول عالميا ، والذى يقول بعدم مسئولية المصاب بأمراض نفسية حادة عن تصرفاته .

وفى حالة لعبة « الساق الخشبية » ، يحسن ألا نتدخل ، طالما أن الشخص يبدى قبولا لعاهته ، سواء كانت حقيقية أم وهمية . أما إذا تقدم للعلاج النفسى ، لابد أن نبدأ فى التساؤل عما إذا كان يستخدم عاهته على حساب فرص التقدم فى حياته ، أم أنه يحاول الارتفاع فوق مستوى عاهته أو قصوره .

وفى بلد مثل أمريكا ، يكون على الطبيب أن يقوم بعمله فى مواجهة ، رأى عام متفلسف واسع . فحتى أقارب المريض ، وأقرب الناس إليه ، الذين يداومون الشكوى من المضايقات التى يصادفونها نتيجة لعاهته ، حتى هؤلاء نراهم ينقلبون على الطبيب إذا تحسنت حالة المريض . وهذا التناقض يفهمه جيدا محلل الألعاب ، لكن هذا الفهم لايخفف مايصادفه من مضايقات . أما فى حالة الأطباء الذين يمارسون هم لعبة « أنا لا أسعى إلا لمساعدتك » ، فنراهم يظهرون انزعاجا عندما تتوقف اللعبة ، وتتحسن حالة المريض . وفى بعض الأحيان يعمدون إلى اتخاذ اجراءات لايمكن تصديقها ، لإعاقة العلاج .

وقد سبق أن صورنا أطراف هذه اللعبة ، عند حديثنا عن الآنسة (س) ، والعميل المصاب بقصور فى النطق ، فى لعبة « العاجز » . لقد لجأ هذا الرجل إلى لعبة « الساق الخشبية » ، بشكلها التقليدى . كان فى امكانه العثور على وظيفة تناسب عاهته ، إلا أن الوظيفة الوحيدة التى سعى إليها بحماس هى وظيفة بائع ، يكون الكلام عنصرا أساسيا فيها .. هو كمواطن حر ، يكون من حقه أن يبحث عن العمل الذى يعجبه ، لكن تعمده اختيار وظيفة البائع رغم اعتلال نطقه ، تثير الشك فى براءة دوافعه .

أما إذا وقع المريض ـ لسوء حظه ـ فى طبيب نفسى يمارس نفس اللعبة ، وبنفس ادعاء العجز ، فالعلاج يصبح هنا مستحيلا .

ومن الحالات التى يسهل علاجها ، حالة المريض الذى يعانى « ادعاء ايديولوجى » ، مثل قوله : ماذا تتوقع من رجل يعيش فى مجتمع مثل مجتمعنا ؟. وقد مزج أحد المرضى بين هذه الحالة ، وحالة « ادعاء المرض الجسدى النفسى » ، فيقول لسان حاله : ماذا تتوقع من رجل تظهر عليه أعراض المرض الجسدى النفسى ؟. وهو فى تردده على عيادات العلاج النفسى ، يجد من الأطباء من يقرونه على أحد الادعائين ، وربما مع رفض الادعاء الآخر . وهو يستغل عدم عثوره على الطبيب الذى يقبل الادعائين معا ، فى تنمية القلق الذى يشعر به ، بحيث يخرج آخر الأمر بالحقيقة التى يسعى إليها وهى أن : العلاج النفسى لايساعد الناس .

من بين الادعاءات التى يطرحها المرضى لتبرير سلوكهم العارض ، الإصابة بالبرد ، أو الصداع ، أو مواجهة ضغوط الحياة اليومية المعاصرة . والمريض المتعلم لايجد صعوبة فى الوصول إلى السلطات التى تحميه ، وتتيح له مواصلة لعبته . وهو قد يقول : « أنا أدمن الخمر لأننى ايرلندى يعيش فى أمريكا » ، أو يقول : « لم يكن يحدث لى هذا لو أننى أعيش فى تاهيتى » .

وهناك بعض الادعاءات الأقل بساطة فى تكوينها مثل : ماذا تتوقع من رجل : (١) نشأ فى عائلة مفككة ، (٢) مريض بالاختلال العصبى ، (٣) يخضع للتحليل النفسى ، (٤) يعانى من مرض يسمونه إدمان الخمر . وعلى رأس هذه الادعاءات المتحذلقة قول المريض : إذا لم أواصل ممارسة اللعبة ، سيصبح من المستحيل الوصول إلى تحليل دوافعها ، ومن ثم يصبح علاجى مستحيلا !.

والوجه الآخر للعبة « الساق الخشبية » يسمى لعبة « الريكشو » ، وهى

العربة التى تستخدم فى نقل الأشخاص باليابان . وتعتمد اللعبة على فرض اشتراطات مستحيلة لتبرير مواصلة المرض . ويقول لسان حال المريض « لو أننى وجدت عربة ريكشو (أو فتاة شقراء تتكلم اللغة الهيروغليفية ، أو نسيج مصنوع من سيقان النمل) ، لو أننى وجدت هذا فى مدينتى ، لما وصلت حالتى إلى ما هى عليه » .

علاج اللعبة :

وقف لعبة « الساق الخشبية » ليس صعبا ، إذا استطاع الطبيب أن يميز بوضوح بين (الوالد) و (البالغ) فيه هو شخصيا ، وإذا كانت الأهداف العلاجية واضحة للطرفين . وهناك احتمالان للعلاج من موقف (الوالد) ، إما بتقمص دور الأب الطيب ، أو الأب العنيف الخشن . الطبيب من موقف الأب الطيب ، قد يقبل ادعاء المرض ، خاصة إذا كانت ادعاءات المريض تتفق مع وجهة نظره الشخصية ، أو تتفق مع نظرية يعتنقها تقول إن المرضى غير مسئولين عن تصرفاتهم حتى يتم علاجهم . أما الطبيب من موقف الأب الخشن ، فهو يرفض ادعاء المريض ، ويدخل معه فى سباق عزيمة وقوة إرادة . وممارس لعبة « الساق الخشبية » ، يعرف كيف يستنبط أقصى متعة ، فى كل من الحالتين .

أما إذا اتخذ الطبيب موقف (البالغ) ، فسيصبح بإمكانه إحباط هاتين الفرصتين . إذا قال المريض « ماذا تتوقع من شخص مصاب بمرض عصبى ؟ » ، أو أى ادعاء آخر ، يكون جوابه « أنا لا أتوقع شيئا ، المهم هو ماتتوقعه أنت شخصيا ؟ » . وهدفه من هذا أن يحصل من المريض على إجابة محددة عن هذا السؤال . وهو يتيح فرصة للمريض ، تسمح له بالوصول إلى الإجابة المطلوبة ، وهى تمتد من ستة أسابيع إلى ستة أشهر ، وفقا لمدى فعالية الإعداد الذى خضع له المريض .

الفصل العاشر

الألعاب الطبية

الألعــاب الطيبــة

الطبيب النفسى ، بحكم طبيعة الجمهور الذى يلجأ إليه ، لايتعامل ـ لسوء الحظ ـ إلا مع الأشخاص الذين قادتهم ممارسة ألعابهم إلى أوضاع معينة . وهذا يعنى أن الألعاب التى تتوفر للبحث العلمى المعملى هى فى مجملها من الألعاب (الرديئة) بشكل أو بآخر . ولما كانت الألعاب ، بحكم تعريفها ، تتضمن تعاملات خفية غير معلنة ، فإنها لابد أن تتضمن عنصرا من عناصر الاستغلال . لهذين السببين يصعب عمليا ونظريا البحث فى الألعاب الطيبة .

يمكن أن نطلق تعبير اللعبة « الطيبة » على اللعبة التى تفوق مزاياها الاجتماعية بالنسبة للطرف الآخر مافى دوافعها من تعقيدات . فاللعبة الطيبة تحقق وضعا طيبا بالنسبة للطرف الآخر ، وإمتاعا لممارسها .

لهذا ، يبقى عدد الألعاب الطيبة التى تم حصرها علميا ، محدودا فى العدد وفى حجم الدراسات التى جرت عليه . والألعاب الطيبة التى سنطرحها هى :

- **الفارس .**
- **تسعدنى خدمتك .**
- **سيسرهم أنهم كانوا يعرفوننى .**

« الفارس »

لعبة « الفارس » ، باعتبارها لعبة طيبة ، يكون ماتقدمه من عطاء اجتماعى ، أثقل وزنا من تعقيدات دوافعها .

هذه اللعبة يقوم بها الرجال الذين لايعيشون تحت ضغوط جنسية ، رجال فى مقتبل العمر يرتبطون بزواج ناجح ، أو حتى علاقة نسائية ناجحة ، أو رجال كبار فى السن يعيشون فى ظل علاقة نسائية وحيدة مشبعة فى وقار ، أو يعيشون فى حالة عزوبية باختيارهم .

عند مقابلة الرجل للأنثى المناسبة ، يبدأ فى استغلال كل فرصة للتعليق على خصالها الطيبة وصفاتها الحميدة . وهو لايتجاوز بتاتا الحدود اللائقة ، والمناسبة لوضعها فى المجتمع ، والمتفقة مع مقتضيات الذوق السليم . إلا أنه داخل هذه الحدود ، يكون مسموحا له أن يطلق أقصى طاقات ابتكاره ، وحماسه ، وأصالته . والرجل بهذا الجهد لايسعى إلى إغواء الأنثى موضوع نشاطه ، لكنه يسعى إلى استعراض قدراته فى فن المجاملة .

المكسب الاجتماعى الداخلى ، يكمن فى السعادة التى تنعم بها الأنثى نتيجة لمهاراته الفنية البريئة واستجابتها التى تعبر عن تقديرها لمهارته . وفى بعض الظروف المناسبة ، عندما يكون الطرفان واعيان بطبيعة اللعبة ، قد تمتد مع تصاعد سعادتهما ، إلى حد الإفراط . وممارس اللعبة المحنك ، يعلم بالطبع متى

يتوقف ، فلا يستمر متجاوزا النقطة التى تفقد فيها اللعبة طرافتها أو التى يتدهور فيها مستوى المجاملات التى يقوم بها . والشعراء غالبا مايشاركون فى لعبة « الفارس » لمكسبها الاجتماعى الخارجى ، حيث يمتعهم تقدير النقاد الثقات والجمهور .

تحتاج المرأة فى تأدية دورها فى هذه اللعبة إلى قدر من الحذلقة ، إلا أنها تكون على قدر كبير من الغباء إذا رفضت أن تلعبها . واللعبة المكملة لهذه اللعبة ، تعتبر أحد تنويعات لعبة « ياالله .. كم أنت عظيم أيها الأستاذ » ، وبهذا يكون اسم هذه اللعبة « ياالله .. كم أنا معجبة بأقوالك وأفعالك يا أستاذ .. » . وإذا لم يتوفر لدى المرأة الفهم المناسب فقد تستجيب للعبة « الفارس » ، بلعبة « يا الله .. كم أنت عظيم أيها الأستاذ » . وهذه استجابة خاطئة ، فالذى يقدمه ممارس اللعبة ليكون موضع الإعجاب ، ليس شخصه ، ولكن أقواله وأفعاله وانتاجه .

والاستجابة المتوحشة لهذه اللعبة ، تأتى من المرأة المتجهمة ، على شكل لعبة « الاغتصاب » من الدرجة الثانية . وإذا كانت المرأة على درجة عالية من الغباء ، فهى تستجيب لهذه اللعبة بلعبة « الاغتصاب » من الدرجة الأولى ، مسخرة مجاملات ممارس اللعبة فى تغذية غرورها متناسية أن ممارس اللعبة يتوقع منها إبداء التقرير لجهوده الخلاقة . وفى جميع الأحوال ، تفسد اللعبة إذا ماتصورت المرأة مجاملات الرجل على أنها محاولة للاغواء ، وليست استعراضا لمواهبه .

تحليل اللعبة :

هدف هذه اللعبة هو الإعجاب المتبادل . وعلى المستوى الاجتماعى المكشوف تجرى اللعبة من موقف (بالغ – بالغ) ، على صورة :

الرجل (بالغ) : انظرى مدى قدرتى على إمدادك بالمشاعر الطيبة ..

المرأة (بالغ) ، حقا .. لقد أسعدتنى .

وعلى المستوى السيكلوجى الخفى تكون العلاقة من موقف (طفل ـ طفل) على صورة :

الرجل (طفل) : انظرى ، أى تعبيرات بليغة أستطيع أن أصيغ .

المرأة (طفل) : حقا .. أنت خلاَّق .

« تسعدنى خدمتك »

لاعب هذه اللعبة ، يكون فى خدمة الآخرين بصفة مستمرة ، مع وجود بعض الدوافع الخفية لديه .

قد يكون بهذا مكفرا عن بعض الآثام التى ارتكبها فى الماضى ، أو لتغطية بعض الآثام التى يرتكبها فى الحاضر ، مكونا الصداقات ، ليستغلها مستقبلا ، أو باحثا عن مكانة له بين الناس . وأيا كانت دوافعه ، فلابد أن نحفظ له فضل تصرفاته وسلوكه مع الناس . فبعض الناس يغطون آثام الماضى ، بأن يكونوا أكثر إثما فى الحاضر ، ويستغلون الناس بالتخويف والإرهاب ، وليس بالتصرف الكريم .

بعض الناس ينصب اهتمامهم على المناسبة أكثر من اهتمامهم بفعل الخير فى حد ذاته . فترى الواحد منهم يقول لصاحبه « إن ماقدمته أنا ، يتجاوز بكثير ماقدمته أنت (من مال أو فن أو هبة أو تبرع) » . وإذا أردت أن تناقش دوافع هؤلاء ، فلابد أن تسجل لهم فضل التنافس على الأعمال البناءة ، فى الوقت الذى يتنافس فيه غيرهم على الشر والتخريب .

وجميع الذين يمارسون لعبة « تسعدنى خدمتك » ، لهم أصدقاء وأعداء ، وكل من الجانبين له مايبرر موقفه . الاعداء يهاجمون الدوافع ويقللون من شأن العطايا ، والأصدقاء يضخمون فضل العطايا ، ويهملون شأن الدوافع ، وقلما نجد

فى مثل هذه الحالة ، ذلك الموقف الذى يتسم بالموضوعية . وحتى الذين يدعون أنهم يتوسطون فى أحكامهم ، عاجلا مايظهرون ميلا إلى أحد الجانبين .

هذه اللعبة ، كمناورة استغلالية ، تعتبر الأساس لقسط كبير من النشاط المعروف باسم «العلاقات العامة» وخاصة فى بلد كأمريكا . والعملاء ، يسعدهم عادة الدخول فى هذه اللعبة . ولعلها أكثر الألعاب التجارية ايجابية .

ومن تنويعات هذه اللعبة ، لعبة أخرى تجرى بين ثلاثة أطراف ، وتعتبر من ألعاب الأسرة أو الألعاب العائلية ، حيث يتنافس الأب والأم حول أيهما أكثر حظوة عند الابن أو الابنة . وهنا أيضا ، يجدر بنا أن نسجل مافى ممارسة لعبة «تسعدنى خدمتك» من جوانب إيجابية . تقلل من شأن دوافعها الخفية ، فالمنافسة حول حب الأولاد تتخذ فى كثير من الأحيان ، صورا أكثر إيلاما للأطراف المعنية .

« سيسرهم أنهم كانوا يعرفوننى .. »

فى هذه اللعبة يبذل الشخص كل جهد للنجاح ، وتحقيق الانجازات الكبيرة ، ليس لمجرد النجاح ولمجرد إثبات القدرة على تحقيق الانجازات ، ولكن ليستطيع أن يردد ممارس اللعبة بينه وبين نفسه بعد ذلك « سيسرهم أنهم كانوا يعرفوننى .. » . والضمير هنا يعود إلى أصدقائه القدامى وزملاء الدراسة ، والهدف هو أن يثبت لهم أنهم كانوا على حق فى معاملته بود واحترام ، وأن رأيهم فيه كان صائبا . ولكى ينجح فى تأمين مكاسبه من هذه اللعبة ، عليه أن يلتزم فى وسائله وانجازاته بالشرف .

وهذا هو بالتحديد مايجعل هذه اللعبة تفضل تنويعا لها باسم « سأريهم ! » . وهذا التنويع من اللعبة ، يتفرع إلى اتجاهين ، واحد من النوع الهدام ، وفيه (يريهم) ممارس اللعبة بأن يتسبب لهم فى أضرار بالغة . وهو يسعى إلى الصعود إلى مكانة عالية ، ليس بدافع اعتزازه بهذه المكانة ، أو استمتاعه بالعائد المالى الذى يتحقق منها ، ولكن لأن هذه المكانة العالية التى وصل إليها تتيح له القوة اللازمة للانتقام من أعدائه القدامى .

أما الاتجاه الآخر الذى يتفرع من لعبة « سأريهم ! » ، فهو من النوع البناء . يعمل ممارس اللعبة بكل جهد ومشقة ساعيا إلى أن يحقق مكانة محترمة عالية ، ليس من أجل تحسين وضعه المهنى (وإن كانت هذه غاية ثانية من غاياته) ، ولا

ليتسبب فى إيذاء من ناصبوه العداء قديما ، ولكن ليبعث فى نفوسهم أحاسيس الحسد ، والأسف لعدم معاملته معاملة أفضل ، فيما سبق من الزمان .

ولايمكن دائما النظر إلى هاتين اللعبتين باعتبارهما من الألعاب الخفية ، فمن الممكن أن نعتبرهما نواتج ثانوية للنجاح ، أكثر منها ألعاب . ولايتحولان إلى لعبتين ، إلا عندما يصبح اهتمام اللاعب بتأثيره على اصدقائه أو أعدائه القدامى ، أكبر من اهتمامه بالنجاح نفسه .

الفصل الحادى عشر

ألعاب يمارسها الأطفال

ألعاب يمارسها الأطفال

شخصية الطفل ، ووظائفه العاطفية ، هى نتاج تعاملاته مع الأشخاص المهمين فى حياته . فهو يمكن أن يشب واثقا من نفسه أو خائفا ، إيجابيا أو سلبيا ، متوازنا فى عواطفه أو مضطربا ... يكون هذا أو ذاك وفقا لما يجرى بينه وبين والديه ، وباقى أفراد أسرته ، والقريبين منها ، من تعاملات وعلاقات متبادلة .

ومن الثابت أن ماضى الطفل وحاضره ، يصنعان مستقبله . وإنماط الشعور والتفكير والسلوك التى زرعت فيه خلال سنوات تشكله الأولى ، تظل باقية معه ، ممتدة من طفولته إلى مراهقته إلى بلوغه . ومن الممكن أن تبقى معه ، وتنعكس على تربيته لأبنائه .

ويحدد دكتور تشابمان ، فى كتابه « ألعاب يمارسها الأطفال » ، سبعة عناصر أساسية ، يجب أن ننتبه إليها فى تعاملاتنا مع الطفل ، وتعاملاتنا فى وجوده ، حتى لانتزلق إلى أخطاء تؤثر تأثيرا ضارا ودائما على الصحة النفسية للطفل وهى : الوعى والادراك ، وتكوين صورة الذات ، والتعبير عن المشاعر ، ووضوح الهوية ، والضيق أو القلق ، وإشباع الحاجات ، والميل نحو الموقف الصحى .

الادراك الواعى :

كلما جرت تعاملات الشخص مع الآخرين خارج نطاق الإدراك الواعى ، كلما زاد احتمال ظهور المزيد من أنماط التعامل الضارة ، والتى تتحول إلى ألعاب خطيرة ، إذا ما تكرر الالتجاء إليها .

لكى نفهم هذا ، سنطرح مثالا لتبادل التعامل بين الأم وابنها مجدى ، البالغ من العمر أربعة أعوام .

الأم : هل أنت الذى ألقيت السكين داخل مهد أختك الصغيرة ؟.

مجدى : لا ..

الأم : بل فعلت ذلك .. إذا لم يكن أنت ، فمن غيرك ؟، ألا تعلم أنك قد تؤذيها بهذه الطريقة ؟.

مجدى : أنا لم أفعل ذلك .

الأم : من الذى فعله إذا ؟.. كان من الممكن أن تقتل أختك ، ماذا يكون شعورك لوحدث هذا ؟.

مجدى : ربما ألقى السكين فى سريرها شخص آخر .

الأم : من ؟.. قل لى من ؟.. أنت تكذب .

مجدى : لكنها لم تصب بسوء ..

الأم : إذًا ، فأنت تعترف بأنك ألقيت السكين فى مهدها ..

مجدى : لا .. لم أفعل ذلك .

الأم : انتظر حتى يحضر والدك . سأخبره ، وستنال عقابك عندما يعلم بما فعلته . وسأخبره عن اصرارك على الكذب .

مجدى : لقد ضربتنى !..

الأم : كيف يمكن لرضيع أن يضربك ؟.. ها أنت تكذب مرة ثانية .

مجدى : لا .. أنا لا أكذب ..

فى هذا التعامل ، لا الأم ولا الابن ، يدركان إدراكا واعيا ، الموضوع الأساسى .

الأم تؤنب مجدى وتهدده ، وهو يكذب ويصبح خائفا مهتز الشخصية ، لكن المشكلة الأصلية لم تجد حلاً لها . وإذا تكرر هذا التعامل بين الأم ومجدى

كثيرا ، فقد يتطور إلى نمط خطر فى التعامل ، وتتأسس اللعبة .

أما إذا كان قد توفر للأم الإدراك الواعى بالموضوع الحقيقى الذى يحرك مجدى ، فإن الحوار بينهما كان سيأخذ شكلا مختلفا ، أكثر سلامة وصحة . مثل :

الأم : لقد رمى أحدهم سكينا فى سرير أختك ، ولما كنت أنا وأنت وحدنا فى البيت ، ولما كان السكين غير موجود منذ عشر دقائق ، فلابد أنك فعلت هذا .

مجدى : لقد ضربتنى .

الأم : هذا مجرد لغو ، وأنت تعلم ذلك ، لكننا لن نمضى فى هذا الآن . الموضوع الأساسى هو أنك تخشى أن تفقد حبى وحب والدك ، بعد مجىء أختك الصغيرة ، لذلك فأنت غاضب عليها .

مجدى : أريد أن أعرف ، ماهى حاجتكما إليها ؟.

الأم : نحتاج أن نحبها . أنت الآن من الأشخاص الكبار فى الأسرة . وكما نحبك أنا ووالدك ، وكما أن حبنا لك لم يقل عن ذى قبل ، فعلينا نحن الثلاثة أن نحب الطفلة الصغيرة . ولأنك أصبحت من الكبار ، فلابد أن تساعدنا فى رعايتها والعناية بها .

مجدى كيف ؟.

الأم : احضر هذه الدبة التى أهدتها إليها عمتك ، وضعها إلى جوارها فى السرير . قد لاتعرف فى سنها الصغيرة هذه ماهى الدبة ، لكنى اعتقد أنها ستعجب بالفراء وبالعينين الزجاجتين اللامعتين .

مجدى : سأضع الدبة فى سريرها .

الأم : شكرا يامجدى .

فى هذا التعامل ، كانت الأم مدركة إدراكا واعيا ، السبب فى قلق مجدى .. لقد شرحت له بوضوح وصراحة ، مما جعله هو الآخر مدركا لحقيقة دوافعه .

فالأغلب أن مجدى لم يكن يدرك بطريقة واعية ، مشاعر فقدان الأمان ، التى أثارها مولد الأخت الجديدة .

لقد حرصت الأم على طمأنة مجدى ، وتبديد مخاوفه ، وحددت له دورا ازاء الطفلة بعيدا عن مشاعر التنافس . باعتباره (أبا آخر لها) ، وهكذا حولت التعامل الخفى لمجدى إلى نشاط صحى .

تكوين « صورة الذات » :

العنصر الثانى هو تكوين « صورة الذات » . فكل واحد منا ، يحمل داخله صورة عن نفسه ، يؤمن بأنها واقعية . وهو قد يتصور نفسه قادرا أو غير قادر ، مفيدا أو بلا نفع ، محبوبا أو مكروها ، وسيما أو قبيحا . يطلق علماء النفس على هذه الصورة تعبير « صورة الذات » ، ويكون لها تأثير كبير على تعامل الشخص مع الآخرين .

صورة الذات الزائفة ، يمكن أن تجلب الكثير من المتاعب على الشخص . وأهم عامل فى تكوين صورة الذات ، هو المواقف التى يتخذها الوالدان والقريبون من الأسرة ، تجاه الطفل ، خلال سنوات تكونه الأولى .

للتدليل على ذلك ، دعنا نطرح نموذجا للحوار الذى يمكن أن يدور بين أم وابنتها (نادية) التى تناهز الخامسة من عمرها .

الأم : من الذى سكب مسحوق صابون الغسيل فى انحاء المطبخ ؟.

نادية : لا أعلم ..

الأم : بل أنت التى فعلت ذلك .. انظرى ، مازال المسحوق لاصقا بأصابعك .

نادية : يبدو أننى فعلت ذلك ..

الأم : أنا أعمل لساعة كاملة فى تنظيف المطبخ ، ثم تأتين أنت لتفسدى كل

شيء ، وتضيعى نتيجة عملى ..

نادية : آنا آسفة ..

الأم : ومافائدة هذا ؟! .. أنت بنت سيئة ، لاتهتمين إلا بعبثك ولعبك .

نادية : لن أفعل هذا ثانية .

الأم : نفس ماتقولينه دائما ، وأنت تقولينه ولكنك لاتعنين تنفيذه . ستظلين هكذا بلا فائدة ، وستبقين طوال حياتك مبعثا للفوضى ، فى أى مكان تحلين فيه .

نادية : سأبذل جهدى لتجنب هذا ...

الأم : أنت أنانية وناكرة للجميل . أنا ووالدك نعمل من مطلع الشمس حتى غروبها ، لكى نجعل هذا البيت يبدو جذابا . وتجيئين أنت لتفسدى كل شيء .

فى هذا الحوار . نسيت الأم بسرعة موضوع الحديث ، وهو مسحوق الغسيل المنثور فى انحاء المطبخ ، وانصرفت إلى تعديد النواقص التى تراها فى شخصية الطفلة ، مخربة أنانية غير نافعة .

والآن ، دعنا نستعرض النموذج الصحى ، البديل للتعامل السابق ، والذى لايشوه لدى الابنة « صورة الذات » .

الأم : انظرى إلى المسحوق المنثور فى انحاء المطبخ ، علبة المسحوق ليست لعبة ، وليس المفروض أن تلعبى بها .. وأنت تعرفين هذا .

نادية : أنا آسفة .

الأم : وأنا غاضبة .. ومن حقى أن أغضب ، فقد أمضيت ساعة دائبة فى تنظيف المطبخ .

نادية : لن أفعل ذلك ثانية .

الأم : أنت يانادية بنت طيبة ، لكنك فعلت شيئا خاطئا ، عندما عبثت بصندوق مسحوق الصابون ، ونثرته على الأرض .

نادية : سأقوم بتنظيف المطبخ من هذا المسحوق .

الأم : عظيم .. وأرجو أن تنجحى فى ذلك . سأعود بعد خمس دقائق لأرى ماذا تم .

فى هذا الحوار تلتزم الأم بالموضوع الأساسى . قامت بتوضيح سوء تصرف نادية ، ثم أوكلت إليها إصلاح غلطتها . إنها هنا تنتقد التصرف ، وليس الطفلة ، وبذلك تتعامل مع المشكلة دون أن تفسد « صورة الذات » عند نادية .

الأصل هو النمو السليم :

ننتقل من هذا إلى عنصر التعبير عن المشاعر .

المفروض أن يكون الطفل قادرا على التعبير عن مشاعره ، رغباته وغضبه وخوفه ، إلى آخر ذلك ، بطريقة يقبلها مجتمعه . وإذا دفع الوالدان طفلهما إلى كبت غضبه دائما ، أصبح الطفل قلقا مكتئبا ، وقد ينعكس هذا على صحته البدنية .

ومن العناصر الهامة فى تكوين الطفل ، قدرته على الانتماء إلى نموذج والديه .

عندما تكون العلاقة بين الابن والأب طيبة ، فإن هذا يتيح للابن أن يتبنى نموذج الأب ، ويجد نفسه فيه . ولكن عندما تسوء هنا العلاقة ، فالأغلب أن يتبنى الطفل سيئات الأب .

والقلق من الظواهر الشائعة عند الأطفال ، قد يتسبب فيه سلوك خشن من أحد الوالدين ، أو قيام أحد الوالدين بحجب مشاعر الود والحب عن الابن . ومشاعر القلق هذه ، يمكن أن تلاحق الطفل فى مراحل عمره التالية ، فتفقده القدرة على التعامل مع الآخرين .

والأمان ، هو البديل الصحى للقلق . وهو يتوفر من خلال التعاملات الصحية الخالية من التوتر ، ومن خلال وضع الحدود المعقولة لما هو مسموح ، وماهو ممنوع .

وتلبية الاحتياجات الخاصة للطفل ، من العناصر الهامة فى تكوينه . فنى مجال الطعام مثلا ، عندما يتزايد احساس الجوع عند الطفل فإنه يبكى فتنتبه الأم وتلبى حاجته . وحاجة الطفل إلى الطعام ، هى حاجة مزدوجة بطبيعتها ، فهو يحتاج إلى أكثر من مجرد السعرات التى يوفرها الطعام . إنه يحتاج إلى رقة ورعاية وعطف الأم . وبغير تلبية هذه الحاجة العاطفية ، ينمو الطفل شاعرا بالوحدة ، مما يؤثر على علاقته بالآخرين طوال حياته .

ومن المعروف أن الإنسان فى نموه ، يكون أميل إلى أن ينمو سليما صحيحا ، مالم تقم فى طريق ذلك عقبات مصنوعة ، أو يحدث تخريب فى علاقاته البشرية التى يتبادلها مع الآخرين . أى أن الأصل هو الصحة . ويعتبر هذا عنصرا إيجابيا فى نمو الطفل ، يساعد الوالدين فى مهمتهما .

ومن القواعد الثابتة نفسيا ، أن الحادثة الوحيدة لاتحدث تخريبا فى شخصية الطفل ، لكن الخبطات اليومية المتكررة ، الناتجة عن علاقات غير صحية ، هى التى تؤدى إلى تخريب شخصيته .

ظهور الألعاب الخفية :

عندما يفشل الوالدان فى توفير العناصر السبعة التى أشرنا إليها ، وعندما تتكرر التعاملات الخاطئة ، تنشأ المناورات الضارة ، أو مايطلق عليه خبراء تحليل التعامل اسم « الألعاب » . فالإنسان يلجأ إلى هذا الطراز الثابت من التعاملات ، بطريقة لاشعورية ، عند الفشل فى تحقيق التعامل الصحى .

واللعبة التى يتعلمها الطفل فى صغره ، تمضى معه فى مراحل ومجالات حياته التالية ، مثيرة له المشاكل .

وسنقدم فيما يلى عدة نماذج من الألعاب التى يمارسها الأطفال ، نتيجة لأخطاء فى تعامل الوالدين ، والتى يظل الطفل محتفظا بها باقى أيام حياته .

القفز على الحبلين

فى هذه اللعبة يستغل الطفل أحد الوالدين فى السيطرة على الآخر.

تتم هذه اللعبة عندما يفتقد الطفل، أى علاقة سليمة، بأى من الوالدين.

وفى النموذج الذى نقدمه لهذه اللعبة، تكون البطلة هى الابنة «سهام».

بدأت سهام ممارسة لعبتها، بين الثانية والثالثة من عمرها. رغم أن الآباء والأمهات غالبا ما يقللون من قدرة الطفل على القيام بالمناورات فى هذه السن الصغيرة. علما بأن الثابت، هو أن الذكاء الأساسى للشخص يكون فى الثالثة كما هو فى الحادية والعشرين. تزداد حصيلته من المعلومات، وتنمو قدراته، لكن «معامل الذكاء» يبقى ثابتا.

والعديد من صغار الأطفال يبدون قوة ملاحظة حادة تجاه من حولهم من اشخاص. قد لايستطيعون صياغة ملاحظاتهم هذه فى كلمات، أو أن ينظموا أفكارهم عمن حولهم فى نسق منطقى، لكن قدراتهم على استغلال ملاحظاتهم حول «الألعاب» تبقى على مستواها، فى الثالثة كما فى العاشرة، كما فى العشرين من العمر.

متى تبدأ اللعبة :

ساعدت شخصية كل من الوالدين على ممارسة سهام للعبة «القفز على الحبلين». فقد كانت أمها سلبية، تعانى من شعور مرضى بالذنب كلما ثار

غضبها ، حتى لو كانت محقة فى غضبها ، بالاضافة إلى شعورها بالقلق ، إذا ما غضب منها الآخرون . ومرجع ذلك ، إلى ما لقيته من والديها المسيطرين ، فى طفولتها .

كانت الأم فى بداية الأمر حازمة مع سهام ، عندما لم يكن أبوها يتدخل . وكان والد سهام رجلا عدوانيا وحنونا فى نفس الوقت . وكانت سيطرته تتسع لتحتل الأرض التى كانت الزوجة تتخلى عنها بسلبيتها . وكان زواجهما سعيدا ، رغم ذلك ، حتى بدأت سهام تمارس لعبتها .

عرفت سهام منذ البداية أن حزم الأم فى تقييد تصرفاتها ، يمكن التخلص منه ، بملاحظة حادة من الأب يوجهها إلى الأم . وهكذا أصبحت سهام ماهرة فى تحريك حدة طبع الأب للسيطرة على الأم . إذا كانت سهام مع أمها فقط فى البيت ، وضربتها على كفيها عندما فتحت الأدراج وأخرجت مافيها ، رغم تحذير الأم السابق بالامتناع عن ذلك . بكت سهام لعدة دقائق ، ثم توقفت عن البكاء ، وعادت إلى الانشغال بشىء آخر .

لكن إذا ماحدث هذا فى وجود الأب ، تعدو سهام باكية صارخة نحو أبيها ، وتتعلق بساقيه ثم يدور التعامل التالى بين الوالدين وسهام ، أو تنويع آخر من التنويعات العديدة لهذا التعامل .

الأب : (لسهام) ماذا جرى ياحبيبتى ؟.. (للأم) منيرة .. ماذا جرى لسهام ؟.

الأم : لقد فتحت الصوان الذى نحتفظ فيه بأطباق الصينى الثمينة . وعندما منعتها من ذلك بدأت فى البكاء .

(هنا تمد سهام يدها نحو أبيها ، وتبكى بحرقة) .

الأب : (يحتد طبعه نتيجة لبكاء سهام) لابد أنك عدت إلى ضربها !.

الأم : لطمتها برقة على كفيها .. هذا هو كل ماحدث .

الأب : (يشعر بالضيق ، وتثور حدة طبعه نتيجة لتردد الأم وسلبيتها) وهل تسبب اللطمة الرقيقة كل هذا البكاء ؟ يخيل إلى يامنيرة أن هناك طريقة أكثر تحضرا للتنبيه على الطفلة بعدم فتح الصوان .

الأم : أنا آسفة ، لكن الذى حدث هو...

الأب : (مقاطعا) ألاحظ أن هذا يتكرر كثيرا فى البيت .. لا أريد ابنة تخاف والديها ، أو يواجه فضولها الطبيعى بإحباط وقمع ولطم .. كل هذا لأنها قامت بعمل عادى من أعمال الطفولة المعقولة .

الأم : أنا آسفة .

الأب : (لسهام) أرينى كفك ياحبيبتى .. هيا اذهبى مع والدتك إلى المطبخ ، لتقدم إليك شيئا من الحلوى .

(هنا .. تتصاعد صرخات سهام ، وتتشبث بساق والدها بشكل أشد) .

الأب : (للأم) انظرى كم هى خائفة . يجب أن تتوقفى عن ضرب الطفلة يامنيرة (هنا يبدو الأب شديد الاستياء) لدى مايكفينى من المشاكل فى عملى طوال اليوم . عندما أعود إلى البيت أحاول أن أستريح قليلا ، فأجد هذه المشاكل التى تثيرينها فى وجهى .

حقيقة ماجرى :

عند هذا الحد ، تكون سهام قد أدركت (شعوريا أو لا شعوريا) أن أمها قد لقيت التقريع والتأنيب الكافيين ، وأن الأب قد قام عنها بما كانت تحب أن تقوم به ، وأنها قد دفعت الأب إلى غاية مايطيق .

إنها تعلم الآن أن اللعبة قد تمت بنجاح ، فيتوقف البكاء ، حتى تشعر الأب أنه « صانع السلام » فى البيت ، وتمسح دموعها ، وتنصرف متقافزة إلى المطبخ ، متأكدة من أنها تستطيع أن تفعل ماتشاء ، دون أن تقف أمها فى سبيلها .

لقد دفعت أمها إلى حالة من الشلل ، وسيطرت على والدها . وان كان أى من الأطراف الثلاثة لم يفهم حقيقة ماجرى .. لقد نجحت لعبة « القفز على الحبلين » .

اللعبة مشروع للمستقبل :

عندما تكبر سهام ، يتغير أسلوب اللعبة ، وتتبدل تفاصيلها ، لكن النمط والتتابع الأساسى يبقى على حالة .

وعندما تبلغ سهام العاشرة من عمرها ، يكون هذا النمط من التعامل قد تأصل فيها .. تعتمد على انفجاراتها العصبية فى إرهاب أمها ، كما تعتمد على شهيقها وإنكسارها المحسوبين فى السيطرة على أبيها .

وما أن تصل سهام إلى سن المراهقة ، حتى تكون طرقها فى التعامل مع الرجال والنساء قد تحددت . فتمضى فى ممارسة لعبة « القفز على الحبلين » بشكل أو بآخر ، وبتنويعات عديدة ، وفقا للمواقف ، وطبيعة المساهمين فى اللعبة . وهكذا تتحول سهام إلى فتاة متحدية للنساء مكروهة دائما منهن ، ساحرة خلابة مع الرجال ، تستغلهم فى تحقيق أهدافها .

بهذا ، يستحيل على سهام الشابة أن تنشئ علاقة سوية مع الآخرين . لأن « اللعبة » تتدخل دائما لإفساد أى علاقة . وعندما يكتشفها المحيطون بها ، ويرفض الجميع المساهمة فى لعبتها ، يصيبها الرعب والقلق ، فتميل إلى ممارسة اللعبة بشكل أشد عنفا ، حتى تتخلص من قلقها ، وحتى تحقق لنفسها الحد الأدنى من الأمان العاطفى .

«التلطيخ بالوحل»

من بين المناورات الضارة التى قد تفرضها الأم ـ دون أن تدرى ـ على طفلها الصغير . فتصبح خطة ثابتة فى تعامله مع أفراد العائلة ، ثم تصبح بعد ذلك خطة للتعامل فى حياته المقبلة ، مناورة «التلطيخ بالوحل» . وهى تعتبر ـ شأنها شأن غيرها من المناورات الضارة ـ شكلاً فاشلاً من أشكال التعامل ، لابد من الانتباه لها ، والاسراع بالتخلص منها .

والإحساس بالذنب يزرع فى نفس الشخص إحساساً دائماً بالقلق ، وهو إحساس موحش مصحوب بمشاعر الفشل وفقدان أى قيمة للحياة . والآلام الناشئة عن الاحساس بالذنب تؤثر على العديد من التصرفات البشرية .

وقد يستخدم الشخص إحساسه بالذنب كأداة للتحكم فى الآخرين . وتلجأ الأم فى بعض الأحيان إلى استخدام الإحساس بالذنب لإفزاع طفلها ، وارغامه على الخضوع لها ، والامتثال لأوامرها . وهكذا يشب الطفل وسط عاصفة من عبارات التأنيب .. «أفعالك هذه تصيبنى بالصداع ..» ، أو «هل تريدين أن تهدمى هذا البيت بالمشاكل التى تثيرنها بينى وبين والدك ؟..» ، أو «احترس .. انت ستصيب اختك بعاهة مستديمة إذا ما مضيت تضربها بهذه الطريقة ..» ، أو «أنت ولد شرير ، وسيعاقبك الله على ما تسببه لى من معاناة» .. إلى آخر هذه الاتهامات المؤلمة .

مناورة تلطيخ الطفل بالوحل واشعاره بالذنب عن طريق إلقاء اللوم عليه ، غالبًا ما تحقق غرضها ، وترغم الطفل على أنماط السلوك التى تطلبها منه والدته . ومع ذلك ، فإن استخدام هذا التكتيك كل ساعة وكل يوم فى تربية الطفل ، غالبًا ما يصيبه بالقلق ، ويجعله رازحًا تحت أعباء الذنب ، مما يعرضه لأنواع متعددة من المصاعب العاطفية ، التى تلاحقه حتى بعد بلوغه .

ظـاهرة تعـاملية :

والإحساس بالذنب ، ظاهرة تعاملية ، أى أنه لا يحدث للشخص فيما بينه وبين نفسه ، لكن الشخص ينميه فى نفسه لأن شخصًا آخرًا يفرضه عليه .

وبمجرد أن يتأسس الإحساس بالذنب فى شخص ما ، فمن الممكن أن يصبح صفة لصيقة بشخصيته . فالإحساس بالذنب الذى ينشأ نتيجة للتعامل مع شخص آخر أو مع أشخاص آخرين ، يمكن أن يتحول صفة خاصة ثابتة ، بحيث يحمل الشخص ذنبه هذا ، وهمومه من جراء ذلك الإحساس بالذنب ، إلى كل علاقة بشرية جديدة يمر بها . فالشخص الذى زرعت فى نفسه مشاعر الإحساس بالذنب خلال سنوات طفولته ، يميل إلى الإحساس بالذنب عندما تنشأ مشاكل فى حياته الزوجية ، أو فى عمله ، أو بين أصدقائه ، أو غير ذلك من احتكاكاته بالآخرين .

وهو فى كل مرة يسأل نفسه السؤال الخاطئ «ما هو يا ترى الخطأ الذى ارتكبته ؟» ، بدلاً من أن يسأل نفسه «ما هو الخطأ فى العلاقة التى بينى وبينه ؟» . والسؤال الأول خاطئ لأنه عادة ما يمنع الإنسان من حل مشاكل تعامله مع الآخرين ، باعتبار أنه هو مصدر الخطأ المجهول . فالمشاكل غالبًا ما يكون مصدرها كل من طرفى العلاقة ، وربما يكون مصدرها الطرف الآخر بشكل أساسى .

أداة تحكم :

وقد يستخدم الطفل زرع الإحساس بالذنب كأداة للتحكم فى والديه . ويغلب أن يحدث هذا عندما يكون الوالدان معرضين للإحساس بالذنب ، نتيجة خلل عاطفى يحملان جذوره منذ طفولتهما. يساعد على هذا أن الأب والأم فى الوقت الحاضر ، على عكس الأب والأم فى الجيل الأسبق ، يكون لديهما الاستعداد للإحساس بالذنب تجاه أطفالها عندما تنشأ أى مشكلة .. ثورة غضب لطفل فى الثانية من عمره ، أو تصرف جنسى غير لائق من ابن فى السابعة عشرة من عمره ... عادة ما يسأل الوالد نفسه هذه الأيام «ما هو الخطأ الذى ارتكبته ؟.. كيف أسأت تربية ابنى ؟» . أما الوالد ، منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، فقد كان غالبًا ما يسأل نفسه «ماذا سأفعل لكى أعيد هذا الابن ثانية إلى سواء السبيل ؟.. كيف اقنعه بأن تصرفه هذا معيب ؟..» . وهذا التغير فى تفكير الآباء ، يكون له تأثيره الكبير على تكوين شخصية الطفل .

النجاة من المحاسبة :

وبصرف النظر عن سلامة هذا الموقف من الناحية النظرية ، فإن استعداد الآباء المعاصرين للإحساس بالذنب نحو مشاكل أبنائهم ، قد أشاع بين الأبناء ممارسة مناورة «التلطيخ بالوحل» .. ما أسرع ما يتشمم الطفل قدرته على التحكم فى والديه بإلقاء تبعة اخطائه عليهما . ويتدرب على أعذار من قبيل «لقد فعلت ذلك لأنى كنت خائفًا منك» ..، أو «انت الذى دفعتنى لفعل ذلك» .. تلك الأعذار التى غالبا ما تشيع الشلل فى إرادة الوالدين ، وتمنعهما من اتخاذ الاجراء المناسب .

وهكذا يتحول انتباه الوالدين ـ قسرا ـ من التركيز على ذلك التصرف المعيب الذى ارتكبه الطفل ، إلى البحث فى سلامة موقفهما ، بوحى من

احساسها بالذنب . ونتيجة لذلك ، ينجو الابن من محاسبته على فعلته . وعندما يتكرر هذا الموقف فى تربية الطفل ساعة بعد ساعة ، ويومًا بعد يوم ، يتأسس لديه بشكل ثابت فى شخصيته استخدام الإحساس بالذنب كنمط فى تعامله مع الناس .

أنت كـــذاب ! :

دعنا الآن نوضح طبيعة هذه المناورة من خلال المشهد التالى الذى يدور بين الأب والأم وابنهما سعيد الذى يبلغ الرابعة من عمره ، والذى أصبح غالبًا ما يمارس مناورة «التلطيخ بالوحل» .

سعيد : (لأبيه) أنت كذاب ! .

الأم : سعيد !.. لا يليق أن تقول مثل هذا لأبيك .

سعيد : أنتما تقولان ذلك لبعضكما .

الأم : إننا نادرًا ما نفعل ذلك.. لكنك أصبحت تردد مثل هذه الأقوال طوال الوقت .

سعيد : إذا كنتما تقولان ذلك.. لماذا لا أفعل مثلكما ؟.

الأب : (للأم) لابد لنا أن نكون أكثر حرصًا فيما نقوله أمام الأولاد .

الأم : (للأب) فعلاً.. لابد أن نكون نموذجًا طيبًا لهم .

لاحظ فى هذا المشهد ، كيف أنه سرعان ما غابت تمامًا المشكلة الرئيسية ، وهى سب سعيد لأبيه ، عندما تمكن سعيد بمهارة من تحويل الإحساس بالذنب إلى والديه ، ومن صرف انتباهها عن سلوكه السيئ الأخير ، إلى سقطاتهما العارضة القديمة . وفى أغلب الأمر ، سيواصل سعيد ارتكاب نفس الخطأ فى المستقبل ، ناجيًا من العقاب بنفس المناورة .

الفاصوليا المؤلمة :

فى المشهد التالى ، نرى كيف استطاع سعيد أن يقوم بمناورته ، على صورة أخرى .

الأم : سعيد .. كل ما فى طبقك من فاصوليا .

سعيد : إنها تسبب لى ألمًا فى بطنى .. لماذا ترغمينى على أكل أشياء تؤلم معدتى ؟.

الأم : الفاصوليا لا تؤلم المعدة .

سعيد : لماذا إذا أذهب إلى دورة المياه كثيرًا إذا أكلتها .. بل إننى أتقيأها فى بعض الأحيان .

الأب : (للأم) أنواع الأكل على المائدة كثيرة يا عزيزتى .. ربما كان الولد لديه حساسية خاصة بالنسبة للفاصوليا .

سعيد : (منتصرًا) لا أفهم لماذا ترغمينى على أكل الفاصوليا .

الأم : هل تحب أن تأخذ بعض السلطة الخضراء ؟.

سعيد : اعتقد ذلك ..

ليس عدلاً ! :

وتنويعات مناورة « التلطيخ بالوحل » تأخذ أشكالاً متنوعة ، أحدها يمضى هكذا :

الأم : سعيد !.. كفاك تحطيمًا للأشياء .. آنية الزهور هى ثالث شىء تحطمه هذا الأسبوع .

سعيد : لم أقصد ذلك .. لقد حدث رغمًا عنى .

الأم : على أى حال يجب أن تكون حذرًا .. وعقابًا لك ستحرم من مشاهدة التلفزيون هذا المساء ..

سعيد : هذا ظلم .. اتعاقبيننى على شىء حدث رغمًا عنى !.. أمن العدل أن

أعاقب على شيء لم أقصده ؟!..

الأب : (للأم) عزيزتي .. إنه مجرد طفل فى الرابعة .. من هم فى عمره يكسرون الأشياء عادة .

سعيد : وأنتما تعاقبانى دائمًا على أشياء صدرت رغمًا عنى ..

الأم : (للأب) فعلاً ، ليس من المناسب أن نعاقبه على أشياء طبيعية لمن هم فى عمره ..

سعيد : (منتصرًا) هذا ليس عدلاً .. لا يجوز أن أعاقب على شيء لم أقصده .

الأم : ربما تكون على حق .

الأب : ولكن يجب أن تكون أكثر حرصاً ياسعيد .

سعيد : سأحاول يا أبى ..

الأم : لن نعاقبك هذه المرة .. لكن إذا كسرت شيئًا آخرًا ، فسأحرمك من مشاهدة التليفزيون لمدة يومين ..

ويعلم سعيد أن هذا مجرد تهديد فارغ .. لأنه تعود على ممارسة مناورة «التلطيخ بالوحل» ، على مدى عامين ، بنجاح كبير .

نعم .. نتــآمر ! :

والآن ، سنطرح نفس المشهد ، بإفتراض أن والدى سعيد قد أدركا المناورة التى يقوم بها .. سيمضى الحوار كما فى المشهد السابق حتى يقول سعيد :

سعيد : هذا ظلم .. أتعاقبيننى على شيء حدث رغمًا عنى ؟.. أمن العدل أن أعاقب على شيء لم أقصده ؟.

الأم : اسمع يا سعيد .. هذه الطريقة التى تتبعها بإلقاء اللوم علينا كلما

ارتكبت خطأ ، لن تستمر بعد اليوم .

سعيد : (مبهوتًا) هيه ؟! .

الأم : ألاحظ أنك تعودت على لومى ولوم والدك على ما تخطئ فيه .. لقد انتهى ذلك .

سعيد : أنتما معًا تعاقبانني دائمًا على أشياء لا أملك فيها شيئًا .

الأم : لن يفيدك هذا بعد الآن .. لن نسمح لك بأن تمضى فى إلقاء الوحل علينا ، كلما ارتكبت خطأ .. حتى إذا حاولت ذلك ، فلن يجديك نفعًا .

سعيد : أنتما تظلمانى .. أنتما تعاملاننى بقسوة .. أنتما ..

الأم : (مقاطعة) ها أنت تعود ثانية إلى إلقاء الوحل .. أنا لست كاملة ، ولا أحد يكون كاملاً .. بل ربما أكون مخطئة فى بعض الأحيان ، لكن إلقاء تبعة كل خطأ ترتكبه على والديك لن يستمر بعد ذلك .. هذا لن يفيدك ، ولن يفيدنا ..

سعيد : (وقد بدأ يبكى عاليًا) أبى ..

الأم : ولا فائدة من التجائك إليه . لقد ناقشنا هذا الموضوع معًا ، واتفقنا على ذلك .. لن نسمح لك بعد ذلك إلقاء اللوم علينا ..

الأب : والآن .. اذهب إلى حجرتك لمدة نصف ساعة يا سعيد .. وفكر جيدًا فيما قالته والدتك ..

سعيد : أنتما تتآمران على ..

الأم : نعم .. لكى نساعدك ..

وبهذا ، تصل أيام ممارسة سعيد للمناورة الضارة إلى نهايتها .. مما يعود بالفائدة عليه وعلى والديه .

«تــوازن القــوى»

فى الأسابيع والشهور الأولى من حياة الطفل ، لا يستطيع أن يميز بين «أنا» و «الآخرين» و «العالم من حولى» . إنه يعيش فى محيط متدفق من الأحاسيس المختلطة المتلاطمة . ثم يبدأ ــ بالتدريج ــ فى اكتساب إدراك لنفسه كشخص منفصل عن بيئته .. وأول شخصية تبرز له من وسط الضباب ، هى الأم ، أو الشخص الذى يحل محلها فى ذلك الوقت . وادراك الطفل لأمه ، كمصدر راحة أو ألم ، يؤثر إلى حد ما فى علاقاته مع البشر الذين يتصل بهم فى حياته المقبلة .

وإذا كان الشائع أن عنصرى الغريزة والوراثة هما أكبر مؤثرين على كيان الطفل ، فالثابت أن أثر خبرات التعامل فى الطفولة يكون على درجة من القوة ، مما يتجاوز أثر الغريزة والوراثة .

وهناك بعض المناورات المقتضبة التى تجرى بين الطفل ووالديه ، والتى لا تدوم لأكثر من عدة ساعات أو عدة أيام ، وهذه لا تكون ضارة ، وإن كانت تسبب قدرًا من التعاسة أثناء ممارستها . إلا أن ما نركز عليه هنا ، هو المناورات الضارة ، طويلة المدى ، التى تجرى بتصميم وإصرار وروح قتالية بين الأطراف المعنية ، وهى التى تصوغ شخصية الطفل على مدى حياته .

السيـــادة لمن ؟ :

فى سن مبكرة ، يعلم الطفل أن لديه قدرًا معينًا من القوة وإمكانية السيطرة . وحتى وهو بعد فى سنوات الطفولة المبكرة يشعر أن البكاء يجلب إليه الطعام ، أو يوفر له ما يحتاجه من هدهدة وربت وتمسيد ، وأن الرفض والصراخ يرغمان الأم على تلبية حاجته . وهكذا ينمو ـ ببطء ـ نوع من توازن القوى بين الأم وطفلها ، ويتواصل خلال مرحلتى الطفولة والمراهقة .

المفروض فى توازن القوى هذا ، ألا تكون السيادة المطلقة للأم أو للطفل . فالأم التى ترهب طفلها بالصياح أو العبوس غالبًا ما تحظى بطفل رعديد أو متمرد . والطفل المنطلق العفوى الذى لا يشعر بأى قيد ، ويحظى بالسيادة الكاملة فى توازن القوى هذا ، يفشل فى التعامل مع المحاظير العديدة التى يضعها المجتمع للناس .

الأم تكون قادرة على إرضاء الطفل وتغذيته ، بإطعامه فى الوقت المناسب ، وتكون قادرة على عدم القيام بذلك . وهذا ينعكس بعد سنوات قليلة على الطفل ، الذى إمّا أن يحافظ على أثاث البيت ، أو يعمد إلى تحطيمه وتخريبه . المهم أن ذلك يحدث فى أغلب الأحيان وليس لدىء الطفل أو الوالدين ادراك واضح بسبب هذه التصرفات .

من نماذج المناورات الضارة التى تعلمها الأم لطفلها مناورة «توازن القوى» .

أين الخطـــأ ؟ :

بدأ الطفل هشام يمارس هذه المناورة قبل أن يبلغ الثالثة من عمره ، فقد شعر أن الصياح الموقوت من جانبه ، يربك أمه ويحيرها ، ويضعه فى مركز قوة . ولأن الأم لا تدرك بشكل واع دخولها فى هذه المناورة ، فعند كل ثورة

غضب يديها هشام ، تظل تفكر مهمومة «ما هو الخطأ الذى ارتكبته يا ترى فى حق هذا الطفل ؟» ..

هذا السؤال ــ فى حد ذاته ــ خطأ ترتكبه الأم . وكان الأجدر بها أن تسأل نفسها «ما هو الخطأ فى العلاقة التى بينى وبين هذا الطفل ؟» .

التساؤل الأول يستهدف شخص الأم ويركز عليها ، رغم أن الإجابة عليه لا تكون فى يدها وحدها .. والتساؤل الثانى ، ينصب على الهدف السليم ، أى العلاقة بين الأم وهشام ، حيث تكمن المشكلة .

إذا ما واصلت الأم ترديد السؤال الأول ، موجهة اللوم إلى نفسها ، شاعرة كل مرة بالفشل ، فسيقود هذا إلى استسلامها . وعندما يبلغ هشام الخامسة من عمره ، يكون قد اكتسب قدرًا كبيرًا من السيطرة على أمه ، وممارسة قوته عليها . وتعتمد مناورته المتكررة مع أمه على حركتين أساسيتين :

١ ــ سلوك عدوانى ، لفظى أو مادى ، عندما يسعى للحصول على شىء .

٢ ــ التوقف عن هذا السلوك عندما يحصل على بغيته .

تهديد مع وقف التنفيذ :

عندما يصل هشام إلى سن الدراسة ، يتوقف عن الصراخ وعن تحطيم أثاث البيت ، وتتحول مناورته إلى مناورة كلامية خالصة .. وهى تجرى على مثل هذا النمط التالى :

الأم : هشام .. كفاك لهوًا فى الحديقة .. ادخل واغسل وجهك ويديك .

هشام : إننى مازلت أريد أن أواصل لعب الكرة .

الأم : سيصل والدك بعد قليل .. أرجوك ادخل ..

هشام : ليس الآن .. لم أنته من لعبى بعد .

الأم : (بصوت مرتفع) هيا يا هشام ..

هشام : لماذا تصيحين ؟

الأم : أنا لا أصيح .. أنا فقط أطلب منك أن تدخل ..

هشام : ها أنتِ تصيحين مرة ثانية .

الأم : الساعة تقترب من الثانية يا هشام .. ادخل .

هشام : أنت دائمًا تفسدين متعتي بما أفعله .

الأم : (بتهديد ضعيف ، تعرف هي وهشام مقدمًا أنه لن يوضع موضع التنفيذ) ادخل حالاً .. وإلا سآتي وادخلك قسرًا ..

هشام : (مواجهًا التهديد الزائف) لن أدخل .. لازال هناك بعض الوقت لكي ألعب بالكرة ..

الأم : أرجوك يا هشام .. استجب لكلامي .

هشام : سأنتهي من اللعب بعد ربع ساعة ..

الأم : (وهي تعود منهزمة إلى داخل البيت) سيكون والدك قد حضر .

ضـوابط المجتـمع :

هذه المناورة تكشف عن تشوه في علاقة الأم بابنها .

فالأم ، بالإضافة إلى الحب والتفهم الذي تبديه نحو طفلها ، يجب أن تكون قادرة على أن تضع له حدودًا معقولة ، وتصر على التزامه بها . وبهذا يشب الطفل قادرًا على التكيف بسهولة مع الحدود والضوابط العديدة التي يضعها له المجتمع .

فالمجتمع يطلب من الشخص ، مثلاً ، أن يقف بسيارته عندما تصبح إشارة المرور حمراء ، وأن يدفع الضرائب التي تستحق عليه في مواعيدها المعينة ، وأن يتواجد في عمله في أوقات محددة . والشخص لن يتمكن من

الوفاء بذلك وبغيره ، إذا لم ينم داخل نفسه القدرة على فعل ذلك فى علاقات التعامل مع الآخرين فى سنوات طفولته ومراهقته .. فى المرحلة التى تتشكل فيها شخصيته .

نحن نحبك .. ولكن :

دعنا الآن نتصور الطريقة المثلى التى تواجه بها الأم لعبة توازن القوى ، عندما يمارسها معها الابن .

الأم : هشام .. كفاك لهوًا فى الحديقة .. ادخل واغسل وجهك ويديك .

هشام : إننى مازلت أريد أن أواصل لعب الكرة ... (وحتى يقول) لماذا تصيحين ؟

(عند هذه النقطة ، يجب أن تسأل الأم نفسها السؤال الصحيح «ما الخطأ فى العلاقة التى بينى وبين هشام ؟» .. ومن ثم تستطيع أن تصل إلى الإجابة الصحيحة «إنه يحاول أن يستعرض قوته علىّ ، وأنا بذلك أتعرض لإكراه تحت التهديد») .

الأم : اسمع يا هشام ، لقد حان وقت الغذاء ، عليك أن تدخل لتغتسل قبل أن يصل والدك .. هيا ادخل .. الآن ..

هشام : أنت دائمًا تفسدين متعتى بما أفعله ..

الأم : (جادة هذه المرة) ادخل الآن ، وإلا ادخلتك قسرًا ..

هشام : (متحديًا) لن أدخل .. ليس الآن .. أنا سأستمر فى ...

(تجذبه الأم فورًا من ذراعه ، وتدخل به ، ثم تغسل له وجهه ويديه ، فيبدأ هشام فى البكاء والصراخ ..) .

الأم : اذهب إلى حجرتك حتى تنتهى من هذا البكاء والصراخ ..

واغلق الباب خلفك جيدًا ، حتى لا تزعج أحدًا بصياحك هذا .. نحن نحبك يا هشام ، لكننا لا نفيدك إذا ما تركناك تفعل ما تريد ، وتبكى وتصرخ عندما تفشل فى ذلك ..

هشام : انتظرى حتى يأتى أبى ..

الأم : لن يفيدك هذا أيضًا .. لقد تحادثنا والدك وأنا فى هذا الشأن ليلة البارحة ، ولن يستجيب أى منا لصياحك هذا ..

هشام : (حائرًا لإفساد مناورته) ـ ماذا تقولين؟!.

الأم : (بحزم) لقد سمعت ما قلته .. ادخل إلى حجرتك حتى استدعيك لتناول الغذاء ..

«الابـــتزاز

بعد سنتين من مولد الطفل تنتهى فترة اعتماده الجسدى الكامل على أمه ، وبهذا تتزايد أهمية دور الأب . وعندما يصل الطفل إلى الثالثة أو الرابعة من عمره ، يصبح دور الأب مساويًا لدور الأم فى التنمية العاطفية التى يحتاجها الطفل .

فى السنة الأولى ، أو السنتين الأولتين ، يمارس الأب تأثيره على الطفل بشكل غير مباشر ، من خلال الأم . فالأب إذا ما وفر لأم حياة زوجية دافئة آمنة ، انعكس هذا على علاقتها بالطفل . أما بعد أول سنتين من حياة الطفل ، فتصبح العلاقة المباشرة للأب بطفله عاملاً حاسمًا فى تكوين أنماط تعامل الطفل مع الآخرين ، وقد تدفعه إلى ممارسة نمط من الألعاب الضارة بالذات .

الطفل الذى يواجه بأب بارد العاطفة ، رافض للتعامل ، قد لا يكون فى مقدوره مواجهة هذا الوضع المؤلم ، فيهرب إلى عالم أحلام اليقظة الزائفة ، التى تساعده برغم ذلك على تحقيق قدر من الراحة والتعويض ، فيتصور والده شخصًا طيبًا قويًا يحبه كل الحب ، لكن لا يجد الوقت الكافى الذى يمضيه معه . إذا بقيت عادة الهرب إلى أحلام اليقظة مع الطفل فى مراحل تالية ، ولم يستطع أن يلجمها ويوجهها وجهة نافعة ، فإن ذلك يعقّد علاقاته بالآخرين .

ومن الألعاب الضارة التى يغرسها الأب ـ لاشعوريًا ـ فى حياة الابن ـ لعبة «الابتزاز» .

الواجـب أهـم من الحـب :

والد إلهام يعانى من حاجة ماسة إلى الإحساس بحب أبنائه له وهم إذا لم يؤكدوا له حبهم دائمًا بالقول والفعل ، يشعر بأنه قد فقدهم ، وحطم كيانهم .

لقد نشأ الأب نفسه فى أسرة تقيم اعتبارًا للواجب ، أكثر ما تقيم للحب ، وهكذا خرج من سنوات تكوينه الأولى شاعرًا بحاجة ماسة إلى أن يحبْ ، وأن يكون محبوبًا .

ورغم أن الحب يعتبر بالفعل شرطًا أساسيًا فى التنشئة السليمة للطفل ـ فلا يجب أن تؤدى حاجة الأب إلى الحب ، إلى أضعاف موقفه فى لعبة «الابتزاز» على الأب أن يتحمل ، دون اهتزاز أو اضطراب ـ الشجارات المحدودة ، ومواقف سوء التفاهم التى لا يمكن تفاديها ـ فى المشاكل اليومية التى يصادفها كل الآباء مع أبنائهم .

عندما كانت إلهام فى الثالثة من عمرها ، شعرت بعدم قدرة والدها على تحمل البرود أو الفتور ، ولو لفترة قصيرة ، فى علاقتهما . ورغم أنها ـ بحكم عمرها ـ لم تكن تستطيع أن تضع هذا الشعور أو تصوغه فى كلمات ، إلا أنها استطاعت اكتشاف أن تجهمها ورسم معالم الحزن على وجهها ، كفيلان بدفعه إلى الخضوع لرغباتها . وعندما وصلت إلى الرابعة من عمرها ، كانت قد تعلمت بعض المناورات الكلامية التى زادت من فعالية ممارستها للعبة الابتزاز . وعن طريق المحاولة والخطأ والتجريب ، وجدت أن «أنت لا تحبنى ..» ، و «أنا أكرهك !» ، و «لو كنت تحبنى ، ما كنت فعلت هذا ...» ، وجدت

أن هذا يدفعه إلى تلبية مطالبها . وكانت فى كل مرة تنجح فيها ، تكافئه بابتسامة عريضة ، وإذا ما ألحّ وألحف تمنحه قبلة ..

مسار اللعبة الضارة :

وفيما يلى نرى كيف يجرى حوار نمطى بين إلهام وأبيها :

إلهام : (مشيرة إلى دمية كبيرة فى محل لعب الأطفال) أريد هذه الدمية .

الأب : إن ثمنها ٢٥ جنيهًا يا حبيبتى .. هذا كثير جدًا ، وأنت لديك فى البيت الكثير من الدمى .

إلهام : سميحة شكرى لديها دمية مثل هذه .. أريد أنا واحدة أيضًا ..

الأب : لكن يا حبيبتى أنت لديك العديد من الدمى ، وهناك حد لما يجب إنفاقه على مثل هذه الأشياء .

إلهام : (تبدأ ممارسة لعبة الابتزاز) والد سميحة يشترى لها كل ما تريده .. إنه يحبها .

الأب : يا إلهام .. لا ترددى مثل هذا الكلام ، ولا تتجهمى هكذا .. لا يصح أن تصبحى تعيسة لمثل هذه الأشياء البسيطة .

إلهام : إنها ليست شيئًا بسيطًا !.

الأب : يا عزيزتى ، لا أحب أن أراك هكذا .. انصتى إلىّ .. سأشترى لك شيئًا آخرًا ..

إلهام : انت لا تحبنى !.

الأب : إلهام !.. أنا أحبك .. كل ما فى الأمر أن هذه الدمية غالية جدًا ، وأنا ...

إلهام : (مقاطعة) أنت لا تهتم إذا كنت سعيدة أم تعيسة .. أنت لا تهتم بى أبدًا ..

الأب : (مستسلمًا) مهلاً .. مهلاً يا حبيبتى ، سأشتريها لك .. هيا

ابتسمى ، ولا تظهرى كل هذا الحزن والتجهّم .. والدك يحبك .. إنه يحبك جدًا ...

إلهام : (منتصرة) أريد دميتى الآن ..

الأب : إن البائعة تقوم بلفّها .. والآن والدك يريد ابتسامة كبيرة .. وقبلة حارّة ..

إلهام : (مبتسمة) موافقة ..

عندما يتواصل استخدام لعبة «الابتزاز» هذه بشكل متكرر ، ويصبح فيها الطفل قادرًا على التلاعب بأبيه ، يأتى وقت تقضى فيه هذه اللعبة على الحب الذى يبحث عنه الأب . وغالبًا ما تمارس هذه اللعبة عدة مرات فى اليوم ، فى الأمر المهم والتافه ، ويصبح الحب شيئًا يباع ويشترى ، سلعة وليس رابطة عاطفية .

ولعبة «الابتزاز» تخرّب شخصية الطفل والأب معًا . تجعل الطفل يفشل فى تنمية قدرته على تقديم الحب وتلقيه ، وتجعله لا يتعلم سوى المساومة بالحب .. لا يتصور أن الحب غاية فى حد ذاته . كما أن وجه السخرية فى لعبة «الابتزاز» هو أن السعى المستميت من جانب الوالد فى سبيل الوصول إلى حب ابنته ، يخلق حالة من استحالة ممارسة الحب . أضف إلى ذلك أن الأب الذى يفتقد الإحساس بالحب الحقيقى من جانب ابنته ، غالبًا ما يتكون لديه إحساس باليأس والعدوانية تجاه الابنة ، الأمر الذى يثير لديه إحساس دائم بالذنب .. وهكذا ، ما أن يصل الطفل إلى منتصف سن المراهقة ، حتى تنهار العلاقة السوية بينه وبين الأب .

عندما تتطور اللعبة الضارة :

دعنا نرى الآن ، كيف يمكن لإلهام أن تمارس لعبة «الابتزاز» عندما تصل إلى الخامسة عشرة من عمرها

الأب : إلهام يا حبيبتى ، لقد أخذت السيارة أمس مرة ثانية . وأنت لم تحصلى على رخصة قيادة بعد ، مما يتسبب لك فى مشاكل .

إلهام : أنت لا تفعل سوى أن تنتقدنى .. أليس لديك أبدًا شيئًا طيبًا تقول لى ؟.

الأب : يا عزيزتى ، لا تتكلمى هكذا .. أنا لا أريد سوى ما فيه مصلحتك .. لقد عدت مساء قبلك ، وبقيت قلقًا عليك .. لا أعرف ماذا حدث لك ، ومع من تركبين السيارة فى ذلك الوقت المتأخر .

إلهام : أنت لا تثق بى .. أنت لا تحبنى .. أنت لا تحب أى شىء أفعله .

الأب : إلهام .. إلهام .. لا تقولى هذا ، لقد حرصنا دائمًا على أن نفعل كل ما يجعلك سعيدة .

إلهام : أنت تكرهنى !..

الأب : (متأثرًا) أنا آسف إذا كنت قد قلت شيئًا بدا لك قاسيًا .. أريد فقط أن تكونى سعيدة .

إلهام : أنا أستطيع أن أحمى نفسى .. لقد وصلت إلى سن يجعلنى قادرة على قيادة السيارة ، ولم يحدث قط أن أوقفنى شرطى من المرور .

الأب : (متراجعًا) وهو كذلك يا عزيزتى .. فقط كونى حريصة ، وحاولى أن تختارى صحبة عاقلة .

إلهام : سأفعل .. ولكن أرجو أن تتوقف عن ترديد هذه الأقوال .

الأب : والآن .. أرجو أن أرى أساريرك منبسطة .. أين الابتسامة العريضة ؟. آه ، هذه هى ابنتى الحبيبة .

الطفل الذى يتعود ممارسة لعبة «الابتزاز» مع والديه ، ينصبُّ تركيزه على الحيل والمناورات التى يقوم بها لابتزاز أكبر قدر من المنافع ، أكثر ما ينصب على علاقته بالشخص الذى يحقق له هذه المنافع ، وإن كان عادة لا يدرك ذلك بشكل شعورى . والطفل الذى يتعود ممارسة اللعبة ، يحملها معه خلال مراحل حياته العاطفية والزوجية والعملية القادمة .

قطـع مســار اللعبــة :

دعنا الآن نستعرض ما كان يجب على والد إلهام أن يفعله ، إذا ما أراد أن يوقف ممارسة لعبة «الابتزاز» . ذلك إذا كان الوالد قادرًا على أن يفهم بشكل أفضل حاجاته ، وحاجات ابنته .

إلهام : أريد هذه الدمية ، أرجو أن تشتريها لى .

الأب : إنها دمية جميلة ، لكن لديك ثمانى دمى مثلها ، بالإضافة إلى أن ثمنها ٢٥ جنيهًا .. وهذا كثير ..

إلهام : سميحة شكرى لديها واحدة إن والدها يحبها ..

الأب : أنا سعيد بسماع ذلك . وأنا كذلك أحبك جدًا .

إلهام : لو كنت تحبنى فعلاً ، لاشتريت لى هذه الدمية .

الأب : أنا أحبك فعلاً ، لكن المسألة غير ما تقولين . الأب الذى يحب ابنته ، لا يحتاج إلى أن يظهر لها ذلك الحب ، بشراء كل ما تطلبه .

إلهام : (متجهمة) أنت لا تهم إذا ما كنت سعيدة أم تعيسة .

الأب : بل أهتم ، لكنى لا أفيدك عندما اسلّم برغباتك ، كلما ظهر التجهّم على وجهك .

إلهام : أنت تكرهنى .. أنت لا تحبنى ..

الأب : يا إلهام يا حبيبتى .. لن تجديك هذه الأقوال بعد اليوم .

إلهام : (مباغتة لقطع اللعبة) ماذا ؟..

الأب : أقول إن التجائك إلى قول «أنت لا تحبنى» ، لن يفيدك فى الحصول على أى شىء تريدينه .. أنا أحبك ، وعليك أن تتعلمى أن تحبى الآخرين ، دون أن تعلّق هذا على مساومات ومنافع ..

إلهام : (ثائرة) أنت أب فظيع .. أنا أكرهك .

الأب : كل ما فى الأمر أنك غاضبة لعدم حصولك على الدمية .

الهام : (متجهمة) أرجوك .. أريدك أن تشتريها لى ..

الأب : لا تتجهمى .. هذا لن يجديك بعد الآن . هذا الأسلوب الذى تلجئين إليه ضار بك وبى ..

* * *

عندما جرى هذا الحوار كانت إلهام فى الرابعة من عمرها .. وإذا استمر الوالد فى إقامة التعامل على هذا الأساس ، ستكون إلهام قد تخلصت من ممارسة لعبة «الابتزاز» عندما تصل إلى الخامسة من عمرها .

«الإبـن الضـال ..»

بعض الألعاب الضارة يتعلمها الطفل من أمه ، ويتعلم البعض الآخر من أبيه ، وهناك مجموعة من هذه الألعاب يتقاسم أفراد العائلة مسئوليتها .

وقد دأب علماء النفس والمجتمع ، فى الماضى ، على القول بأن الطفل يغلب أن يواجه أنماطًا خاصة من المشاكل العاطفية ، بسبب ترتيبه بين أبناء الأسرة . فحددوا بعض أنواع المشاكل التى رأوا أنها أميل أن تشيع عند الطفل الأول ، أو الأوسط ، أو الوحيد ، أو الأصغر .. إلا أن معظم علماء النفس المتخصصين فى شئون الطفل ، يؤمنون حاليًا بأن ذلك الاستخلاص لا يستند إلى رصيد واقعى . فمواقف الآباء والأمهات تختلف اختلافًا كبيرًا ، مما لا يسمح بإطلاق أحكام عامة ، عن المشاكل التى سيواجهها الطفل نتيجة لعمره بالنسبة لغيره من الإخوة والأخوات .

والدليل على ذلك أن الطفل الأول يمكن أن يكون التخطيط لمجيئه قد جرى مسبقًا بواسطة الوالدين ، فانتظراه بشغف وشوق ، ومن الممكن أيضًا أن يكون مجيئه مخالفًا لرغبة والديه ، نتيجة لأنه يشكل عبئًا اقتصاديًا على الأم العاملة التى مازال زوجها يواصل دراسته الجامعية . وأيضًا ، قد يكون الطفل الأخير مرغوبًا فيه أو مرفوضًا . أضف إلى هذا أن جنس المولود ، ذكرًا أم أنثى ، يؤثر أحيانًا على موقف الوالدين . مثال ذلك ، إذا كان الطفل الثالث

بنتًا فى أعقاب ولدين ، فالأرجح أن تحظى هذه البنت بترحيب الوالدين .

وتشبه الأسرة إلى حد ما البنية العامة للمجتمع . يحتل الوالدان موقع القيادة والسلطة فى سنوات التكون الأولى للأطفال ، بينما يأخذ هؤلاء موقع الرعية المتساوية الحقوق والواجبات . وموقف الشخص من السلطة الاجتماعية يتأثر تأثرًا كبيرًا بنوع العلاقة التى كانت بينه وبين والديه وإخوته . الطفل الذى ينشأ بين أبوين عطوفين ، يضعان حدودًا معقولة لسلوكه ، يكون أميل إلى التكيف مع السلطة الاجتماعية . بعكس الطفل الذى ينشأ وسط صراعات حادة بين والدين عدوانيين أو مهملين . والطفل الذى يتعلم أن يوقع فى سنواته الأولى بين والديه واخوته لكى يحصل على ما يريد ، غالبًا ما يحمل معه هذا النمط من التعامل فى علاقاته بعد البلوغ ، ليطبقه على الرؤساء وزملاء العمل ..

وبشكل عام ، الألعاب الضارة التى تتعلمها فى البيت ، هى نفسها التى تلعبها فى الحياة .

الطيب .. والمشكل :

فى معظم العائلات يوجد قدر محدود من التنافس بين الإخوة والأخوات . وعندما يحرص الوالدان على معاملة الأبناء بدرجة متساوية من الحب والعطف ، يبقى هذا التنافس فى أضيق نطاق . أما عندما يظهر الوالدان ميلاً إلى أحد الأبناء ، فإن هذا يقود إلى أن يصبح التنافس حادًا وقاسيًا . الطفل صاحب الامتيازات سرعان ما يستغل هذا فى التلاعب بوالديه كأداة ضد الأخوة الأقل حظًا . ومن هنا تنطلق الدائرة المفرغة ، والتى يحظى فيها الطفل المميز ، يومًا بعد يوم ، بمزيد من التقدير ، فى الوقت الذى يتناقص فيه قدر الطفل الأقل تميزًا .. ويتحولان على لسان الجميع إلى «الطفل الطيب» و «الطفل المشكل» .

دعنا نستعرض الظروف النمطية للعبة «الابن الضال» .

حمل خارج الخطة :

كانت سامية طفلة مرغوبة ، فنشأت فى طقس من الحب والحنان . وكانت خطة والديها أن ينتظرا عدة سنوات قبل أن ينجبا الطفل الثانى . لكنهما شعرا بالاستياء عندما اكتشفت والدة سامية أنها حامل بعد خمسة شهور . لقد أرغمهما المولود الثانى على الانتقال من شقتهما الصغيرة إلى بيت أكبر فى الضواحى ، قبل أن يكون لديهما المال الكافى لشراء وتأثيث البيت الذى كانا يطمعان فيه . وقد تسبب ذلك الحمل فى توتر حياتهما الزوجية ، وكثرت بينهما المشاحنات . لكنهما تعشما فى أن يعوضهما عن هذه الحالة التى وصلا إليها ، أن يجىء المولود ذكرًا ، بحيث يكتمل تكوين الأسرة .

وعندما جاء المولود بنتًا .. كان واضحًا رفض الوالدين لها ، حتى أنهما لم يختارا لها اسمًا إلا بعد أن ذكرتهما الممرضة بذلك ، قبل مغادرة الأم للمستشفى .. وهكذا بدأت راوية حياتها

ونتيجة لنفاذ صبر الأم فى إرضاع راوية ورعاية شئونها ، تزايد حدة طبع الوالدين . كانت راوية تبكى كثيرًا ، وتستيقظ صارخة عدة مرات خلال الليل . متعبة فى تناول طعامها ، قلقة لا تستقر على حال واتفق الوالدان على أنها طفلة صعبة ، وراحا يقارنان أحوالها بأحوال سامية ، التى أصبح ينظر إليها دائمًا باعتبارها الطفلة اللطيفة الطيبة .

فى الوقت الذى بلغت فيه سامية الرابعة ، وراوية الثالثة ، بدأت ممارسة لعبة «الابن الضال» بحماس .

لقد شعرت سامية بوضعها المتفوق ، وبضعف موقف راوية ، فتعلمت كيف تتلاعب بموقف الوالدين ، لتحقق مكاسبها الخاصة . ومن كثرة ممارسة

هذه اللعبة ، تضاعفت من حدة طبع الوالدين تجاه راوية ، ومن كثافة مشاعرهما الطيبة نحوها .

الحلقــة المفــرغة :

عندما بلغت الطفلتان السابعة والسادسة من عمريهما ، كانت الحلقة المفرغة قد أحكمت ، لتسيطر على كل مظهر من مظاهر العلاقات بين الطفلتين والوالدين . وأصبح طبيعيًا أن يتكرر مثل الحوار التالى :

الأم : لقد تحولت هذه الحجرة إلى فوضى .. هيا يا بنات .. نظفا الحجرة واستعدا للغذاء .

سامية : لقد نبهت على راوية ألا تبعثر اللعب فى أنحاء الحجرة ، وألا تلقى بقصاصات الورق على الأرض ، لكنها لم تستجب لى .

راوية : لقد كنت تفعلين نفس الذى أفعله .

سامية : هذا غير صحيح .. أنا لم أفعل ذلك .

الأم : راوية !. توقفى عن إلقاء اللوم على أختك فى كل شىء .. لقد كانت دائمًا منظمة مرتبة ، بينما تبعثين أنت الفوضى فى كل مكان . هيا ، رتبى الحجرة حتى تنتهى هذه الفوضى .

راوية : سامية هى التى وضعت هذه اللعب على ...

الأم : (مقاطعة) أنت تكذبين .. تعلمين جيدًا أنك تكذبين .. وبالإضافة إلى أخطائك الأخرى أنت أيضًا تكذبين وتكذبين وتكذبين .

راوية : أنا لم أكذب الآن !.

الأم : لماذا لا تكونين مثل أختك ؟ كيف يمكن لأختين أن تكونا مختلفتين هكذا ؟.. واسمعى يا راوية ، لا أريد هذا التجهم وتعقيد الجبين .

راوية : أنا لم أتجهم ..

الأم : بل تجهمت .. ها أنت تكذبين ثانية .
سامية : كفى يا راوية .. لا تضايقى أمنا أكثر من هذا .
راوية : أنا لم أضايقها .
الأم : هيا .. نظفا هذه الحجرة ورتباها فوراً .
سامية : أنا دائما أقوم بنصيبي من العمل (تقول هذا بينما هى ترفع لعبتين أو ثلاث من الأرض وتضعها فى الدولاب) .
راوية : (تراقبها) هذا ليس كل نصيبك من العمل .. أنت لم ترفعى سوى ..
الأم : كفى كلاماً .. سامية تفعل دائماً ما يطلب منها .. المشكلة دائماً معك أنت ..
سامية : لقد قمت بنصيبى من العمل ، وسأذهب لكى استعد للغذاء .
الأم : (تاركة الحجرة) سأعود بعد خمس دقائق يا راوية .. أريد أن أرى كل شىء فى مكانه .

حتى الأقارب والمدرسة :

لقد انعكس موقف الوالدين ، ومهارة سامية فى ممارسة لعبتها ، على رأى المحيطين بالأسرة فى راوية . الجدّان والأعمام والأخوال ، كانت سامية بالنسبة لهم البنت اللطيفة ، وراوية المشاكسة العنيدة . وساعد على ذلك ما تبديه سامية من سعادة وسرور ، وما تلتزمه راوية من تجهم وانقباض .

وانتقل توزيع الأدوار هذا إلى المدرسة أيضًا ، فأصبحت سامية قرة عين المدرسة ، وراوية هى التلميذة التى لا تستجيب أو تطيع . وتعودت راوية أن تسمع المدرسات يقلن لها «لماذا لا تبدين الانشراح والطاعة كما تفعل أختك الكبيرة ؟» .

وعندما تصل الأختان إلى سن المراهقة ، تصبح سامية فتاة أنيقة ، مستقلة بذاتها ، تحرز تنوعًا واسعًا من أساليب ومهارات التلاعب بالناس ، وتوجيههم لمنفعتها . أما راوية ، فتصبح فتاة متمردة ، يسودها شعور بالنقص ، تشعر بغربة نحو أسرتها ، وطريقة الأسرة فى الحياة ، مما يشيع التعاسة بين أفراد الأسرة .

البصـــيرة الأعمـــق :

دعنا الآن نتصور كيف كان من الممكن لوالدة سامية وراوية أن تعالج الموقف السابق ، لو أنها كانت تتمتع ببصيرة أعمق بالنسبة لمشاعرها ، وللعبة الضارة التى تقوم بها سامية ..

الأم : لقد تحولت هذه الحجرة إلى فوضى .. هيا يا بنات .. نظفا الحجرة واستعدا للغذاء ..

سامية : لقد نبهت على راوية ألا تبعثر اللعب فى أنحاء الحجرة ، وألا تلقى ...

الأم : (مقاطعة) سامية ، أنا لا أحب هذا الذى تقومين به دائمًا .. إنه يضرّ بك وبراوية وبالعائلة كلها .. لابد أن تفهمى جيدًا أنك لست المسئولة عن تحديد ما تفعله ولا تفعله راوية .. هذه مسئوليتى أنا ..

سامية : أفهم ذلك يا أمى ، ولكنها هى التى نثرت قصاصات الورق فى أنحاء المكان ، وكذلك قامت بـ ...

راوية : هذا غير صحيح ..

الأم : جميل .. ستقومان معًا بترتيب وتنظيف الحجرة .

سامية : لكن راوية هى التى تبعث الفوضى دائمًا ..

الأم : إذا كانت كذلك فعلاً ، فمرجعه إلى أنك تداومين ترديده على مسامعها .

راوية : فعلا .. وبالمناسبة ، سامية ليست هى ذلك الملاك الذى يتصوره الجميع .

سامية : ها هى ثانية تهاجمنى .

الأم : هذا يكفى .. لقد جرى بينى وبين والدكما حديثًا مطولاً عنكما .. منذ الآن فصاعدًا ، سنحرص على أن ينال كل منكما حقه العادل ..

سامية : أنا لا آخذ حقى ..

راوية : (مستنكرة) ماذا ؟!.

الأم : أعنى أننا تعجلنا فى الحكم عليكما ، باعتبار أن سامية هى الطيبة وراوية هى السيئة ، كلما لاحت مشكلة .. ليست أى منكما ملاكًا ، ولا أيكما ابنًا ضالاً .. هيا ، تحركا معًا لتنظيف وترتيب الحجرة ، ولا تغادر أى منكما الحجرة قبل أن يتم هذا .

سامية : (مستميتة) لكن راوية هى دائمًا التى ..

الأم : (مقاطعة) سأعود بعد خمس دقائق ، وإذا لم أجد الحجرة مرتبة ونظيفة ، سأحرمكما من مشاهدة التليفزيون اليوم .. أنتما تعلمان أن اليوم هو الموعد الأسبوعى لبرنامج أفلام الصور المتحركة .

سامية : هيا بنا ننظف الحجرة ..

راوية : هيا ..

الفصل الثاني عشر

موقفنا من الألعاب

موقفنا من الألعاب

بعد هذا الاستعراض للألعاب الخفية التى تسود حياتنا ، يبرز تساؤل هام . ما هو موقفنا من الألعاب ؟ وكيف تتواصل حياتنا ، وقد اعتمدت بشكل أقل على هذه المناورات الضارة ، التى تبدد طاقتنا ، وتوقعنا فى محاظير لم يكن من الحتمى أن نقع فيها .

فى الفصل الختامى من هذا الكتاب ، سنتحدث عن الآتى :

- معنى الألعاب .
- طبيعة الألعاب .
- ممارسو الألعاب : العابس ، والمهزوز .
- الاستقلال الذاتى للفرد ، كبديل لممارسة الألعاب .

معنى الألعاب

يمكن أن ننظر إلى معنى الألعاب ، على مستويات مختلفة ، على المستوى التاريخى والمستوى الثقافى ، والمستوى الاجتماعى ، والمستوى الشخصى .

١ ـ المعنى التاريخى :

تنتقل الألعاب من جيل إلى جيل ، واللعبة المفضلة عند شخص ما ، يمكننا أن نتتبعها عند آبائه وأجداده ، ثم عند أولاده . وما لم يحدث اعتراض ناجح وإيقاف سليم لمجرى اللعبة ، فمن الممكن أن تصل إلى الأحفاد .

لهذا ، ينسحب تحليل الألعاب على مسافات تاريخية ممتدة ، قد تصل إلى مائة سنة مضت ، وخمسين سنة قادمة . وقطع هذه السلسلة ، التى تكون قد امتدت على مدى خمسة أجيال ، تكون له نتائجه الايجابية .

والألعاب فى انتقالها من جيل إلى جيل ، تتحور ، وفى بعض الأحيان يتغير مسارها وشكلها تماما ، لكن الثابت أن هناك ميلاً شديدًا إلى توارث اللعبة الواحدة أو تنويعاتها ، فى العائلة الواحدة .

٢ ـ المعنى الثقافى :

تنشئة الأطفال ، ينظر إليها علماء تحليل التعاملات باعتبارها ، تعلمهم الألعاب التى يمكنهم ممارستها . وباختلاف الثقافة والطبقة الاجتماعية تختلف الألعاب ـ كذلك يكون لكل عائلة تفضيلها لنوع مختلف من الألعاب .

٣ - المعــنى الاجتمــاعى :

تنحصر الألعاب بين حدين ، هما التسلية والتآلف .

التسلية ، مآلها السأم إذا ما تكررت ، وهو ما نلمسه فى بعض الحفلات والمناسبات الروتينية .

والتآلف ، يتطلب حذرًا شديدًا ، ويتعرض للتحامل الدائم من مواقف (الوالد) و (البالغ) و (الطفل) داخل الشخص . كما أن المجتمع يضيق بالملاطفات الأليفة إلا إذا كانت فى خلوة . كما أن (الطفل) فى الشخص يخشاها ، لما تتضمنه من كشف للأغطية ، ورفع للستائر .

لذا ، فأغلب الناس يلجأون إلى الألعاب ، كلما توفرت مقوماتها ، هربًا من ملل التسلية المتكررة المعادة ، وتفاديًا لمخاطر التآلف .. وعلى هذا ، تشغل الألعاب جانبًا من أهم أوقات العملية الاجتماعية .

٤ - المعــنى الشخــصى :

عند انتقاء الناس لأصدقائهم ، وعند ارتباطهم أو تعاطفهم مع الآخرين ، يعمدون إلى اختيار الذين يلعبون نفس الألعاب ، أو الألعاب المكملة لها . وعلى هذا ، فالناس ـ فى دوائر اجتماعية معينة ـ يبدو سلوكهم غريبًا بشدة ، على أفراد دائرة اجتماعية أخرى .

وإلى جانب هذا ، فأى عضو فى دائرة اجتماعية ، يعمد إلى تغيير ألعابه التى يمارسها ، بحيث تختلف عن الألعاب المتداولة فى دائرته الاجتماعية ، يتعرض للإبعاد والنبذ . وإن كان فى إمكانه أن يلقى ترحيبًا فى بعض الدوائر الاجتماعية التى تمارس ألعابه الجديدة .

طبيعـــة الألعــاب

قلنا من قبل ، إن الألعاب التى تزرع خلال الطفولة والمراهقة ، لا تنتهى عادة بمجرد دخول الفرد إلى طور البلوغ . قد تتغير مجموعة الأشخاص التى تمارس معه الأدوار الأخرى فى اللعبة ، لكن اللعبة نفسها تظل على حالها .

اللعبة التى توفر للطفل السيطرة على والديه وعلى الآخرين ، بالاعتماد على السلوك العدوانى ، واظهار مشاعر الغضب ، والتى ترغمهم جميعًا على الاستجابة لمطالبه ، هذه اللعبة يظهر صداها فى مراحل العمر التالية ؛ فيصبح هذا الطفل شابًا يسعى إلى الأخذ فقط فى علاقته العاطفية ، مستأسدًا فى زواجه ، مسيطرًا فى تربيته لأولاده ، وفى العمل إذا لم تتم الأمور بطريقته الخاصة ، يظل دائمًا فى حالة شجار مع زملائه .

كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يتوافق مع مجتمعه ، كرجل بالغ ، مع استمراره فى ممارسة هذه اللعبة ؟. يتوقف هذا على عدة عوامل ، يوردها دكتور تشابمان ، أستاذ العلاج النفسى :

مستوى ممارسة اللعبة :

أهم عامل يتصل بمستوى ممارسة اللعبة ، هل هو حاد أم معتدل .

إذا ما كانت الممارسة معتدلة ، وإذا كان الشخص قادرًا على أن يكون مرنًا إلى حد ما ، فقد ينجح فى أن يحقق بعض التوافق مع محيطه ، رغم

هذه العقبة ، عقبة ممارسته للعبة . سيقول الناس «فلان يميل إلى أن يفرض رئاسته ، لكنه معقول إلى حد ما ، وبإمكاننا أن نعمل معه (أو نعيش معه) إنه يميل إلى الشجار ، كلما لم تسر الأمور على هواه وبطريقته ، لكنه يستطيع أن ينسى الموضوع ، ويمضى فى حياته . إنه يصبح كالأعرج الذى لا يعوقه عرجه عن السير»

أما إذا كانت ممارسته للعبة حادة وعنيفة ، فغالبًا ما يمر بسلسلة متواصلة من التصادمات مع أقرب الناس إليه ، ومع من يتعاملون معه تعاملاً طويل الأمد ، مما يؤدى فى بعض الحالات إلى حالة من العجز الاجتماعى . إنه يسعى إلى السيطرة على زوجته ، وإلا تحولت حياتهما إلى شجار دائم . ويسعى للسيطرة على أطفاله والتحكم فيهم ، ويدفعهم إما إلى اذعان مصحوب بالخوف ، أو إلى تمرد صريح .

نوع العمل الذى يمارسه :

واستقراره فى عمله يعتمد على نوع العمل الذى يمارسه . إذا كان يعمل فى مكتب أو مصنع ، حيث يحتك عن قرب احتكاكًا دائمًا بنفس الناس ، تكون النتيجة عراكًا دائمًا معهم ، وهو غالبًا ما يفشل فى الاحتفاظ بوظيفته طويلاً .

ومن ناحية أخرى ، إذا كانت طبيعة عمله لا تقتضى احتكاكًا متواصلاً بنفس الناس ، كأن يعمل فى تنشيط بيع سلعة ، أو مندوب تأمين ، بحيث تكون تعاملاته مع الرؤساء والزبائن سطحية ، فمن الممكن أن ينجح فى عمله ، بالرغم من ممارسته للعبة .

توفر ممارسى نفس اللعبة :

ممارس اللعبة ، الذى يدمن ممارستها ، ويمارسها بإصرار ، يصل عن

طريق التجريب ، وبشكل لاشعورى ، إلى الناس الذين يستريحون إلى إقامة علاقات دائمة معه ، من بين ممارسى اللعبة ، أو ممارسى أحد أدوارها . هذه العلاقة تعتبر علاقة مرضية ، غير صحية ، لكن من الممكن أن تستمر .

مثال ذلك ، أن ممارس اللعبة قد ينشئ علاقات متعددة قصيرة الأمد مع الجنس الآخر ، قبل أن يتزوج ، إلى أن يعثر على طرف آخر يتوفر فيه الإحساس بانعدام الأمان ، والشخصية السلبية ، مما يتيح له السيطرة الكاملة . وهكذا تتواصل سيطرته ، ويتواصل خضوع الطرف الآخر ، رغم تناقض هذا مع الأوضاع الصحية للعلاقات البشرية .

ونفس الشيء يفعله ممارس اللعبة فى مجال العمل . يظل يجرب السكرتيرات ، واحدة بعد الأخرى ، حتى يستقر على السكرتيرة التى يشعر منها بالخضوع وقبول السيطرة عليها .

مستوى الذكاء :

إذا كان ممارس اللعبة على درجة عالية من الذكاء والموهبة ، فقد يقبل الناس التعامل الدائم معه فى العمل ، على اعتبار أن كفاءته وموهبته تعوضان عن المشاكل التى يثيرها فى العمل .

أما إذا كان ممارس اللعبة عاديًا فى ذكائه وموهبته ،فالأغلب أن يتوقف الناس عن التعامل معه بعد اكتشاف نقيضته .

العـابس والمهـزوز

كثير من الألعاب تجرى ممارستها بشكل شديد الكثافة ، بين المصابين باضطرابات نفسية .. وبشكل عام ، كلما زاد اضطراب الشخص ، كلما زادت ممارسته للعبة عنفًا . لكن الغريب فى الموضوع ، أن بعض المصابين بانفصام الشخصية ، يبدون رفضهم للدخول فى ألعاب ، ويميلون إلى إعلان ذلك .

فى الحياة اليومية ، يمارس الألعاب باقتناع كامل ، نوعان من الناس : العابسون المتجهمون ، المهزوزون المغلقون على أنفسهم .

العـابسـون :

من وجهة النظر السيكلوجية ، يعتبر العابس هو الشخص الغاضب على أمه . وعند تقصى حالته ، يظهر أن غضبه هذا يرجع إلى أيام طفولته . ويكون لديه أسبابًا مقنعة لهذا الغضب ، من موقف (الطفل) فيه .

أسباب هذا الموقف متنوعة . من الممكن أن تكون قد (هجرته) فى فترة حرجة من طفولته ، بأن مرضت فتم نقلها إلى المستشفى ، أو بأن أنجبت بعده العديد من الأبناء أو أن تكون قد انفصلت عن أبيه ، وأرسلته ليعيش عند بعض الأقارب ، حتى يتاح لها أن تتزوج من جديد .. إلى آخر هذه الاحتمالات .

فى جميع الأحوال ، يبدأ العبوس فى أعقاب مثل ذلك الحدث .
والشخص العابس يكره الناس ، رغم أنه من الممكن أن يكون (دون جوان) ، متعدد العلاقات العاطفية .

وحيث أن العبوس يكون متعمدًا فى بدايته ، فمن الممكن العدول عن قرار العبوس فى أى مرحلة تالية . تمامًا كما يحدث فى حالة الطفل العابس نتيجة لسبب من الأسباب ، ما أن يستعد الطفل للخروج لشراء المثلجات ، حتى يرى فى هذه المناسبة ما يستحق التوقف مؤقتًا عن عبوسه وتجهمه .

اشتراطات العدول عن العبوس ، تكون فى (العابس) الكبير كما فى الطفل . يجب أن يتوفر له ما يحفظ ماء وجهه ، وأن يتلقى مقابلاً ثمينًا يستحق عدوله عن عبوسه .

نفس الشىء يمكن تطبيقه على النساء العابسات . فغضبهن يكون على الأب .

المهـــزوزون :

المعروف أن فى كل منا ، اهتزاز نفسى طفيف . وهدف تحليل الألعاب هو الوصول بذلك الاهتزاز إلى حده الأدنى .

(المهزوز) ، هو الذى يعكس حساسية فائقة لتأثير (الوالد) فيه . عند التعامل مع حقائق (البالغ) ، أو تلقائية (الطفل) ، يميل (الوالد) إلى التدخل فى اللحظات الحرجة ، مما يتمخض عن سلوك غير مناسب أو غير لائق ، ويصبغ تصرفاته بالانغلاق .

(المهزوز) ، يتحول فى الحالات الشديدة ، إلى منافق أو استعراضى . ولا يجب أن نخلط بين المهزوز وبين الذى يعانى من انفصام الشخصية . فنى حالة

انفصام الشخصية ، لا يكون (الوالد) داخل المريض نشيطًا ، كما أن (البالغ) يكون شبه خامل ، مما يجعله مضطرًا إلى التعامل مع العالم من الحالة الشعورية (كطفل) مرتبك .

الاستقـلال الـذاتـي
كبديل لممارسة الألعاب

عندما يتوصل الشخص إلى الاستقلال الذاتى ، يصبح فى موقع متفوق يغنيه عن ممارسة الألعاب . والاستقلال الذاتى للشخص يمكن أن يتحقق عن طريق اطلاق قدرات ثلاث ، أو استعادتها لو كانت قد ضعفت . هذه القدرات هى : الادراك الذاتى المباشر ، والتلقائية ، والتآلف .

الإدراك الذاتى المباشر :

يعنى القدرة على رؤية الأشياء ، وسماع الأصوات ، بالطريقة الخاصة للشخص ، وليس بالطريقة التى لقنها له شخص آخر أو أشخاص آخرين . أن يرى الشجرة فعلاً ، وبطريقته هو . وأن يسمع تغريد العصفور حقيقة ، وليس بطريقة اصطلح عليها من هم حوله .

من المعروف أن الرؤية والسمع تختلف قيمتها عند الطفل عن قيمتها عند الكبير . فهما عند الطفل أكثر جمالية وأقل عقلانية . والمثال التالى يوضح ما نقول .

يجلس الطفل وحيدًا فى الحديقة ، يستمع إلى أصوات الطيور مستمتعًا مسرورًا يأتى (الأب الطيب) الذى يشعر أن واجبه يفرض عليه «مشاركة» ابنه فى هذه الخبرة ، ومحاولة تنمية هذه الخبرة ، فيبدأ الأب إشاراته قائلاً «هذا بلبل وهذا كروان ..» . بمجرد أن يدخل الصغير فى جهد التعرف ، أيها

البلبل وأبها الكروان ، يتوقف عن رؤية الطيور وسماعها . لقد أصبح عليه أن يراها ويسمعها بالطريقة التى حددها له أبوه .

وعادة ما تكون للأب أسبابه القوية ، فمن الذى يمكن أن يمضى حياته يرى الطيور ويسمع أصواتها ؟ ويرى الأب أنه كلما أسرع «بتعليم» ابنه فى الصغر ، كلما كان هذا مفيدًا له . ومن يدرى ، ربما أصبح عالمًا فى الطيور عندما يكبر؟.

الثابت ، أن القليل جدًا من البشر ، هم الذين يستطيعون أن يروا ويسمعوا ، بالطريقة التى مارسوها فى طفولتهم .. وهذه القلة من البشر هى التى تضم الفنانين والشعراء والموسيقيين . أما باقى البشر ، فيفقدون هذه القدرة مع الزمن ، وهم يقنعون بأن يحصلوا عليها مستعملة (نصف عمر) عن طريق الغير .

الإدراك الذاتى المباشر ، هو فى جوهره استعادة هذه القدرة . ويجرى تعريفه سيكلوجيًا بأنه : إدراك حسى بكر متحالف مع خيال بكر .

الإدراك الذاتى المباشر يقتضى العيش (هنا) و (الآن) . أن نعيش هنا ، وهنا فقط وليس أى مكان آخر ، وأن نعيش الآن ، وليس فى الماضى أو المستقبل . وقد نتساءل : أين يكون العقل ، عندما يكون الجسد هنا ؟. هناك أربع حالات عامة :

١ ــ الرجل الذى يكون انشغاله الرئيسى هو القيام بالأعمال والوصول إلى الأماكن فى الوقت المحدد ، هو أبعد الناس عن ممارسة الإدراك الذاتى المباشر . وهو بجسمه خلف عجلة قيادة سيارته ، يكون عقله على باب مكتبه . ومن ثم ، يكون غائبًا عما يحيط به مباشرة ، إلا فى حدود كونه عقبة فى سبيل الوصول إلى اللحظة التى يتوحد فيها كيانه . هذا الرجل هو (المهزوز) ، الذى يتركز اهتمامه فى نوع نظرة رئيسه إليه . إذا تأخر عن

موعد تحركه للذهاب إلى عمله ، بذل قصارى جهده للوصول إلى مكتبه مقطوع الأنفاس . فى هذه الحالة ، تكون القيادة لموقف (الطفل) المذعن وتكون اللعبة هى «انظر كم حاولت بجد» .

أثناء قيادته لسيارة ، يكاد هذا الرجل أن يكون فاقداً لاستقلاله الذاتى تماماً . إنه ككائن حى يكون أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . مثل هذه المواقف هى التى غالباً ما تتسبب فى الإصابة بأمراض الضغط المرتفع والأمراض القلبية .

٢ ـ أما (العابس) ، من ناحية أخرى ، فلا ينصب اهتمامه على الوصول فى الوقت المناسب ، بل يكون همّه جمع الأعذار لتبرير تأخره ، حوادث الطريق ، وخلل إشارات المرور ، وعناء السائقين الآخرين . وهو موقف يناسب جداً خطته ، ويرضى (الطفل) المتمرد فيه ، أو (الوالد) العادل ، ممارساً لعبة «انظر ماذا جعلونى أفعل» ، وهذا يبعده أيضاً عن الإدراك الذاتى المباشر الكامل ، ويجعله أشبه بنصف الحى ، جسمه داخل السيارة ، وعقله خارجها يبحث عن الوصمات والمظالم .

٣ ـ وهناك «السائق الطبيعى» ، وهو أقل الأنواع شيوعاً ، والذى يأخذ قيادة السيارة كعلم وخبرة . وهو إذ يشق طريقه وسط الزحام ، يكون بأكمله داخل السيارة . إنه يكون متبيناً الظروف المحيطة به ، ويستثمرها فى تحقيق مزيد من المهارة فى القيادة . وبهذا المعنى يعتبر حياً . وقائد السيارة من هذا النوع ، يمارس القيادة كنوع من التسلية التى يتحكم فيها (البالغ) ، ويستمد منها (الطفل) و (الوالد) بعض المباهج .

٤ ـ فى الحالة الرابعة ، نصادف الشخص الذى يدرك ذاتياً ، وبشكل مباشر.. الذى لا يتعجل لأنه يعيش اللحظة الراهنة ، فى المكان الذى يتواجد فيه ، السماء ، والأشجار ، وفى نفس الوقت حركة سيارته .

الإسراع عنده يعنى فقدان المجال المحيط به ، ويعنى الانشغال بما يمكن أن يصادفه من عقبات .

الشخص الذى يتوفر له الإدراك الذاتى المباشر يكون حيًا . فهو يعرف مشاعره بدقة ، ويعرف مكانه فى كل أوان .

التلقــائية .

التلقائية تعنى حق الاختيار ، وحرية الفرد فى اختيار مشاعره من بين التنوع المتاح ، وحرية فى الإحساس بهذه المشاعر ، حريته فى الاختيار بين مشاعر (الوالد) ومشاعر (البالغ) ومشاعر (الطفل) . وهى تعنى التحرر من حتمية ممارسة الألعاب ، ومن المشاعر التى يفرضها عليه الآخرون .

التــــآلف :

التآلف يعنى الصراحة التلقائية ، الخالية من الألعاب ، فى الشخص صاحب الإدراك الذاتى المباشر ، وتحرر القدرة على إدراك الصور الذهنية ، و (الطفل) بكل فطرته يعيش فى هنا والآن . وهذا يتيح نمو المشاعر ، ويثير الأحاسيس الايجابية ، إلى حد أن البعض يقول بإمكان وجود ما نطلق عليه «التآلف مع الذات» .

ولأن التآلف يكون فى جوهره من وظائف (الطفل) الطبيعى الصحى ، فهو يتواصل بشكل طيب ما لم يتهدده تدخل (الألعاب) . وغالبًا ما يفسد التآلف ، تبنى تأثيرات ونفوذ (الوالد) ، وللأسف يحدث هذا بشكل عام ، فى كل وقت ومكان . ولكن قبل أن يحدث هذا الإفساد ، وإلى أن يحدث ، وإذا لم يحدث ، يبقى الصغير محبًا ، وهذا هو الجوهر الأساسى للتآلف .

المـــراجـــع

(1) GAMES PEOPLE PLAY.
ERIC BERNE ... ... GROVE PRESS.

(2) TRANSACTIONAL ANALYSIS.
ERIC BERINE ... ... BALLANTINE BOOKS.

(3) I'M OK - YOU'RE OK.
THOMAS HARRIS ... ... PAN BOOKS.

(4) STAYING OK.
AMY & THOMAS HARRIS ... ... PAN BOOKS.

(5) THE GAMES CHILDREN PLAY.
A.H. CHAPMAN ... ... BERKLEY PUB. CORP.

(6) REALITY GAMES.
S.SAX & S. HOLLANDER ... ... POPULAR LIBRARY.

(7) GAMES ALCOHOLICS PLAY.
CLAUDE STEINER, ... BALLANTINTINE BOOKS.

(8) THE THIRD WAYE.
ALVIN TOFFLER ... ... BANTAM BOOKS.

المحتويات

من اصدارات دار الشروق

للكاتب راجى عنايت

- سر الأطباق الطائرة
- النبات يحب ويتألم .
- الهرم وسر قواه الخفية .
- رجل يعرف كل الأسرار .
- ٣٠ ظاهرة خارقة ، حيرت العلماء .
- لعنة الفراعنة ، وهم أم حقيقة ؟
- عجائب بلا تفسير .
- تفسير الأحلام والتنجيم .
- التخاطر والسحر واليوجا .
- الخروج من الجسد .
- أحلام اليوم حقائق الغد .
- عجائب العقل البشرى .
- أسرار حيرت العلماء .
- هذا الغد العجيب .
- معجزات العلاج .
- العالم سنة ٢٠٠٠ .
- المستقبل بين الشرق والغرب .

تحت الطبع :

- حوار مع الصديق الذكى (مستقبليات) .

رقم الإيداع : ٨٩/٤٦٧٤
الترقيم الدولى · X ـ ٣٧٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



هذا الكتاب

● هذا الشاب الناجح الذكى ، لماذا اختار هذه الفتاة سيئة الطبع ، الدميمة ، زوجة له ، من بين عشرات الجميلات الدمثات اللاتى عرضن عليه ؟ .

● هذا الرجل المتعلم الذكى ، لماذا يفشل فى كل مشروع يتصدى له ؟ ، ولماذا يتخذ الخطوة الخطأ كلما لاح النجاح فى الأفق ؟؟ .

● هذه الفتاة ، لماذا تفعل كل ما يقنع ذلك الشاب بأنها تحبه وتريده ، ثم ما إن يقترب خطوة منها ، حتى ترفضه بأكبر ضجة ممكنة ؟؟ .

● وهذا اللص المحترف ، لماذا يبدو فى تصرفاته وكأنه يترك بطاقته فى مكان الجريمة ، كأنما يسعى إلى أن تصل الشرطة إليه ؟ .

مثل هذه الأسئلة ، وعشرات غيرها ، مما يعرض لنا فى حياتنا اليومية ، فى البيت والعمل والطريق ، فى الحب والزواج ومع الأبناء .. كل هذه الأسئلة التى يصعب عليك أن تصل إلى إجابة لها ، ستجد تفسيرا مقنعا لها بين صفحات هذا الكتاب ، ومن خلال كشف المناورات الخفية التى ندخل فيها جميعا ، فى حياتنا العائلية والجنسية والعملية .